رحلة في سجون الطائفية





رحلة في سجون الطاغية

رحلة في سجون الطاغية

تأليف

حسن بن محمد الطحان
من شيوخ عشائر النعيم



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صيحة حق

صيحة الحق تدوي ... رجعها بين الشباب

نحلة الحق تغنى ... طربًا فوق الهضاب

وشعاع الفجر يسري ... عسجدًا فوق القباب

قيثارة الراعي يشدو ... لحنها يعلو الضباب

وعنود الريم تبدو ... آية الحسن عند الغياب

صاح هذه بروحنا ... ما مجها طول الصعاب

طالت الدنيا علينا ... عصرنا مل السباب

انهض الفجر وناغي ... فرحة اللقاء بعد الإياب

اقرأ الحمدو صلِّ ... أبهج الدنيا نورُ الكتاب

لا يموت الحق فينا ... عهدنا عهد الصحاب

نخوة الإسلام فينا ... رمزها طولُ الرقاب

نهجنا نهج المعالي — نهجنا نهج الصواب

يا ظلام الليل ولِّ — إننا نهوى الشهاب

أمل يلوحَ بريقه — سنافتح فوق السحاب

ما لذة العيش وقهرٌ — ما لذة العيش طول العتاب

عقدة الباطل فلت — عقدة الباطل سراب

هيأة الإنسان أرخت — سترها حد النصاب

طائر الحق أبلى — ينشر الحق بعد الغياب

صولة الحق بانت — ديننا فصل الخطاب

بقلم : حسن بن محمد الطحان



المقدمة

لا بد لي أن أقدم للقارئ الكريم إيضاحا وتبيانا حول هوية كاتب هذا الكتاب، إذ أنني عربي اللون والهوى مسلم العقيدة وسطى المنهج إنساني النزعة عذري العشق والهوى للشيم والمبادئ والقيم. لا أبحث عن قبيلة كما لا أبحث عن هوية إذ أنني غنى بهذه وبتلك ولا فخر.

أجد مثلي في رمزية شجرة العرب شجرة النخيل باسقة بعنفوان مغدقة بكرم وارفة الظل عزًّا وإباء، ضاربة الجذور عصية على العواصف والأنواء والمحن. صامدةً في وجه عاديات الزمن وغصة الحياة وآلام النفس والجسد.

أجد في هذه اللحظة التي أعيش نشوتها وكبرياءها وأنا أقدم شهادتي في مسيرة العذاب بعيدا عن النزوات والهوى أن أسجل بعضا من نواميس صدري ونهج حياتي.

قد نشأت في عرين للعنفوان وأردت أن أتعلم، قد زرع في صدري وفى وقت مبكر من حياتي دون أن أعي تلك الأمور في حينها - زرع في صدري حبًّا وإعجاباً لفريدة التي لم أكن أعرفها ولكنني تلقيت أوصافها بمفردات تثير إعجابي، أخذت أكبر وكذلك فريدة تكبر في صدري حبا وإعجابا، لم أكن أعرفها أبدا كما لم أعرف نسبها أو أصلها أو مكان وجودها. هذا الإعجاب والشغف بشكلها ولونها وأصلها دفعني أن أبحث عنها كبرت وقد كدت أن اقترب من فريدة تعرفت عليها فبُهرت بجمالها وخلقها وأوصافها التي لا تحيط بها الكلمات وكما تقصر من دونها النعوت أحببتها ولا خجل. ولكنني لم أملك الجرأة الكاملة حتى أقترب منها أو أسأل يدها وكما أن لفريدة معجبين كثر. ولكن ذلك لا يضيرني ولا يجعلني أشعر بأي قصور أمام منافستهم في حبي لفريدة، تملكني حبها وأخذ يسرى مني مسرى الدم وقد تلبسني طيفها وأسعدني صوتها ووقع أقدامها. تساميت عن كل شيء وابتعدت عن كل شيء أعرفه في الحياة لأن حبي لفريدة أصبح شغلي الشاغل وهمي الوحيد ولكن إلى متى سأعيش هذه



الآلام والهواجس والأحاسيس، متى أستطيع الوصول إلى فريدة إلاّ أنني أحب في الوصول ألّا وصولا.

وصولي إليها مبكرا سيفقدني نشوة الحب التي تنبثق من آلام المعاناة والشغف والوصول إلى فريدة وأخيرا وبعد عناء طويل قد اقتربت منها وفاتحتها بحبي لها وما أحمل لها في جوانحي من لواعج الحب والتقدير لشخصها الكريم ولنسبها الأصيل إنها من سلالة فريدة وأصل لا يداني بين البشر وأخيرا قد التقينا وكانت قد طلبت مني مهرها الغالي ولكنى لم أتردد لحظة واحدة دون أن أستجيب لطلبها وحسبي أن من يخطب الحسناء لا يغلها المهر، قدمت لها مهراً كان غاليا ويصعب على الكثيرين دفعه إلا من اكتوى بعشق وحب فريدة، لقد كان مهرها واحدا وعشرين عاما من حياتي في مقبرة جماعية لأجساد بشرية حية و أتون لم تنطفئ ناره بعد وكنت قد استرخصت ذلك المهر لأن فريدة تستحقه وباذل نفسه في حب من يهواه ليس بمسرف أما فريدة فهي الكرامة ولا نامت أعين الأذلاء والمرجفين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لا أكتب قصة من وحى الخيال ولا رواية ولا ملحمة لا بل أكتب مأساة في رحلة عذاب خطتها بمداد من دمى ودمعي وحزني وقهري في سجون الطاغية سجون صممت لتكون قبوراً بشرية لأجساد حية وأفران لم ولن تنطفئ نارها بعد. سجون لكل حر أبى ولكل فرد يأبى الظلم ولا يُقر سياسات الإذلال والامتهان والاستحواذ على مقدرات الناس والسطو على أعراض سادات القوم وكراماتهم. كوابيس مرعبة عاشها ويعيشها الشعب السوري لا بل لم يسلم منها الكثيرون من العرب، تمارس من قبل سلطة غاشمة أداة في يد كيان مصطنع (شبيحة) أقام سلطته إذ تسلل لواذا إليها، وأمسكت بكل مقومات القوة والبطش والقهر لم تسلم منها طائفة أو مدينة أو قرية في سورية.

وحتى إن بعضاً من أبناء الطائفة العلوية ذاقوا ويلها ومر مذاقها ومنهم من مات في السجون ومنهم من قتل ومنهم من استسلم وأذعن إذ لا حول له ولا قوة في ملاقاة أدوات القهر والبطش وأذكر من ذلك «صلاح جديد» الذي مات في السجن وكذلك الكثيرين من أتباعه العسكريين والمدنيين ومنهم أيضا «محمد عمران» رئيس أركان الجيش السوري والذي اغتيل في لبنان من قبل شبيحة حافظ الأسد.

وما من طائفة إلا أصابها ما أصابها من ظلم وقهر عصابات آل الأسد .

أما العرب فلم يسلموا أيضا من تلك السياسات الحمقاء والشريرة ولا أدل على ذلك احتلال لبنان وتحت غطاء عربي ودولي مارس فيها آل الأسد سياسات خبيثة أذلوا العزيز ورفعوا الوضيع وصنعوا الفتن واغتالوا رجالات سياسة وفكر وإعلام ونهبوا وسلبوا وأن تلك الجرائم تحتاج إلى بحث خاص تضيق بها الصفحات والمجلدات لا بل أشغل العالم ولم تنته مسلسلات المكر والقتل التي تنظرها محكمة دولية عجزت عن معاقبة مرتكبيها.

أما في الأردن لم يسلم أيضاً من شرور عصابات الأسد ولا أدل على ذلك من محاولة



اغتيال رئيس وزراء الأردن السيد «مضر بدران» والحشود التي جاءت لغزو الأردن في سبعينيات القرن الماضي وأما العراق فكان له نصيب إذ وقفت العصابة الأسدية ضده في حربه مع إيران وإرسال المتفجرات وإيواء خصومه تحت غطاء القيادة القومية ممثلين عن العراق.

وكذلك مكاتب القيادة القطرية العراقية. لا أريد أن أسهب في تلك المؤامرات ولكن ما أريد الإشارة إليه أن شرور آل الأسد كانت رائحتها تفوح وتنتشر في غالبية الدول العربية وحتى الأجنبية.

هذه العصابة التي نام عنها العرب والعالم لأنها كانت تخدم سياسات بغيضة وذات نفوذ أوجدت لها الحماية الدولية إعلاميًّا وسياسيًّا.

عصابات الأسد أضعفت سوريا لأنها تسلحت بالطائفية لِتُفرق وتُمزِّق الوحدة الوطنية ليتسنى لها حكم الجميع وإذلالهم ولا أدل على ذلك ما تشهده سوريا الذبيحة الآن من فتك وبطش لم يشهد له العالم مثيلا من قبل حاكم يَقتُل شعبه بسلاحِه وبجيشه لا لجرم له سوى سياسة الهيمنة والسلطة الغاشمة.

سيوف مشرعة وسلطة على رقاب شعب أراد الحرية والكرامة والأمان وحقوقه المسلوبة هذا ما أردت أن أُبينَهُ لماذا قامت المعارضة وماذا حل بها من ويلات ومصائب حتى بلغ السيل الزبا وقامت الثورة السورية المباركة التي أخذت تحاصره وزبانيته في أوكارهم وجحورهم لتقطع أيادي السوء وتحرر الشعب وما ذلك على الله بعزيز.

رحلة العذاب في سجون الطاغية (حافظ الأسد) في يوم الثامن من آذار من عام ١٩٨٤م.

كان يوماً يملأ صدري ضيقاً ونكداً ودون سبب مادي ألمسه تحركت وتجولت وأخيرا طلبت من زوجتي أن تصطحبني و أبنائي الصغار إلى منزل والدي رغبت في مشاهدة أهلي دون أن أعي في حينه أنه الوداع الأخير – حضرت إلى منزل والدي في الكسوة القريبة من مدينة دمشق، نزلنا وكان لقاءً حارًّا. ارتمى أولادي الصغار في حضنه يداعبونه

ويبادلونه الفرح وبهجة اللقاء وكان الجو حميميا من قبل الجميع فرحنا كثيراً لذلك اللقاء وبعد أن عزمنا العودة خرج رحمه الله لوداعنا على غير العادة فرحاً مسروراً وأثناء العودة أيضا خيم علينا جو حزين دون أن نعلم ما السبب وبعد أن وصلنا إلى منزلي في المزة (فيلات غربية) أيضا شعرت أن عليّ أن أذهب إلى مكان آخر لأمضى تلك الليلة مع الأصدقاء وأصرت الزوجة على أن تذهب وأبناؤنا إلى منزل أختها في أحد أحياء دمشق.

ذهبنا الى منزل أختها في أحد أحياء دمشق وأثناء خروجنا لاحظت سيارة بيجو ٥٠٥ كانت قد مرت قبل ساعات من أمام منزلنا وتناضر بنايتنا دون أن أهتم بذلك في حينه ولكن بعد أن اقتربت من مكان منزل أخت زوجتي لاحظت السيارة وقد مضت في طريقها بعد أن تبين لها أننا ذاهبون إلى غايتنا أي إلى بيت أختها . وصلنا واصطحبت صاحب المنزل السيد «خالد السلوم» وذهبنا إلى مكان أحد أقاربنا وأمضينا ليلتنا في مرح وسرور وأثناء ذلك قدمت مسدسي إلى أحد أبناء قريبنا الذي نحن في منزله لتنظيف المسدس الذي أطلقت منه طلقةً حرصاً منى على التأكد من سلامته وصلاحيته وفعلاً حصل تنظيف المسدس ولكن فوجئت أن إبرة المسدس قد كسرت لأن الشاب قد عبث بها دون قصد وهذا ما تبين لي لاحقاً عندما عزمت على استخدامه كما سأبين ذلك لاحقاً.

خرجنا جميعاً ومن كان في سهرتنا ومضى كل واحد منهم إلى منزله وذهب معنا صاحب المنزل وبعد أن وصلنا إلى حيث سيارتي وجدت شخصاً عبثًّيا يبدو لي وكأنه سكران ظننت أنه موجود لسرقة بعض حاجيات السيارة تفقدتها جيداً ثم ركلته برجلي وأنا أظن فيه شيئاً ما يخص السيارة بقصد السرقة.

ذهبنا إلى منزل السيد «خالد السلوم» وخرجت زوجتي تحمل أحد أبنائها وقمنا جميعاً بإحضارهم إلى سيارتي لأنهم كانوا نائمين وبعد وصولنا إلى منزلي قمت أنا ووالدتهم بحملهم إلى غرفة نومهم وذهبنا جميعا إلى غرفة نومنا وبعد وصولنا حالاً رنَّ جرس الهاتف في غرفتنا وبادرتْ بالرد عليه زوجتي لأنها كانت أقرب منى إلى الهاتف ولكن بعد أن أجابت الداعي تم إغلاق الهاتف دون أي كلام من الشخص الذي طلبنا وعندها

خاطبتني قائلة : إن هذا الهاتف يخيفني قائلة أيضاً حصل معنا نفس الأمر في منزل السيد «خالد السلوم» وكان ذلك يعنى أنهم كانوا يراقبوننا منذ خروجنا من منزلنا إلى أن عدنا وأن الشخص الذي كان عند السيارة كان يقوم بغرض رصد خروجنا والهاتف للتأكد من وصولنا إلى منزلنا.

ولقد كان جوابي لزوجتي أن اليوم جمعة وهو الثامن من آذار ذكرى ثورة البعث عام ١٩٦٣ م ولا يوجد سبب لأن نخاف وكنت أقصد طمأنتها لأنني كنت أحذر دوما غدرهم ولكن لم أرتضِ لنفسي الهروب.

الدنية أَمْ المنية لا بل آثرت المنية على الدنية . ولا نامت أعين الجبناء والخائنين.

أعود لأؤكد لحضرات القراء الأكارم أنني لا أكتب شيئا يشبه الإلياذة أو الأوديسا، وكما لا أكتب ما يشبه رسالة الغفران لا بل أكتب حدثاً واقعيًّا. إذ توفيت منذ ثلاثين عاما – نعم توفيت وانقطعت عن الحياة التي عاشها وألفها غيري طوال تلك الحقبة من الزمن.

يشاء الله أن أعيش تلك الأعوام في مقبرة جماعية لأجساد بشرية حية وفى حاضرة جهنم الدنيوية ومن المفارقات التي لاحظتها أن يكون خزنة جهنم هذه التي أقصدها ليسوا ملائكة كما آمنا واعتقدنَا يأتمرون بأمر الله بل في جهنم هذه كانوا من سفلة القوم وسقط بني البشر عميت أبصارهم وبصائرهم، كانوا عناوينَ لكل منقصة ورذيلة باعوا أنفسهم للشيطان إذ هم جنده وزبانيته وجلاوذته وكما هو الملفت في جهنم هذه أن يكون وقودها من المؤمنين وليسوا كفرةً ملحدين توالت الأيام والسنون ويشاء الحق عز وجل أن أبعث من جديد برحمته وإحسانه بعد أن زاد اشتياقي لذلك وبعد أن ضاق صدري بما لا يطاق ولا يكاد أن يتصوره ويحتمله إنسان وقد حرم من نعمة الأمن والأمان وبهاء الحرية وكل زينة أخرجها الله لعباده والطيبات من الرزق.

لقد زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث إلا أن تلك الزينة لم نجدها طوال عقدين من الزمن.

إن من ملامح ومظاهر تلك الحقبة والتي يميزها عن جهنم الآخرة أن خزنتها هم بأشكال البشر ويشربون مما يشرب البشر ويأكلون مما يأكل البشر ولهم أزواج وبنون وحفدة ويخاف بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضا وتحسبهم جميعا وقلوبهم شتى يخافوننا كما نخافهم إذ لا يظهرون إلينا وجوههم وملامحهم لأنهم أذلاء يخافون أن نلقاهم يوماً فنحاسبهم على ما اقترفت أيديهم من سوءٍ وإجرام.

يخافوننا لأنهم ينأون بأنفسهم عن الحق والحقيقة ويتسلحون بالباطل إذ أن ولِيَّهُم الشيطان وطاب لهم وليًّا.

لقد عشنا تحت وطأة وصولة أولئك السفلة من شذاذ الآفاق والعباد في حاضرة جهنم الدنيوية لنا منها مهاد من العذاب ومن فوقنا غواش أيضاً من العذاب، نفترش الأرَض ونلتحف السماء بغطاء لا يقينا قسوة البرد القارس وسقمة وبلاه، صبرنا وصابرنا واحتسبنا فذهب البأس وبقى لنا الأجر بإذن الله.

إذ وسعت رحمة رب كل شيء فهو الرحيم بعباده فادعوه مخلصين له الدين ولو كره الأبالسة والشياطين ممن يتآمرون بإمرة فرعون القرن العشرين حافظ الأسد وخليفته بشار الأسد و آله المجرمون والمفسدون الذين عاثوا في الأرض فساداً وإفساداً مما حمل القوم على معاداة شرعهم وجبروتهم وقد عزموا أن يخرجوهم من ديارهم سوريا الأبية بإذن الله مذمومين مدحورين (وما استعصى على قوم منال – إذا الإقدام كان لهم ركابا).

ليلة عبوس : في صبيحة يوم الجمعة الموافق ٩-٣- ١٩٨٤ م وقد عدت وأفراد أسرتي إلى منزلنا في المزة- فيلات غربية – دمشق – وبعد عناء واضطراب عشته في يوم سابق دون أن أعي أسبابه ولكنه إحساس باضطراب نفسي وكابوس لازمني طيلة يوم الخميس ولكن بعد سهرة جميلة بين الأهل والأصدقاء تحررت شيئا ما من ذلك الإحساس السوداوي عدنا إلى منزلنا حوالي الثانية صباحاً وأخلدت إلى نوم عميق ولكن لم يطل ذلك السبات حتى شعرنا بصوت غريب يداهمنا بعنف ورهبة صوت يضرب باب منزلنا وحسبته شيئا داخليا أي أن مصدره من الداخل إلا أن زوجتي

صرخت ونادتني (يا حسن حرامية) أي لصوص أيقنت أنا أن الأمر ليس كذلك لا بل هم من عصابات الأسد التي لا تسمح للناس أن يعيشوا في سكينة أو راحة كما أنهم لا يقيمون احتراما لحرمات المساكن والشعب – سحبت مسدسي وصرخت قائلا (يا بعد أهلكم عليكم) وأخذت أقسام المسدس وهممت بالرمي عليهم ومن خلال فجوة في فتحة باب غرفة نومنا وكانت حينها زوجتي في مواجهتهم وقد صوبوا بنادقهم صوبها وقد صرخت بصوت عالٍ ووضعت يديها حول أذنيها ورمت رأسها نحو الأرض وتشاء الأقدار أن المسدس لم تنطلق منه أي طلقة وبعد محاولات عدة أدركت أن المسدس غير صالح أي به عطل وقد حصل ذلك أثناء تنظيفه من قبل ابن قريبنا. كما أشرت سابقاً وأدركته لاحقاً. جاءني صوت من قبلهم (ويلك نحن أمن) ظنا منهم أننا حقاً حسبنا أنهم لصوص كما ظنت زوجتي . وأضافوا سلم سلاحك. وحيث أيقنت أن مسدسي غير صالح للاستعمال ودون أن يدركوا ذلك أجبتهم أُخرجوا وأنا سأسلِّمكم سلاحي وليأت مسؤولكم إلى عندي. فعلا حصل ذلك وبعد أن سلمتهم مسدسي وقد دخلوا إلى غرفة نومنا وطلبوا منى مفتاح سيارتي وكانت جديدة ولم أستعملها أكثر من شهر فعلت ذلك واقتادوني إلى مدخل منزلي وفوجئت أن شارعنا يغص بالأعداد الغفيرة من القوات المنتشرة والتي تحتل كل ما حولنا من مساكن لم تنشغل بعد وبعد ذلك وضعوا في فمي قطناً وأغلقوا فمي بواسطة بلاستر.. أي مادة لاصقة وقد عصبوا عيني بلباس رأس واقتادوني إلى سيارتهم وقد تحروا جيوبي وأخذوا ما بحوزتي من نقود لأنني كنت سأسافر إلى عمان وقد وضعتها في ملابسي وكما أخذوا أقلام باركر سائل وناشف ولم يبقوا لي شيئا وجدوه في جيوبي وبعدها أخذت تتم الاتصالات السلكية ويعلنون الإمساك بى، أخذوني إلى مقرهم وأنا أيضاً مقيد اليدين ومعصوب العينين وفمي يملأه القطن ومغلق بالبلاستر – ووضعوني في زنزانة موحشة تحت الأرض تقريباً ويوجد لها بابان وعلمت أن ذلك المكان هو كفر سوسه فرع المداهمة. وبعد أن بدأ الدوام قد حضروا إلى زنزانتي وبطريقة إرهاب ووحشية وفتحوا الأبواب وانتزعوني بقسوة وبشدة ويجروني جرًّا ووضعوني في غرفة وبدءوا توجيه أسألتهم حول علاقاتي

بالسعودية والأردن – وطبعاً مرد ذلك أن جواز سفري أردني الجنسية وأنا أيضا أعمل في الخطوط العربية السعودية في دمشق فأجبتهم أن لا علاقة لي بأي منهم سوى هي علاقة العمل والجنسية بادروني بضرب مبرح وبأدوات مختلفة فقدت على أثرها الوعي وسكبوا عليَّ الماء وتكررت الأمور وبشكل وحشي حتى لم أعد أحتمل شيئاً و أتمنى أن أعترف أنى قتلت حافظ الأسد مثلاً ويتم إعدامي أفضل من أن أبقي في تلك المحنة التي لا يمكن أن يتحملها بشر.

أعادوني إلى زنزانتي وجسمي ينزف دما من قدمي وقد كسروا أصابع يدي وأن وجهي أصيب بلكمات حادة حول عيني – رموني في الزنزانة أشبه ما تكون بثلاجة من شدَّة البرد – استلقيت على ظهري وأنا لا أقوى على الحركة لأن جوانبي مهشمة ولم يسلم منها جانب دون أن أصابه الضرب المبرح – تكررت تلك الأمور وقد أحضروا أصدقاء لي زوراً وبهتاناً وقد أصابهم ما أصابني من العذاب وانتزعوا منهم اعترافات غير صادقة كما انتزعوها منى بقسوةٍ وعذاب – وكلما انتزعوا منهم أمراً يسحبونني ليلا في جو كله الرعب والقسوة والوحشية، أصابني المرض لأن زنزانتي رقم عشرة استقبلتني بالعزلة والبرد والجوع والخوف والرهبة والجهل من مصير غامض.

وبكل ما هو سيء وضار واجهت تلك الجموع بلا حول لي ولا قوة إلا بالصبر والاستعانة بالله، واجهتها دون معين أو سند أو مواساة من أحد إذ أن كل من حولي هم وحوش بشرية لا بل هم أشد وحشية من وحوش الغابة، صبرت و صابرت لأنني أدركت أن الشجاعة صبر ساعة لم أستسلم للخوف أبدا وكنت أعتبر الموت هو سبيل الخلاص المرجو من تلك المعاناة التي تعجز الكلمات والأحاسيس عن وصفها بدقة كما كانت هي حالها، بكل ما تعنى الكلمة من سوء ومسخ لآدمية الإنسان فالمعاناة دائمة ومستمرة طيلة مائة يوم وحولي أصوات تشق وتكسر سكون الليل أصوات تبعث من إخوة لنا في مسيرة العذاب نحزن ونبكيهم بالرغم من جراحنا وعدم معرفتنا لهم لأننا تجمعنا مصيبة واحدة مصدرها كيان مصطنع وسلطة غاشمة لا تقيم أي وزن أو اعتبار

لقيمة إنسانية أو خلق إنساني أو شفقة أو رأفة، نبكيهم كما نبكى أنفسنا مذلة وعجزا – أما زنزانتي كانت تحمل رقم عشرة وهى فريدة في شكلها فيما رأيت من زنزانات لاحقاً كانت دون مستوى الأرض لها بابان الأول دون الآخر كانت مكفهرة موحشة مظلمة تسكنها الرطوبة والبرد القارس الذي أخذ نصيبه في كل بقعةٍ من جسدي حاولت وبمزيد من الإلحاح أن أحصل على غطاء يعينني على مواجهة البرد القارس والرطوبة لم أفلح في ذلك، كان يوجد سجّان وكأنه من ريف حلب أو الدير ويخاطبني همساً «يا خال» فلقد نسيت اسمه الذي ينادونه به – حاولت أن يساعدني بذلك كان يعدني ولكن لم أحصل على طلبي وأنا متأكد أنه كان غير قادر ويخاف من بطشهم وسوء معاملتهم إذ أن الإرهاب كان يسكن في صدر كل فرد في الفرع، يخافون بعضهم بعضا يراقب بعضهم بعضا حتى لا يتحرك شعور الإنسانية من قبل أي منهم إن وجدت فيه إنسانية مع حسن الظن بذلك ولو زوراً.

ذلك الجو الرهيب كان سبيلهم للنيل من إرادة أي سجين أو معتقل لما فيه من إذلال واستبداد في تلك الزواريب المظلمة والتي تنتشر فيها القوارض من الحشرات والزواحف التي كانت تلامس جسدي قرفاً واشمئزازاً.

تتكرر مأساتي في تلك الزنزانة اللعينة وأتذكر كيف كنت أغط في نوم عميق وفى حظوة من الطمأنينة والسلام وفى غفلة من الزمن ولحظة عين شعرت وكأن شيئاً من ذلك لم يكن وما كان، هذه اللحظة التي عشتها قبل فترة وجيزة في ليلةٍ عبوس وكانت وقد انقلبت الدنيا على أعقابها وحاق بى من العذاب الجارف والخطر المميت وقد اقتلعتني تلك الأيادي المجرمة وذهبت بى إلى حيث لا أدرى ولا أريد، حطت بى في قبر بشرى في وسط أجساد بشرية حية تنطلق منها أصوات تكسر سكون الليل وتشق عنان السماء طالبة ومتوسلة رحمة السماء ويد الخلاص من أهوال تقشعر منها الأبدان وترتجف منها الفرائص وتزوغ منها الأبصار وتقبض الأنفاس، لم أكن أبصر شيئا من تلك الأجساد لأني كنت معصوب العينين ومقيداً بالسلاسل والأصفاد كنت أنتظر

ذلك المصير المحموم والمحتوم في خضم واقع مجهول ولم يطل انتظاري حتى أشعر وفى كل لحظة من تلك الإقامة بوقع أقدام تدُقُّ الأرضَ بقسوةٍ وبسرعةٍ شعرت بها تتجه نحو قبري الدنيوي أسمع قرقعة الأقفال وقد فتحت الأبواب وتنبعث من حولي الأصوات المرعبة والمخيفة وقد امتدت نحوى أيادٍ قوية وقاسية تنتزعني من عنقي وتسير بي دون هوادة، وفى كل مرة تنهمر من فوق رأسي السياط وضربات موجعة وبأشكال مختلفة ومؤلمة، كنت أفقد الوعي وأغيب عن الحياة وتعود لي الحياة بعد برهة من الزمن وبعد أن يسكب من فوق رأسي الماء وفى كل مرة تعود المعاناة من جديد وأغيب بعدها عن الوجود وهكذا تستمر المأساة وقد انقطعت عن الدنيا وأيقنت بعدها أنني أعيش في عالم آخر يجهله كل البشر إلا من اكتوى بنارها أو مارس عذابها أو تعامى عن ذكرها وإبصارها.. لقد عشت حياتي القدرية والموحشة والمذلة قسراً وغصباً وأذهب في ضياع وسبات وأظن كما أَسلفت أنني أعيش في حضرة جهنم قطعة من عذاب مهين وأرى كوابيس طيلة تلك الفترة حتى وقد أصبحت جزءاً من حياتي لا بل ظننت أنها هي الحياة الآخرة.

رأيت فيها أجساداً بشرية وحشية في شكل قامات بشرية و رؤوسهم خيل لي رؤوس أفاع ضخمة لها أنياب حادة وطويلة تغرسها في أجسادنا الآدمية وهى مقيدة بالأصفاد والأغلال تنفث سموماً فتقتل من تقتل وتَشل من تَشِل وتؤذى من تؤذى وقد رأيتهم وفى حقيقة الأمر أقواماً وقد بُعثوا ليكونوا دعاة للكفر والإلحاد يسخرون من قيم السماء ويتعالون على كل معتقد وإله - يكيلون الشتائم والسباب ويتناولون المحارم والأعراض يقذفون بها شرف الأمهات ومحارم الزوجات ومكارم وفضائل الأخوات ويفرضون ألفاظهم القذرة وتخيلاتهم البذيئة على رفاتنا الأبية والطاهرة في تلك المقابر يرددونها بألسنتهم وأفواههم إذلالا وإجحافا.

يأتوننا في تلك الزواريب في أوقات مختلفة ومتباينة ويصدرون أوامر التعذيب في حاضرة جهنم ليلاً ونهاراً على تلك الأجساد النحيلة والهزيلة من شدة العذاب وشظف

العيش وإذلال النفوس وقد جردت من كل شيء إلا من صدق الإيمان بعظمة الخالق وقدرته وجبروته وضعف المخلوق وحاجته، أخي أرجو أن لا تَعجب عندما يتم تكرار تلك المشاهد لأنها حياة منتظمة من العذاب والهوان طيلة رحلة العذاب دروس مستقاة من مستنقع الرذائل والرخص وقد تدربوا عليها فعلاً وسلوكاً لإفراغ أنفسنا من قِيَمنا ومعتقداتنا ظنا منهم أن ذلك هو السبيل الناجح إلى ما يصبون ويخططون إليه.

كانوا يعذبون من يشاءون وباللون الذي يريدون ويسكبون المياه في زمهرير الشتاء على أولئك النيام ممن يفترشون الأرضَ ويلتحفون السماء وأسمالنا البالية لا تفي إلا لستر عوراتنا وتغطية أجسادنا لا نستطيع الحراك أو العراك من هول المصائب وزخم الرعب لمن يسلطون عليه جم غضبهم وشراسة سخطهم.

وقد تخلّوا عن كل القيم و الإنسانية ونبل المكارم وقدسية الأعراض لأنهم لا يمتون بنسب أو خلق لمشاعر البشر وآدمية آدم، لقد استبد بهم البغي وصولة الظالمين ممكن أعمى الله بصرهم وبصائرهم دون أن يتعلموا شيئا من ماضي الحياة وسيرة التاريخ ونهاية الظالمين إذ لا أمن ولا أمان في دائرة الظلم وإذلال البشر. فلسان التاريخ يؤكد أن الازدهار ودوام نعمة الحال لا يمكن أن يستمر ويكبر ويعظم إلاّ في ظل العدل والحق واحترام كرامة وقدسية مكارم الإنسان ومن تلك الكوابيس الموحشة والتي ألقت بظلها القاتم ورهبتها المرعبة وجراحها التي لم تندمل بعد، كانت كوابيس الظلم والظلام في سراديب يحل بها البرد القارص إذ أن الظلام وتحت جناحه تتحرك الحشرات والقوارض التي تلامس جسدي فتثير سخطي وغضبى من كرهها وإيذائها. لا بل لا يعرف آثارها وقرفها إلا من عايشها وذاق مرارة ملامستها ومن كوابيس حياتي هي جِراح السياط ومرارة و ذل مخاطبه المجرمين في ظروف لا يوجد فيها توازن في موازين القوة، ذلك الإذلال يبقى حاضرا في النفس والذهن مادام هناك لي قلب ينبض وعقل يعي ونفس حية حتى تعزف النفوس الأبية عن تناول الطعام بحثاً وحبًّا في الموت الزئام من العيش في بوتقةِ الذل وسراديب الهوان إلا أن الموت كان عزيز المنال دون انتحار يغضب الحق ويفضى بصاحبه إلى النار وغضب الواحد القهار. لقد طال دوام عذابي في تلك الفترة

وما بعدها – عذاب النفس والجسد والروح في ليل طالت حلكته وغاب شفقه وألغى ضياؤه وأمنه ودام سديمه ورهبته وكأن صخرة قد حطت من عالي المكان إلى صدر ضاق صبره واحتماله بما لا يطاق وتعجز عن حمله الجبال وتئن من ثقله أركان الكون وأرجاء المعمورة وما أصعب قهر الرجال وشماتة الأعداء من الجلادين والظالمين وهوان النفس وانحسار القيم والنخوة والشيم وخَنقها وإلغائها.

حتى لم تعد تعنى لي في ذاكرتي سوى أسماء وعناوين للمحال التجارية وسلعاً رخيصة تسوق من أجل غايات ومصالح شخصية ومكاسب ذاتية تحت يافطة براقة تدعى الإنسانية التي أضحت شيكاً بلا رصيد غير قابل للصرف إلا في بنوك الرخص والإفلاس إلا عند من رحم رَبي.

أو تسوق أحيانا وكأنها لعبة جذابة يقدمها الكبار لممازحة الصغار وتوجيههم إلى غايات ومرام إذ لم تعُد أحياناً إلا السم في الدسم ومصيدة لاستمالة النفوس الأبية وهى مديه تطعن من خلالها القيم وغولها في مذابح التنكر والتناسي والنسيان وقد أضحت تعنى أحيانا لمن يتمسك بها أنها غباء مطلق لم يعد ينطلي على الكثيرين بعد أن فقدت معناها وجوهر مضمونها وكما أضحت أحياناً تعنى النفاق في سياق الإعلام والذي أصبح دمارا ووبالا على تجار وسماسرة القيم الإنسانية إلا أن النفوس الأبية لا تموت فهي تجد السعادة في قيمها ونواميس وشموخ عزة أهلها حتى ولو أزرى بهم الزمان وشحت عليهم أمور العيش ودوام الذل والهوان فالله سبحانه وتعالى يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة ويضل الله الظالمين

هذه مشاعري في برهة مائة يوم عانيت فيها كل أشكال الذل والهوان والعوز والحاجة والمرض والشقاء والبلاء وسأستمر في سرد وقائع تلك البرهة من الزمن في حضرة المجرمين والظالمين ووقاكم الله من كل سوءٍ وبلاء.

العنوان : محطات - المكان فرع المداهمة- أمن الدولة كفر سوسة – دمشق:

الرحلة في سجون الطاغية كانت تمر بمحطات لا نزال في محطتنا الأولى حيث تم اعتقالي والاستسلام لواقع مر ومرير قاسيت فيه من كل أشكال الذل والهوان وانتزاع اعترافات لا تمت للحقيقة بشيء سوى أنها عناوين لحقد دفين والخوف من كل من يأبى أن يسير في ركبهم والإيمان بقيادتهم – الجرم قد تم تكيفه وفقا لأهوائهم ورغباتهم وكذلك بالنسبة إلى أصدقائي الذين ألقى القبض عليهم والإمساك بهم. عانى الجميع من الإذلال والسفك والبطش وإصدارتهم لهم تربطنا جميعاً في جماعة معادية للنظام لا بل أكثر من ذلك كما استحدث عنه لاحقا الإطاحة بنظام الحكم!!!!!

يتم إحضاري من زنزانتي في أوقات مختلفة من الليل وحيث أغط في نوم عميق يسرقني ويفرض على أن أنام مقهورا مدحورا بعد صراع مع كل منغصات الحياة وقسوتها. استدعوني لأُسال عن شخص ما أو عن واقعة ما وكثيراً ما كان ذلك يحصل لأسباب عرفتها لاحقا أو لا حتى لا أستطيع التركيز على كل ما هو موضوع اهتمامي لتشتيت فكرى في تهم أبحث عن أصلها وأسبابها دون أن أعي أو أعرف عنها شيئا لأنها لا تمت إلى الحقيقة أصلاً وثانياً قد تكون من مصادرهم ممن يكون همهم التزلف والنيل من كل حر أبى وثالثهما هو إيقاعي في اعترافات تساعدهم على صياغة الجريمة المفترضة والتي ترفع من شأنهم لدى رؤسائِهم وتزيد من أهميتهم في حماية النظام وكشف المجرمين المفترضين.

تتكرر الأمور وأنا معصوب العينين ومقيد بالأصفاد و تنهال على السياط وأنواع العذاب من كل جهة وصوب. أسحب وأقدامي نازفة وبعض أصابعي أظافرها ملتهبة وتؤلمني لدى ملامستها أي جسم أثناء اقتيادي المجنون وبلا هوادة أو رحمة، يتم استجوابي أحياناً لأعترف زوراً على بعض معارفي وأصدقائي بجرم ارتباطه بى في تنظيم مزعوم أو



معرفتهم بما أقوم به من أعمال عدائية لهم حتى يسند لهم بمعاداة النظام المزعوم.

لقد استدعيت لاحقاً لمساومتي على أن أتعاون معهم أي لأكون في خدمتهم، لقد فات عليهم أنني وبالرغم من كل ممارسات الإجرام الوحشية بحقي ألا أنني لا أزال رابط الجأش والنهى ثابت القلب والقدم – طلبوا منى أن أتعاون معهم وذلك من قبل رئيس الفرع المقدم محمد «بريمو» وهو من حلب ومن قبل النقيب يوسف وهو من «الطائفة العلوية» وكذلك ملازم يدعى عبد الكريم اسكندر وعلمت أيضا لاحقاً أنه «نصيري» وهو الذي استولى على سيارتي منذ الساعةِ الأولى من اعتقالي.

أبديت لهم الموافقة وأردفت قائلا أنا لا أصلح لأن أقدم تقريراً بحق فلان أو أي قضية ثانية ولكن أستطيع أن أتعاون معكم في أمر يخدم الوطن من باب واسع أي أن يسمح لي بتأسيس حزب سياسي وسط لا يسار ولا يمين وأجلب له فعاليات سياسية واقتصادية واجتماعية ونعمل سويًّا في خدمة الوطن ونكون جسورا للتواصل والتعاون مع كل الجهات التي قد تتوافق معهم فكريًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا إلا أنني أردفت أيضا قائلا على أن لا يكون ذلك استلزاما لأحد ولا أزال أذكر وهو يتهجأ كلمه استلزام وأنا أسمعه منه وكنت واثقاً أن ذلك لن يتم الموافقة عليها لأنهم لا يرضون أحداً شريكا لهم في خدمة الوطن الذي يعتبرونه مزرعة لهم وقد ورثوها من آبائهم وأجدادهم نكرات المجتمع وأذلائه، وللحقيقة أنني كنت أشعر أن رئيس الفرع كان متألما لمصيبتي وكان يثنى عليَّ من حيث المعرفة والثقافة وأنه ليس بيده شيء إذ أنه كان مراقباً من قبل النقيب «يوسف» وحتى من قبل عناصر من الطائفة العلوية، هذا ما لمسته وإن كنت أعتقد فيهم جميعا الإجرام وإلا لماذا يتولى هذا المنصب اللعين. وتتوالى عمليات إحضاري ولو بدرجه أقل من العنف حيث يتم إطلاعي على نسخة من الإفادة ويأخذ رأيي في تصحيح الأغلاط اللغوية وما لذلك ظنا منهم أن يخدعوني ولأتحدث لهم عن معلومات لم أذكرها لهم من خلال العنف والتعذيب كنت أدرك ذلك وأنا متحفظ مع إشعارهم أنني متعب ومريض إذ ما كانوا يحرصون أن لا أموت حتى لا يكون ذلك سببا في عنفٍ أو مقاومة من قبل

أهلي وعشيرتي لأنه يريدون أن أبقى عندهم رهينة وأداة ضغط على أهلي وعشيرتي حتى لا يمسوني بأذى مميت كون مدعاة للمقاومة وانفلات الأمور.

لقد ساءت صحتي بعد أن كرهت نفسي الطعام ولم أعد قادرا على تناوله دون أن أصاب بغثيان ومراجعة وكما أصابني تشنج عصبي في يدي وأصابعي وتفاقمت الأمور حتى نحل جسمي بشكل ملحوظ وسريع وقد لاحظوا أنني لا أتناول الطعام كنت أسبب لهم إزعاجا، أضرب الباب بسخط وغضب بقدمي بعد أن تم شفاؤها برحمة من الله دون علاج أو مواساة وكذلك إصبعين من يديَّ.

ذات يوم حضر إلى عندي أحدهم ويدعى نواف ومن حي «جرمانا» وكان ذلك الشخص يمثل الرذيلة والسفالة والعنجهية وكان قد لاحظ أنني لا أخافه ولا أحسب له أي حساب لأنه لا يجرؤ على معاقبتي بعد أن ساءت صحتي وإلا سيكون ذلك الموت والذي عرفت أنهم لا يريدونه لي للأسباب التي ذكرتها سابقاً، سألني المذكور ماذا تريد؟، طلبت منه ورقة وقلماً لأكتب لرئيس الفرع حاجتي وبعد أن شاورهم بذلك أحضر لي ورقة وقلماً وقد فتح لي نافذة الزنزانة حتى يدخل عليَّ النور وكتبت لرئيس الفرع ما يلي : أنني لا أخاف الموت وحسبي المنايا أن يكن أماني لقد أصبحت عبارة عن كائن حي عاش في فترة ما قبل التاريخ ويحتفظ به من أجل الاطلاع عليه من قبل علماء الآثار أو الحيوان وأنني أعيش في غابة لا أرى فيها سوى وحوش بشرية لم أبصرها وآلفها من قبل - تجرأت على ذلك لأنني في وضع صحي سيء وأن معاقبتهم لي بظني أنى سوف أموت وان ذلك لم يكن يخيفني لا بل كنت أحسبه شرفاً لي يخلصني من إذلالهم وامتهانهم لشخصي وكرامتي، فعلا وبعد دقائق تقريباً قد أخذوني و أنا معصوب العينين ودون السماح بذكر اسمي عاينني طبيب وكان لطيفا إذ قال لهم أنه سيموت كما حصل مع زميله، أي مع سجين آخر لا أعرفه - هنا أصبحت موضع اهتمام إذ احضروا لي دواء بقى عندهم ويعطى لي حسب الأصول ولم يسلموني الدواء خوفاً من أن أنتحر.

لم أستفد شيئاً وتكرر إزعاجي لهم وذهبوا بى لدى طبيب آخر ولكن ذلك الدكتور كان لئيماً واتهمني أنى أحاول أن أراه وكان ذلك زوراً وبهتاناً لم أستفد من كل ذلك أبداً، وأخيراً أخذوا يسألونني ماذا تريد أن تأكل؟ أجبتهم لا أريد شيئا غيروا لي الأكل الذي كان عبارة عن شيء من الحلاوة أو المربى أو الفلافل وأحضروا لى خبزاً سموناً عسكرياً وأرز وبرغلاً مع إيدام، كذلك لم آكل أبدا إلا أن تمت معالجة الأمر بشكل آخر من الحصار سأذكره في محطتنا التالية.

العنوان : محطات -المكان- أمن الدولة- فرع المداهمة الشمالي- كفر سوسة – دمشق:

آلام الجسد وضيق اليد والحيلة وهوان النفس وعذابها كانت عناوين حياتي في فرع المداهمة وحيث أن جسدي قد نحل وعزفت نفسي عن الطعام قد أربك القائمين في الفرع خشية موتى وأنها مسلسل القضية التي ظنوا أنها من الخطورة على أمنهم والنيل من استقرارهم بالرغم من زيف ادعاءاتهم وزيف كل ما حصلوا عليه من إقرار جاء نتيجة الإكراه والإذعان لجبروت سلطتهم الغاشمة كما كانت الإدارة تحرص أن لا يكون هناك انعكاسات أمنية وإعلامية ناجمة عن سبب موتى لذا لجئوا إلى أساليب أخرى لإكراهي على تناول الطعام، سحبوني إلى مكتب التحقيق وكالعادة مكبل بالقيود ومعصوم العينين سألني رجل منهم لماذا لا تأكل، هل أنت مضرب عن الطعام؟ أجبته بالنفي لم أكن مضرباً ولكنني مريض، سألني ثانيةً ماذا سنفعل وقد أحضرنا لك الطبيب لأكثر من مرة؟ أجبته أن الأمر يتعلق بالمنية التي لا ينفع معها الطب ولا الدواء وضربت له مثلا أن الرئيس «أبو مدين» قد أحضروا له الطبيب الذي يعزى له الفضل في اكتشافاته على مستوى العالم ولم ينفع معه ذلك وتوفى وكذلك الأمر لرئيس يوغوسلافيا- تيتو- فرد قائلاً ما هذه النفسية التي تملكها؟ هل أنت من أبناء أبو رمانة!! -حي راق بدمشق- أجبته بعنفوان وشموخ إن ابن أبى رمانة ليس مثلى لأنني لم أكن يوما أبحث عن ذاتي في ملامح الآخرين وكما أن المدعو «زوزو» هو ابن أبو رمانة وهو شخص غير سوى في أخلاقه ومعروف لديهم جميعا، تدخل رجل الأمن قائلاً : يا سيدي هذا يملك من الإجابة على أي سؤال بأكثر من إجابة وحجة ومثل – قال الضابط وقد سمعت أنهم يقولون له مصطفى فيما بعد ستنال عقابك القاسي، الآن قد أزالوا القماشة عن عيني وأشاروا إلى دولاب (كفر) سيارة والى سوط رباعي ونحاسي. أجبته أن ذلك سيكون سبيل خلاصي من هذه الحياة التي لا أحرص عليها كثرا في مثل هذه الظروف التي أعيشها، هاجمني بكلمات قاسيه تحمل معنى الشتيمة والتوبيخ وأمر بإعادتي إلى زنزانتي

وفى المساء جاءني عنصر من ورديه تلك الليلة وقد فتح فتحة في باب الزنزانة يتم إدخال الطعام من خلالها وكذلك مراقبتي بين الحين والآخر، سألني أسئلة عن مكان منزلي وعنوان أسرتي وسألني عن سيارة مرسيدس أردنية كانت تخصني وزعم أنني كنت أُهرِّب بها أشياء ممنوعة وهذه تخرصات من صنع خياله يراد منها النيل من إرادتي من خلال تهم جديدة علما أن ذلك العنصر غير مسموح له باستجوابي وحتى الكلام معي إلا انه كان طفلاً مدللاً وهو من بيت جديد نصيري ذوى نفس سلطوي.

وبالتأكيد رفضت إجابته وهدّدني في أهلي وسيعاقبني عقابا شديداً ولم أكن أعرفه بعد على حد زعمه، طلبت مقابلة رئيس الفرع في اليوم التالي غير أنهم أخذوني لمقابلة النقيب «يوسف» والذي هو نصيري ويعتبر نفسه هو رئيس الفرع وأرادوا بذلك الحيلولة بيني وبين رئيس الفرع الذي لن يتساهل مع التجاوزات الأمنية، النقيب يوسف لم يعرني أي اهتمام بشكواي بالاً أنني كنت أخاف على أسرتي من بطشهم وسفالة خلقهم، ولكنني وبعد أيام تم استدعائي ليلاً وبعد أن أخذوني وقابلت رئيس الفرع وسألني أسئلة أيضاً حول قضيتي وعندما خلص في ذلك أعلمته بما حصل معي وما انتهت إليه الأمور ولكنني خشيت من سخط وغضب النقيب يوسف والشخص الآخر، أجابني هذه أمور لا يمكن السكوت عنها وأيضا هذا العنصر من سمح له بالاطلاع على ملف قضيتك؟ وكذلك سألني ألا تخشى على أسرتك وأن هذا قد يتصل بهم ويسلبهم أموراً كثيرة – أجبته نعم – وقام بتدوين محضر بالقضية ووضع توقيعي على المحضر، تمر الأيام وأنا أعانى سوء وضعي الصحي وظروف اعتقالي القاسية، حضر شخص من قبلهم وطلب منى أن أذهب معه إلى الحمام إلا أنني رفضت ذلك لأنني كنت أقرب إلى الموت من الحياة وأن هذا الطلب ارفضه طبعاً بيني وبين نفسي – تكرر حضور ذلك الشخص إلى زنزانتي وهاجمني بقسوة ونعتني بالعمالة والخيانة كما هو شأن ابن عمى «عبد الرازق الطحان» الذي اعتقل في بداية ثورة البعث وتوفىَ خارج سوريا بعد حرب ١٩٦٧م عندما تم إطلاق سراحه وأمثاله من المعتقلين السياسيين في سوريا أدركت أن ذلك

الشخص يعرفني جيداً وفكرت في ذلك كثيراً وبعدها حضر حتى ألزمني بالذهاب إلى الحمام وأثناء ذلك أخذ يتقرب إلي ويقول أنا مشفق عليك لأنك ستمضى سنين عمرك في السجون ولا أستطيع أن أفعل لك شيئاً، كدت أن أتعرف عليه وعلى المكان الذي رأيته فيه ومع أشخاص معه وفى منزل صديق أعرفه في الجولان، قلت له أنا أعرفك، ذُهل كثيرا وقلت له في جدية «عرطوز» فسكت ولم أعد أراه قط.

وهذا شأنهم لأنهم يخافون من خلاله في المستقبل أن أعرف جميع رجال السوء والبطش والحقد، ولم تمر أيام طويلة حتى تم استدعائي أيضا ليلاً كالعادة وفى الفترة التي يظنون أنني قد خلدت إلى النوم والراحة، أخذوني لمقابلة رئيس الفرع وأنا مذهول ماذا يريدون منى ووجدت عنده شخصاً آخر يلبس طقم سفاري نصف كم وخيل لي أنه (مسؤول روسي) ويريد التحقيق معي أمعنت فيه النظر، طبعا قد أزالوا القماشة عن عيني وذلك عند مقابلة رئيس الفرع بعد فترة من التحقيق، لاحظ رئيس الفرع نظراتي إلى ذلك الشخص وسألني هل تعرفه؟ أجبته بالنفي وبعد فترة تحدث إلى ذلك الشخص وسألني عن شخص أعرفه وهو من الجولان أي من مناطقنا أدركت حينها من هذا الشخص وأين رأيته وكان سؤاله يريد منه أن يشرك ذلك الشخص في شبهةٍ أو مسألةٍ ما، طبعا أجبت أن ذلك الشخص الذي سئلت عنه ليس له علاقة في قضيتي وأردفت قائلا لرئيس الفرع نعم أعرفه، ولكنه نظر إلى خلسة وعض على شفتيه وعندها سألني رئيس الفرع هل قمت بتجنيده؟ فأجبته بالنفي وبعدها طلب منى رئيس الفرع أن أضع توقيعي على محضر الاتهام وبعد ذلك أعادوني إلى زنزانتي وعندما أعود إليها أشعر وكأنني قد عدت إلى منزلي لأنني أجد فيها مأوى أفضل من مقابله أولئك الظالمين ورجال البطش والاستبداد، وبعد ذلك أيضاً بليلة أو أكثر أخرجوني من الزنزانة و أبناء قضيتي الذين هم أصدقائي و إخواني الذين أحببتهم سابقا كثيرا ووثقت بهم، وأثناء ذلك أيضا أخذني الشخص نفسه الذي تعرفت عليه وقد وضعوا قماشة على عيني ولكنه لم يسمح لهم بوضع قيد في يديَّ وهمس في أذني أنه قد أوصل خبراً لزوجتي أنني على

قيد الحياة وربما سمحوا له بذلك حتى أكون مداناً له بذلك الفضل ولا أحمل عليه حقداً وأنه يزكّي نفسه من أية إساءة محتملة قد صدرت منه، وإلا أنه لا يستطيع أبدا ملاطفتي وحمايتي من الضرب و الإهانة، وضعونا في سيارة وانطلقت بنا ليلاً دون أن نعرف إلى أين نحن ذاهبون.

وبعد فترة وصلت إلى مكان وقد أبصرت رجلا ضخماً وظننت أنني سأتلقى أقسى وأشد العذاب على يد ذلك الرجل القاسي على ما اعتقدت، اقتادونا وأنا أبصر كل شيء ووضعوا كل واحد منا في زنزانة منفردة وأمرونا بأن نخلع ملابسنا لأن رائحتنا كريهة نتيجة الرطوبة وسوء التهوية في الزنازين - كانت صحتي رديئة وأشعر بقيء باستمرار، سألني ماذا بك قلت له حضرة الرقيب أنا مريض ولم أستطع الأكل، عرض على أكل فأجبته بالشكر عندها تغيرت نظرتي له وشعرت بالطمأنينة، وفى الصباح جاء رجل آخر واقتادني إلى دورات المياه وبعدها أعادني إلى زنزانتي ويدعى إبراهيم من وادي العيون وعرفت ذلك لاحقاً، وفى الصباح أحضروا لنا في كأس من البلاستيك شاياً وحليباً وسندوتش جُبن هذا الطعام بعد مائة يوم، وفى نفس اليوم وُضعنا جميعا في زنزانة واحدة وذلك في القسم الجنوبي من كفر سوسة أي المكان الذي أحضرنا إليه ولم أعرف ذلك إلا في الصباح بعد أن جمعونا سوية.

ولكن عند الأذان ظننت أننا في سجن «الحليونى» لقربه من مسجد أعرفه وكذلك لسماعي أصوات السيارات وزواميرها.

محطة جديدة - كفر سوسة - القسم الجنوبي:

هنا عانيت من المتاعب والمصاعب بشكل آخر ومصدر آخر وطعم آخر.عانيت من نكوص بعض الأصدقاء وحوارهم عندما وجد أحدهم نفسه في هذا الوضع في خضم محيط مُتلاطم الأمواج لا يبدو له شاطئ ولا ضفة وظن أنه سيلاقى الموت لا محالة شنقاً لحساسية المكان الذي كان يعمل فيه وأهميته الأمنية وأنا لا استطيع أن أقدم له شيئاً كما لا أستطيع أن أخفف من روعه ووجد من يستميله نحوه ويعلله بالأمان والأماني سيساعده في الخروج من السجن ووعوده خلاَّبية وغير صادقة حتى يستدرجه للحديث ويأخذ منه معلومات عنى ويكون منها تهماً قاسية ومميتة فمثلاً أخذ منه أسماء بعض أصدقائي فما كان من ذلك الرخيص في خلقه أن جعل منهم متهمين في قضايا سياسية وأمنية بقصد التزلف والتقرب إلى المخابرات ليثبت إخلاصه وغيرته على عصابات الأسد ليحظى بثقتهم واحترامهم على حسب ظنه وكذلك زعم أن لي خلايا في لبنان وفى سورية ولم أفصح عنها لاحظت ذلك وعندما طلبني المسؤول الأمني أخبرته بشكل الخصومة بيني وبين ابن دعوتي والذي قدم له المعلومات إلا أن ذلك لم يشفع لي وقدمت إلى الاستجواب من قبل رئيس الفرع ثانية وفندت له تلك المزاعم وبطلانها – حصل الخلاف والعداء وأنا في مكان مجرد من أي قوة أو حيلة تخاصمت مع ذلك الجاسوس الذي تم حشره معنا ليعرف بعض خفايانا وهذا ما حصل له وأن تاريخ ذلك الرجل انه كان يعمل في جهاز أمن تابع لوزارة الداخلية وبرتبة مدنية وبقى على اتصال بالمخابرات السورية على الرغم من تركه للخدمة، أخذوني إلى زنزانة فوجدت فيها شخصاً يدعى «عبود البسيس» من بلده «سبيخان» محافظة دير الزور وهو من عشيرة العقيدات. عبود ألقى عليه بجريرة أخ له يدعى سليمان وأن سليمان كان يحمل أجازة في الجغرافيا و عضو في تنظيم الطليعة وهى مجموعة إسلامية ومعروفة إذ كان سليمان يمثل حلقة وصل بين التنظيم المدني والعسكري في ذلك التنظيم.

ألقى القبض على سليمان وعندها قامت زوجته فأرسلت إلى عبود وأخ له يدعى

«بندر البسيس» وهو شرطي فقام بندر وأخذ سيارة قريب له ومعه «عبود» وأخ لهم وهو الذي حضر لطرفهم من قبل زوجة سليمان وحسب رواية عبود أن بندر قد أخذ من منزل أخيه سليمان صناديق ويعتقد عبود أن في داخلها أسلحة وذهبا بها كلاهما إلى منطقه رملية ونائية وطمرها بندر في التراب وذلك للخلاص من شرها ومسئوليتها تشاء الأقدار أن سليمان يعدم ولكنه كما فهمت كان ذا شكيمة وبأس إذ لم يعترف على فصيل مسلح تابع له بالرغم من أصناف العذاب الذي تعرض لها وبعد فترة يعمد جماعة من أهل قريتهم إلى إنشاء مكان لصناعة الطوب أثناء ذلك ظهر منهم سلاح مخبأ في أرضهم ذهبوا وأعلموا المخابرات دون أن يعرفوا من هو صاحب ذلك السلاح.

عمدت السلطات الأمنية الأسدية لمراقبة ذلك المكان وعندما حضر أصحاب السلاح أي المجموعة المسلحة التابعة لسليمان لنقل السلاح من مكان المعمل تم إلقاء القبض عليهم وباعتراف أحدهم أن «بندر البسيس» قد أخذ سيارته «بيكاب» وأدلى باعترافات إذ أخذ معه أخوه عبود، جاءت المخابرات لاعتقال بندر إلا أن بندراً هرب بعد أن علم بالحادثة ألقى المخابرات القبض على «عبود البسيس» وأفادهم بالمعلومات كما شرحتها، اصطحبوه إلى مخبأ السلاح وقد حرثوا الأرض فلم يجدوا شيئاً و أعلمني عبود أن» بندرًا قد نقل السلاح و أوصلها إلى جماعتهم في تنظيم الطليعة.

أحضروا عبود إلى مديرية أمن الدولة ولم يدلي بشيء سوى ما سردته في كتابي هذا، سألني «عبود» كم سيكون حكمي أجبته عام فبادرني مندهشاً ليس ذلك بكثير - عام!!!! قلت له عسى أن يكون أقل ولكن من عجائب الأمور وشناعتها أن يعدم عبود رحمه الله وأخ له رقيب مجند يدعى ميسر على ما أعتقد لأنني لا أعرفه وابن عم لهم وتزوج من أختهم وذلك على يد المجرم المقدم «سليمان الخطيب» الذي كان صاحب مقصلة (مشنقة) لم يسلم منه إلّا من كان طويل العمر مديد الحياة.

وكنت أمازحه رحمه الله عليه إذ كان هو ضخم البنية ونحن في زنزانة عرضها متر وطولها مترين فمازحته قائلا (أنت ديناصور كبير وأنا ديناصور صغير) وكان يضحك

عندما أُسمعه ذلك. كان رحمه الله فقيراً يعمل في منجم للملح وتوجد له دكانة تعمل بها زوجته الديرية أي أنها من أهل الدير كان يحس بحسها ويقول لي أنا ظلمتها وإذا ما عدت حيًّا سأقدم لها اعتذاري وعذري وأستسمحها وأكرمها وأبجلها... رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

ومما أذكر عنه في صبيحة ٢ -١ -١٩٨٥ م. وقد أبلغوني بالنقل إلى سجن المزة العسكري تحسر قائلاً كيف تتركني يا أبو أمجد؟ فأجبته والله لو كان بمقدوري ولو بحجم أنف الفرس ما تركتك.

ومما أذكره أيضاً أنَّ فطوري أنا وإياه بيضة واحدة لكلانا وتركتها عنده سامحه الله.

إن ذكر روحه الطاهرة أريج عطر يملأ صدري ولن أنساه لأنه أخي في الخلق والمحنة سأذكره مادمت حيًّا كما سأذكر كل الشهداء أنهم مشاعل نور تبدد دياجير الظلم والظلام.

ومما أذكره في هذه المحطة وجود غرفه تحقيق وبجوارنا غرفة للنساء يتعذبن ويصرخن وأنين صراخهن في الخلاء ولا يستطيع أحد إنقاذهن حيث لا حول لنا ولا قوة وأقسى من ذلك أن صعاليك الأسد يتداورون عليهن وكأنهم بهائم سائبة لا أعراض لهم ولا شرف، لا بل وقد سمعت بأذني عندما كنت ذاهباً إلى مكان دورات المياه في برحه هي خمسة دقائق سمعت أحدهم يطلب من سَجينة وقد أدخلها الحمام أن تخلع ملابسها وهى تتوسل له أنها تستحي وأنه عرضها الغالي والعفيف ولا أعلم ماذا حدث بعد ذلك.أقول هذا ليلامس مسمع كل حر أبى وشريف ماذا كان يحدث في تلك الزواريب التي لا يصل عين رقيب إلا عين الله سبحانه وتعالى التي لا تنام - هذه أمور لم تكن تعلم أو يتحدث عنها إنسان لأنها في حصن (خرشته) لا يبصره إلا جلادوهم وأفراد عصاباتهم أو من حشر فيها قسرا وزوراً.



المحطة: سجن المزة العسكري - دمشق:

في صبيحة ٢-١-١٩٨٥ م يمضى بنا قطار المصائب والأحزان إلى عالم لا نظن فيه إلا القهر والامتهان - يحط بنا القطار ومعنا اثنان قد وقعوا فرائس في أوتار وحوش بشرية، يحط بنا في رأس باسقة حيث يوجد السجن، كان يوما غائما وماطراً وأمرنا أن نجلس أرضاً ويتهددنا رعديد من علوج السجن دون أن يعرف شيئاً عنّا. سألنا هل نحن ممن أطلقوا النار في المساء الذي حضر فيه رفعت الأسد من فرنسا؟، كان ذلك تقريبا في نفس الوقت الذي خرج فيه حافظ الأسد من المستشفى من العام الماضي أي عام ١٩٨٣ م في شهر كانون الأول - ديسمبر. كان ذلك يعتبر بالنسبة لمناوئي رفعت استعراضا وتحدياً، لذا وقد عمد خصومه وعلى رأسهم «على دوبا» مدير المخابرات العسكرية بزج بعض من قام بإطلاق النار في السجون لذا ظن ذلك الرعديد أننا منهم أجبناه بالنفي ذهب إلى القلم وعاد بعد أن اطّلع على ملفاتنا وأسمعنا «لو كنتم قتلة أو لصوص أو حشاشين أو أو... لما عاقبت أحدا منكم ولكن أنتم -قائلا- عملاء جواسيس إمبرياليين خونة وغير ذلك من الكلمات التي ليس لها مدلول إلا في مخيلته القذرة والمجرمة والمتعسفة ونحن لا نقوى على الرد- أدخلونا إلى مهجع وقد كتبت على جدرانه (يا داخل إلى هذا المكان شمر عن السيقان) (ثورة على العملاء والرجعية) وغيرها من شعارات الامتهان والإذلال لكل ممن لا يسر على نهجهم أو يحلق في سربهم، أصابنا الذعر الشديد إذ ليس لنا مسعف ولا معين من ذلك العلج وأبصرنا في ذلك المكان دولابا جديدا وكبلاً رباعياً نحاسيًّا وسجان ذراعه كذراع البكر أو أشد، لجأنا إلى الله نستعين به ونستصرخه النجدة والعون طال انتظارنا ونحن نسمع تهديدات من «أبو رامز» اللعين وتشاء قدرة الله تعالى أن نخرج من ريعته وجبروته في لحظه آذان العصر وقد أنطقه الله تعالى قائلا سأعتقكم لله ولكن في واقع الأمر أطلقنا بعد أن سلبنا بعض حوائجنا زورا وبهتاناً.

ذهب بنا إلى مهاجع جماعية بعد أن فرقونا إلى مجموعتين فتحوا لنا الباب واستلمنا رئيس المهجع وهو سجين وكان شابا لبنانيا مسيحيًّا ولكنه كان أيضا دمث الأخلاق



وهمس لنا قائلاً : لا تتكلموا مع أحد حول قضيتكم وانتبهوا لأنفسكم، تلقانا شباب كانوا لنا هم الأهل وهم الصحبة وهدءوا روعنا وقدموا لنا شيئاً من زادهم الشحيح ومن قوتهم في الوجبة التالية، قدموا لنا خبزا جافاً وشيئا قليلا من حصتهم جميعا من لبن قليل أكلنا دون أن نعي من شدة الرهبة والذعر الذي ألمَّ بنا طيلة يوم كامل وبعد ذلك اختاروا لنا مكاناً للنوم ولسوء حظنا كان بجوار عصابة من المجرمين والشبيحة من سرايا الدفاع وهم من الطائفة النصيرية ولهم جرائم متعددة ومنها محاولة اغتيال قائد فرقة يدعى «إبراهيم صافى» وهو من خصوم رفعت وكما لهم قضية من ضمن قضايا متعددة هي قتل شخص سعودي من المنطقة الشرقية.

وقد اقتادوه من الكسوة وبصحبته زوجته وأولاده إلى منطقة مهجورة وأوهموه أنهم دورية من سرايا الدفاع وكانوا يرتدون الملابس العسكرية المموهة سلبوه شنطته وبها دراهمه ولكن تحل المصيبة عندما طلبوا منه كاميرا بصحبته وأسرته إلا انه أبى بزعم أن فيها صور لأفراد أسرته وعندما أصر على الرفض قاموا بقتله وسلبه كل حاجياته هؤلاء كانوا متمردين على كل قيدٍ أو أمرٍ داخل المهجع، ومن مصادفات الأمر أنني كنت أغسل وعاء أكلى فطلب منى زعيمهم ويكنى «أبا خنجر» طلب منى أن أغسل له وعاءه، فسألته من حضرتك أجابني أبا خنجر فرددت عليه بازدراء له ولشخصه المبتذل والرخيص، فرد على آه لو كنت أعرفك خارج السجن إذ كان يعنى أنني سأكون أحد ضحاياه في الإجرام والسلب والنهب فكان على لزاماً أن أسكته وأضعه في مكانه المناسب وإلا سنكون صيدا مباحاً لا نقوى على رد كيدهم وإيذائهم.

قلت له يا «أبا خنجر» والله إنني من قوم لا يرضون المذلة أو الامتهان لا بل كانوا هم المانعون والمانحون ولا يحق لأمثالك أن يهددني أنت تهدد بلباس السلطة ولكنني أتحداك ومن معك ومن خلفك بإرادتي الحرة والمنيعة والتي رضعتها مع لبن أمي كان الحديث مذلا «لأبى خنجر» لا بل رسالة لهم جميعاً أن لحمنا قاسٍ ولا يستطيع احد أن يعضه، انتهى الأمر وكان من الأمور التي صادفتنا وأخذتنا على حين غرةٍ أن واحدا من زملائي

قد استعار إبرةمن سجين من أصل جزائري ويقيم في لبنان ويعتاش ذلك المسكين على جهده في الإبرة عندما يقدم خدمه لأحد المساجين وتشاء الأقدار أن العصابة قد سرقوا الإبرة من صديقي مما أفجع «أبو بلال الجزائري» صاحبها فأخذ يشتم ويسب بشكل جماعي وأن صديقي وقد ابتعد عنه وكنت أسمع تلك الكلمات القاسية فأحضرت صديقي وأعلنت للجميع عن بيعة بإبرة حتى ندفعها إلى أبى بلال صاحبها وفى لحظه عين كانت الإبرة أمام أبى بلال دون أن نشعر من أين جاءت الإبرة أو كيف، تبين لنا أنهم هم الذين رموا بها وأخذها لص محترف، اذكر ذلك للعلم عن تدنى مستوى بعض البشر مما كان يفرض علينا التعامل معهم، كل هذه المصادمات مع أفراد العصابة جعلت لي حصانة وهيبة عندهم إذ كلما هموا بسلب شيء من طعامنا أو حاجاتنا يذكرهم أصدقائي أن تلك الحاجات «لأبى أمجد» فلا يقربوها أولئك العصابة كانت لهم جولة وصولة داخل المهجع إذ يستمدون جبروتهم من أفراد الشرطة العسكرية في السجن والذين هم من أبناء جلدتهم وأقاربهم كانوا يفرضون مطالبهم وأوامرهم على كل شخص ولا يجرؤ أحد على رفض أوامرهم أو طلباتهم - ومما يجدر بالذكر أن شخصا أردني الجنسية من الضفة الغربية ويقطن في «الرصيفة» منطقه مابين عمان والزرقاء يصطدم مع أحدهم وهو زعيم أيضاً مع ذلك الشاب وأذكر أنه من بيت البزرة الشاب قاوم ذلك العلج ووضع له حدا وأخافه وبعد أن رتب أفراد العصابة أمرهم فيما بينهم وضمنوا وجود أصحابهم من الشرطة العسكرية في مناوبة ذلك اليوم هموا بالاعتداء على ذلك الشاب وحيث أن الكثرة تغلب الشجاعة كما يقال لجأ ذلك الشاب إلى رجل له مكانته الاجتماعية والسياسية والحزبية سابقا ويدعى عطية «حنوش» وهو من قبيلة طي وطان سابقا عضو قياده ثورة زمن أمين الحافظ وتقلد عدة مناصب وبعد سيطرت جماعة «صلاح جديد» على مقاليد السلطة ذهب إلى العراق وحيث أن الظروف في العراق آلمته من قبل السوريين الموجودين في لجوء سياسي وألبوا ابنه خالد عليه وأطلق النار على والده كما روى لنا ذلك رجع ذلك الشخص وسلم نفسه إلى السلطات السورية فأودعوه في سجن المزة ومعه ابنه «ثامر» صغير السن أي في مقتبل العمر وكانوا يهينونه

أمام ابنه أو العكس وكان يعانى من المرض والهوان وضيق الحال ولكنه كان وللأمانة صعب المراس والشكيمة.

لجأ إليه الشاب البزرة محتميا بجاهه وكرامته إلا أن الأنذال من شبيحة الأسد لم يقيموا وزناً لكرامة ذلك الرجل المسن مما دفع شخص من اللاذقية من كسب من قرع الباب مما أثار ضغينتهم عليه فضربه أبو خنجر حضر الشرطة والمساعدة إلى سومر وأخذوه عدة أشخاص وأودعوهم في زنزانة واحدة مما حدى بأفراد العصابة أن هددوا الجميع ومنهم شخص يدعى «إبراهيم خوجه» أنه سينتقم من أهلهم وأسرتهم إذا استمروا في شكواهم ومنهم أيضاً الشاب البذرة، وبعد فتره وجيزة أحضروهم جميعا إلى مهجعنا ومعهم المساعد «أبو سامر» المجرم الكبير واللص المحترف، بدأ حديثه لنا بكلمات فيها التهديد والوعيد لنا جميعا وكأنَّ رجال العصابة لم يفعلوا شيئا وقد قلب الأمور ليفرض علينا الرهبة والطاعة إلى أولئك العصابة، حاولت التكلم فأجابني أنت لا تتكلم ولكن أصررت على الكلام لأبين له خطورة الأمر وأحمله المسؤولية ومما شجعني على ذلك أن المزة في تلك الفترة كانت أقل إرهابا وبطشا من غيرها. تكلمت وقلت له تصور أن الأخبار أفادت بوجود عصابة في مكان ما في سوريه أليس ذلك مدعاة لأن تستنفر القوى الأمنية لإلقاء القبض على رجال العصابة أجابني نعم - قلت وما بالك إذا كانت العصابة هي بين ظهرانينا ولا يوجد من يردعها ولكن أقول لك حقيقة لكي لا تُؤخذ على حين غفلة إذا علمت أن مجزرة قد وقعت في هذا المكان أصابه الخوف من تحمل المسؤولية بها دفع السيد «عطية حنوش» أن قال له ألبسوهم بوريهات حُمر حتى نعلم أنهم شرطه فكيف تسمحوا لـ"أبى خنجر» الذي اغتال الكثير من العجزة واغتصب حقوقهم أن يمارس لصوصيته وإجرامه علينا وقال إن أخوياك هؤلاء منهم من هو محسوب على فلان أو فلان مقابل دراهم معدودة ومن ثم لابد أن تصطلحوا مع فلان وفلان وربعك هؤلاء يضيعون بين الرجلين قال لعطية أنا لا أتكلم بالسياسة ولكن عطية أصر أنه سيتكلم بالسياسة وقال نحن نعرف الإرهاب الذي كان يمارس علينا في

وقت الحلاقة وحين لا يجد سجيناً نصف ليرة سوريه ثمن الحلاقة أو لا يوجد من يدفع عنه تحضرون أوعية من الشاي الحار وتسكبوها على ظهره وتذكر منابع القمل ومرض السل الذي هاجمني ونحن لا نملك حيلة ولا قوة وجئت أنت وخلصتنا من تلك المعاناة وربما أراد (أبو خالد) عطية أن يسترضيه بتلك العبارات المنمقة وفعلا تم تحيد أفراد العصابة عن أي سلطة في المهجع وفرضوا شخصا مسيحيًّا من حوران ويدعى «رئيف» على ما أظن ليكون رئيسا للمهجع هذه صور أنقلها لأبين للسادة القراء الأكارم من شدة العذاب النفسي عندما يسجن شخص ما مع شخص آخر من غير فصيلته ومقامه وهذا هو أشد العذاب لأن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام عندما قال عن الهدهد لأعذبنه عذابا شديداً إذ يقول المفسرون ذلك يعنى أن تسجن مع أي كائن حي غير فصيلته هذا نوع من العذاب المبرمج والمدروس بعناية الإذلال لكل حر أبى وشريف.

سأنتقل إلى جانب آخر مضى أذكره مادمت حيًّا وفاء وإخلاصاً لصاحبه الذي مضى وذهب عنا وأضحى أثرا بعيداً عنى وبعد أن كان يملأ الحس والبصر، هو الشهيد بعون الله المحامى "نعمان قواف» كان رجلاً دمث الأخلاق هادئ الطبع عزيز النفس ورعاً تقيًّا أليف أنيس، لم أعرفه من قبل بادر رحمه الله أنه تفضل على ببطانية في مكان لا يوجد فيه مجال للعطاء والكرم لضيق الحال وشح الموارد قدمها لي وأنا في أشد الحاجة لها وهى تعادل في نفسي أكثر من أن يستضيفني أي شخص الآن في «الانتركونتيتال» أو غيره من الفنادق المشهورة، إذ أن تلك الأمور الآن وإن حصلت هي كمالة بالنسبة لي أما البطانية فكانت أكثر من ضرورية كانت لي دفئاً وحماية من عاديات البرد القارس رحمه الله وأسكنه فسيح جناته. ومن مآثر المرحوم وحقه على أن اذكره عندما حضرنا إلى المهجع وكنا بحاجه إلى أوعية (صحون ومعالق وأكواب شاي) لإحضار وجبات طعامنا من مادة البلاستيك. كان ما لدينا من دراهم محدودة جدًّا وعندما حضرت الفاتورة كانت قيمتها أكبر مما لدينا من نقود أصررت على أن لا نأخذ إلا بمقدار نقودنا أصرَّ رحمه الله أن يدفع عنا باقي المبلغ من أصحابه المحسنين ولكنني أصررت على عدم القبول

ومن فضائله أيضا وقد لاحظ أنني مريض بالبرد وقد أحضر لي حبة مسكن وكأساً من العصير لم أدر إلى الآن كيف حصل على تلك المواد وأرسل لي ذلك مع صديق يدعى «يوسف جدعان النصيرات» من بلده «أبطع» وهو من عائلة محترمة ومعروفة في محيطها.

كان ذلك لي بلسماً وترياقاً لا أقوى أبداً على إنكار ذلك الفضل الذي أسداه إليَّ، لشدة حاجاتي لذلك ويزداد الفضل والعطاء لشح الدواء والغذاء وضيق الحال واليد وتمر الأيام ويصاب ذلك البطل الشهيد بعون الله بمرض مصحوبا بالسعال الشديد وكنت في حينها أملك مقداراً من النقود سأذكر لاحقاً كيف حصل ذلك، حاولت وبكل جهد أن أقنعه أن أشترى له دواء إلا انه أصر بالرفض القاطع وتشاء الأقدار إذ اعتاد رحمه الله على الصيام في كل اثنين وخميس وكان الصيام في المزة مسموحاً وكان بمقدوري أن أشترى بعض المواد الغذائية لي ولأصدقائي وبعض من نستطيع مساعدتهم لأن السلع كانت سعرها أضعاف سعرها الفعلي وكنت أحرص أن أقدم شيئا مما لدينا من طعام قد ابتعناه من غير طعام السجن إلا أن نفسه الأبية كانت ترفض إلا ذلك بشق الأنفس من قبل أصدقائي لأنني كنت أبتعد عن تقديمه بنفسي حتى لا أشعره في نفسه الأبية بأي أشكال من الحرج أو المنة لا سمح الله .

كان أبو عدنان طودا وجبلاً أشم دعي ذات يوم للتحقيق بعد مرور أعوام خمس على سجنه سألوه عن أمر يريد أن يذكره ولم يذكره من قبل وأبلغه المحقق أن السلطات الأسدية الغاشمة قد دفعت لي ذلك الحين أربعمائة ألف ليرة سورية ثمن اختطافه من قبرص بعد أن تم استدراجه إلى سفينة وتم تخديره من قبل الخونة والعملاء وبعد فترة أيضاً جاء من يسألني من قبل إدارة السجن عن شخص يكنى «قطبي» وهو سوري لم يحصل لي شرف معرفته إذ ما سمعته عنه من خلق وعلم كان سبب اشتياقي لمعرفته، كان الجواب من قبل رئيس المهجع لا يوجد عندنا بل هو في تدمر وبعد حين علمنا بإحضاره من تدمر وكان ذلك سببا لأن يعلم أبو عدنان أن المنية وقد اقتربت لأن قطب هو ابن دعوته ولم يمض وقت حتى أخذوا صديقنا «أبا عدنان» نعمان قواف إلى زنزانته يهجع

فيها من كتب عليه الإعدام أخذوه وقد قبلت رأسه ويطالبنا أن ندعوا له رحمة الله عليك يا «أبا عدنان» يا أخي وصديقي الحميم هذا مشعل نوره يبدد دياجير الظلم والظلام ويهز أركان الخونة والعملاء ويرسم للأجيال طريق الشهادة والسلام، وممن أذكر في ذلك المكان أي المزة هو سيادة العميد / رياض محاسن والذي جاء إلى مهجعنا بصورة مؤقتة حتى ينتهي عمل الصيانة في مهجعه المجاور لنا، كان ذلك الرجل ملمًّا ومطلعاً على كثير من المعارف الإنسانية والقانونية والسياسية إلى جانب عمله العسكري أي أنه كان مثقفاً قد تعرف على من خلال كنيتي ولطبيعة عمله العسكري في مناطق أهلنا آل الطحان في الجولان - تحدثنا كثيراً وكان رجل مبادئ وصلب ومما ذكره لي علينا ويقصد المساجين أن لا نشترى أي شيء عن طريق إدارة السجن لسببين أولا لعدم وجود موارد مالية تكفى لنشترى إلى كل من هو معنا حتى لا يشعر أحد بالحرمان دون الآخر والثاني حتى لا نسمح لإدارة السجن من اللصوص أن يفرضوا علينا الاحتكار وسلب نقودنا دون وجه حق وأردف قائلا أليس من حقنا أن نتعلم كيف تعامل «غاندي» مع الإنجليز وقاطع الشعب الهندي جميع أشكال التعامل مع الإنجليز.

ومن حق أخي «أبو أيمن» أن أذكر له ذات يوم وكنا نجلس سويةً وبجوار بعضنا البعض وينتظر كل منا دوره لقضاء حاجته في الحمام إذ كان علينا أن ننتظر طويلاً لعدم توفر سوى دورة واحدة لأكثر من سبعين شخصاً مما يحدث كثيرا من المشاكل والمنغصات والانفعالات - كنا ننتظر فأدخل يده في جيبي وشعرت أنه كان بيده قطعه ورقية من العملة السورية لا أعرف لحد الآن مقدارها أهي خمسمائة ليرة سورية أو أقل لا أعلم، أمسكت يده وسألته عن سبب ذلك وهو يرجوني أن أقبل مساعدته لنتدبر أمرنا ولو إلى حين ورجوته أيضا أن يعفيني و أبلغته أنني والله لا أقبل أن أسأل الدنيا مما يملكها فكيف اسألها مما لا يملكها، وأبلغته عظيم شكري وامتناني وشكري له وبجهوده وأنا أعلم أنه لا يملك بشكل شخصي أي مورد مالي وإنما ذلك من أصحابه وأبناء قضيته ممن لهم قنوات اتصال مع أهلهم أو من معارفه الذين لهم زيارات رسمية من قبل أهلهم

وذويهم هذه السانحة والمبادرة الفاضلة في ذلك المكان لا تأتى إلاّ من قبل شخص هو معنى بالفضيلة وطيب الخلق، فالإنفاق في العسر من أجمل الأعمال ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر : ٩] ويزداد الفضل قيمة أن يقدم لي ولا توجد بيننا سابق معرفة أو زمالة وهذا معدن الرجال كرم وخير.

وقبل أن أنتقل إلى محطة أخرى في رحلتي القاسية في سجون الطاغية لا بد أن أشير إلى الحالة العامة في مهجعنا رقم (١) في المزة، كان المهجع مغلقاً أي لا تسمح فيه الزيارة لأحد وكان مغلق النوافذ والأبواب إذ لا يسمح لنا أن نرى أحدا أو يرانا أحد وإذ ما سمح لأحدنا بالذهاب إلى الدكتور أو إدارة السجن يغطى رأسه ويتم اقتياده وهو لا يبصر شيئاً. كان المهجع عبارة عن مسطحات باطونية وبينهما ممر كان عددنا قرابة الثمانين أو أقل قليلاً.

المهجع كان يضم قضايا مختلفة منها سياسية ومنها غير سياسية كقضية عصابة «أبوخنجر» وزبانيته، وتوجد أيضا جنسيات متعددة وممن كانوا معنا أشخاص من لبنان وأذكر كنية اثنين منهم وهم إخوة أحدهم يدعى «خالد ساروط» وأشخاص من بيروت احدهم يدعى «سمير جرجس» ويعمل في مطبعة وأخوه جورج وهما مسيحيان، وأذكر أيضا اثنين من دير نا يل أحدهما كان مسلماً وإن أخاه لا يعرف ذلك أي لم يشهد إسلامه لأخيه. ولا أذكر كنية أي منهما أي لم يمضيا معنا وقتا طويلا لا بعض الكتائب وقد أفرج عنهما، ومما أذكر أيضا المرحوم أبو بلال لا أذكر اسمه وهو من أصل جزائري إذ أن والده من جماعة «عبد القادر الجزائري» الثائر المعروف وأن «أبا بلال» قد أُعدم رحمه الله وكانت قضيته مع اليمين العراقي وقد ابتلوه وهو أمي وسائق براد وأدخل مدفع هاون لقصف مصفاة حمص وقد أَدخل المدفع وكانت مهمته الثانية أن أَحضَر سيارة من لبنان مرسيدس ومفخخة ليفجرها في سوريا ومن قبل ذلك ذهب لزيارة ابن خالته في «سبينه» وهو سوري واطلع ابن خالته على أمره فما كان إلا أن قد أوشى به للمخابرات السورية وأعدم رحمه الله وأذكرها على الأرزاق والحرمان وضيق الحال.أي قبل إعدامه

بفترة وجيزة وقد حضر إليّ عند أصدقائي وطلب رحمه الله شيئا مما لدينا وعلى قلته من خضاروكنت قد أعلمتهم أن لا يمنعوا أحداً بنفسه شيء مما لدينا من خضار وحيث لم يكن بمقدورنا أن نشترى للجميع لمحدودية إمكانياتنا ولغلاء الحاجيات أعطوه سامحه الله وذهب ليحضر لنفسه عشاءَه وقبل أن يتناول شيئا منه اقتادوه لزنزانة الإعدام حيث أعدم صباحاً وسمعناه وهو يكبر مات غريباً ومات محروماً. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، وكان بجوارنا أي مكان نومنا شباب أكراد من الجزيرة وأذكر منهم «فارس» وهو من الحسكه و«شلو» وهو من جماعة نايف باشا زعيم قبيلة كوشرا الكردية والتي يوجد لها حضور في تركيا وألوان سوريا وغيرهم مما لا تسعفني الذاكرة على ذكرهم ولكنهم كانوا فتيه يبادلوننا الاحترام والوفاء وقد حزنوا كثرا في ليلَة نقلنا إلى تدمر في نهاية عام ١٩٨٥ م.

هذا كله أذكره لأبين للعالم أجمع أن أحداً لم يسلم من شرور الطاغية وأسرته وزبانيته سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين كانوا أو عرباً أو أكراداً وأن شرور تلك العصابة لم تنل أهل سوريا وحدهم لا بل وسجون سوريا الأخرى والتي هي مقابر جماعية لأجساد بشريةٍ حية، في خضم ذلك وبعد فترة وجيزة أمضيتها في سجن المزة العسكري وبينما كنت ذاهباً في أحزاني وهمومي وأنا أسبح في تلاطم الأمواج محيط بلا شاطئ له ولا ضفة وحاولت الهرب بعيداً عن كل ذلك وسمحت لنفسي أن تستريح من عناء أجفاني، حاولت النوم بعد أن سمعت كلاما من أحد أصدقائي فيه ازدراء لإمكانياتنا وأهلنا في عجز بين لا يقوون على الوصول إلينا أو فعل ما ينفعنا - تقبلت ذلك الوضع المهين والمشين وأسلمت أمري لله الذي هو أكبر من كل الطغاة والظالمين وفى لحظةٍ سمعتُ صوتا يطلبني إلى باب المهجع - أمرني أن أخرج بعد أن غمروا رأسي بمنشفة واقتادوني إلى إدارة السجن، دخلت لمقابلة المساعد «أبو سومر» ولاحظت عنده أشخاصاً بزي مدني وأدركت أنهم من المخابرات سألني عن اسمي الكامل وأمي وعدة أسئلة ثم أمرني أن أقف ووجهي إلى الحائط وقد همس لهم دون أن أسمع قول أي منهم وبعد

ذلك أمر شخصا ليأخذني إلى مكتب آخر لم أمض فيه طويلا ثم أحضروني إلى مكتب «أبى رامز» وأمرني أن أعود إلى مهجعى وأن ألبس و أُحضِّر نفسي، عدت إلى مهجعى ومعي عدد من رجال الشرطة العسكرية وعندما دخلت لا يوجد عندي ما ألبسه سوى بجامة رياضية كنت ألبسها فبادر شخص شرطي كنيته «بصلات» من حلب وقدم لي حذاء ألبسه رفضت الأمر أولاً وقلت له شاكراً أنا ذاهب إلى حيث لا أعلم وأنا لا أدرى إذ أعود أم لا أعود وكيف آخذ حذاءك إلا انه أصرَّ أن آخذهُ جزاه الله كل خير، كبلوني بقيد في يدي ووضعوني في سيارة جيب عسكرية وعليها صورة الهلال ركبت السيارة بين رجال الشرطة العسكرية من أفراد الدورية وكان رئيس الدورية راكباً في الأمام، نشأت في نفسي هل أنا ذاهب إلى الإعدام وحيث السيارة عليها رسم الهلال جاوبتنى نفسي كيف أعدم ولم أحاكم أبدا ولو شكليًّا.

انطلقت بنا السيارة ومررنا بالمزة ثم بالجمارك وعندها أيقنت أننا ذاهبون إلى كفر سوسة إلى حيث الفرع الذي اعتقلني مررنا بأكثر من بوابة من بوابات الفرع وفى كل واحدة تقف بنا السيارة حتى يتم السماح لنا بالدخول وهكذا حتى وصلنا إلى باحة السجن، اقتادوني وقابلت مساعداً متعاقداً يدعى أبو أحمد وأنه من منطقة «القلمون» في ريف دمشق وهو من أصل كردى وهو أيضاً رجل شديد و انضباطي وأن جميع أفراد المخابرات يخافونه كما يخافه المساجين أمر أن يأخذوني إلى زنزانة رقم عشرة، دخلت ووجدت شابًّا في مقتبل العمر استقبلني وحياني وعرفته أنه من عائلة «الأتاسى» المشهورة في حمص إلاّ أنه يقيم في حلب وهو يتيم الأب، وأن «فايز إسماعيل» من قادة الوحدويين الاشتراكيين هو صديق والده الحميم ويرعاه وأخواته سأعود إلى قصه هذا الشاب لاحقاً بادرني الشاب أن هناك عفوا وسيتم إخراج جميع المساجين سألته إذاً ولماذا لم يحضروا أبناء دعوتي وبعد حين!!! جاءنا مسؤول الوردية من المخابرات وفتح علينا فتحة في باب الزنزانة ويقال لها شرافة كان يدعى أبو سمير وهو مسيحي ويقيم في محافظة السويداء ذات الأغلبية الدرزية من قرية «صمّا» وهى قرية «آل هنيدى» مشهورة

في جبل العرب سألني قائلا عموه «من أين أتيت؟ أجبته من المزة سألني هل خرج أحد من المزة أجبته بالنفي ثم أقسم لي أنه لن يبقى سجين في سوريا أبدا لم أقتنع كثيرا وذهب وتركني وابن الأتاسى - وبعد فتره وجيزة جاءني شخص من عائلة «الطباع» وأعتقد يكنى «أبا أنهار» وهو سجين وعلمت أن زوجته قريبة رئيس وزراء سوريا حينئذ رؤوف الكسم قضيته أو تهمته وكما علمت من الآخرين وأنا أدرى مصداقية ذلك أنه متهم بالتبرع بمبلغ مالي للإخوان المسلمين لا يهمنى ذلك كثيراً، ولكن ما يهمنى كرمه وطيب معشره إذ كان قد فرض حضوره على جميع أفراد المخابرات في ذلك المكان طبعاً هو سجين ذو وضعٍ خاص إذ يوجد له غرفة مفتوحة وزياراته أيضا مفتوحة وعنده كل مستلزمات العيش من راديو وكتب وأن أهله يحضرون له كل ما طاب من أنواع الطعام ويعطونه وافرا من المال يمكنه ليشترى له ولجميع المسئولين عنده من خضار ولحوم ويصنعون له الطعام بعد أن ينتهي ما لديه من طعام من بيت أهله والذي يحضر له أسبوعيًّا، كان ذلك الرجل الشهم أن أخذني إلى الحمام وأعطاني غياراً داخليًّا وليفة وصابونة وبعد أن استحممت قال لي والله ستكون عند «أم أمجد» بتاريخ كذا ... سألته عن مصدر الخبر أجابني أن قريبا له قد قرأ أمر العفو بأم عينيه ربما صورة مشروع العفو وليس العفو - كان يحزنني أن صديقي «ابن الأتاسى» قد أخذوه عند الفجر إلى تدمر كان الأمر مفجعاً بالنسبة لي وبعد ذلك حضر إلى زنزانتي شخص وفتح على الشرافة وحياني وقال لي لا تخف من أحد هنا أنت مثلى في هذا المكان وسألته من أين هو قال لي أنا من سوريا أي لم يجرأ أن يخبرني من أين هو ولكن هذا الشخص ربما كان يتتبع أخباري إذ حضر ذات يوم وفى بداية وجودنا في القسم الشمالي من سجن كفر سوسة وأثناء فرصة ذهابنا إلى الحمام وسأل: من منكم كنيته الطحان؟ فأجابه أصحابي يوجد فلان الطحان وهذا سؤال ذكى حتى لا يسجل عليه أو ينتقل عنه أنه كان يبحث عنى له شكري وامتناني، ذلك الشخص كنت موضع اهتمامه إذ حصل معي ذات يوم وأن ذهب بى سجان من المخابرات إلى الحمام وتركني لوحدى وبعد أن قضيت حاجتي جاءني وسألني ماذا أخذت من المطبخ؟ إذ أن المطبخ كان جزءاً من مكان في الحمام مع وجود

حاجز بسيط سألته ماذا أنت وضعت من أمور ممنوعة في زنزانتي؟ قلت له أولى لك أن تراقبني لا أن تتهمني ولذا أنا أشك أنك وضعت شيئا ممنوعا في زنزانتي وأقسمت أن لا أدخلها حتى يأتي أبو أحمد وهو المسؤول عنهم ويعرفون من هو أبو أحمد وأعلمته متحدياً أنا فلان أي عن اسمي وكنيتي عندما استفزني وأنا غاضب.

ذهب وأحضر ذلك الشخص الذي طمأنني أن لا أخاف من أحد جاءني وترجاني أن أدخل الزنزانة وعلمت أن ذلك الشخص هو شيعي ومن أبناء دمشق – وبعد فترة جاءني ذلك الشخص الودود والذي ذكرته سابقا وطلب منى أن أكتب طلباً إلى رئيس الفرع وأُعلمه أنني مريض وأن ظروفي في الزنزانة مؤلمة و أرجو إحالتي إلى مهجع جماعي للمرضى، رفضت ذلك في البداية ألا أنه أصر على ذلك وسيقوم بنفسه في إتمام أمر النقل، نزلت عند رغبته وأرضيته فكتبت طلبا بعد أن أحضر لي قلماً وورقة بعد فترةٍ وجيزة أخرجني وذهب بى إلى مهجع جماعي صغير وطلب منى ألا أذكره بعد ولا أعرف عنه شيئاً و أعلمني أنه سيتم إخلاء سبيلي بشكل شخصي ولهذا تم إحضاري – دخلت إلى المهجع وطلب من أحدهم الاهتمام بى وفعلاً وجدت الاحترام من الجميع وأحضر لي ذلك الشخص واعتقد أن اسمه «إبراهيم النابلسي» وهو ضابط سابق في المخابرات وله قضية لا أعرف أبعادها بشكل دقيق، أحضر لي وجبة طعام «بيض مقلي ولبن وبعض الخضار والخبز وأن ذلك لم أسمع به أو أتذوقه أو ما شابهه من طعام منذ عام ونيف تقريبا، أكلت وقد سألني البعض من أين أنت أجبتهم من الجولان، ماذا تعمل أجبتهم مزارع كان المهجع عدده لا يتجاوز العشرين منهم شيوعيون ثلاثة أحدهم يدعى «شاهر الشاهر» وهو من الدير والآخر «حسين» وقد نسيت كنيته إلا إن السيد «عطية حنوش» ذكرلي أن والده أي والد حسين من أبناء عمومته أي من قبيلة طي والآخر كنيته كنج وهو من اللاذقية وجميعهم من حزب العمل الاشتراكي ورئيسه على ما أعتقد «حمود الشوفى» وكان مندوب سوريا في الأمم المتحدة وأعلن انشقاقه في ذلك الحين واستغربوا أن أعرف اسم حزبهم ورئيسهم إذ أن تنظيمهم سرى ومن الأشخاص الآخرين

الدكتور «محمد أحمد الشعار» ووالده كان رئيس الإنتربول العربي سابقا وكان يعمل ستاج في مستشفى الملك فيصل التخصصي وتهمته مراسل مع جماعة الإخوان المسلمين ومصدر ذلك أن أخذ بعض الرسائل وتحويلات مالية إلى أشخاص في سوريا واعترفوا عليه لاحقاً أنه أحضر لهم أموالاً من ذويهم في السعودية وكان ذلك كافياً لاتهامه بتهمة مراسل وعقوبتها الإعدام وقد أعلمني أنه لا يعلم عنهم شيئا سوى أصدقاء وأن والده ووالدته قد بذلوا الغالي والرخيص من أجل سلامته وتقليل معاناته إذ لم يدخروا وسيلة إلا استخدموها من أجل سلامته وأظن أنهم دفعوا أموالا طائلة في سبيله وقد وجدته لاحقا في تدمر وقابلته بعد أن تم إخراجه من الزنزانة حيث عانى فيها الأمرين وتم سلب ما لديه من نقود على يد عصابة منظمة كنا نواجهها أينما ذهبنا وحيث حللنا وإن ما يحدث في سوريا اليوم هو ليس وليد الساعة بل هو موجود منذ وجود العصابة الأسدية ولكن أحداً لم يعرف ذلك لعدم وجود وسائل الإعلام المتاحة والمتطورة كما هو الآن من الموبيل إلى الأقمار الصناعية... الخ .

ومن وجدتهم أيضا مهندس يدعى «إياد قتابى» وأن أخاه هو طبيب قلب وعيادته بالقرب من منطقة سبع بحيرات ولكنه كان شابًّا مهذباً ومتديناً ملتزماً هذا ما أذكره عنه ووجدت شخصين من منظمه فتح أحدهما من الجولان ومن قرية واسط وقد نسيت اسمه وكنيته ولكن أذكر أن بيته كما وصف لي بالقرب من مدارس الفلسطينيين في مخيم فلسطين وهو من عشيرة الفضل وقد قدم لي بيجامة منه وكان يحضر القهوة العربية واستمريت في تناول الطعام معه ومع مجموعته وكان ذا بشرة سمراء وأن الشخص الآخر من منظمة فتح وهو فلسطيني من غزة ويدعى «عليان» ومما أذكر في ذلك المكان الأستاذ والمربى الشهير مصطفى زنداقى وهو أستاذ الإحياء الأول في سوريا وهو ذو باع طويل في تطوير مناهج التعليم في سوريا كان رجلاً ورعا ملتزما وعمره في الستينات حينئذ و يثابر على حفظ القرآن الكريم وكان يحمل هموم أبنائه وبنته فمنهم المهندس ولا أذكر المؤهل العلمي للآخرين حتى لا أقع في دائرة الخطأ ولكن كلهم يحملون إجازات

علمية وأعتقد أن ابنته صيدلانية أو تدرس الصيدلة وكان يبكى كثيرا لأنه يعتقد أنه قد أفسد عليهم حياتهم الشخصية في الزواج والبهجة وكان يعتبر نفسه مصدر شقاء وهم لهم و كنت أعارضه ذلك التصور وأخاطبه يا أستاذ والله إنك تكسر جيش جعفر الطيار لو كنت فيه آنذاك كنت أقصد من ذلك رفع معنوياته وكذلك حتى لا نسقط في دائرة اليأس والقنوط ونحن رجال والمحن محن الرجال هذا لا يعنى عدم شجاعة وطيبة ولكن ذو إحساس مرهف وعلمت أنه قد توفى رحمه الله وأسكنه فسيح جناته كان صديقاً لي وأخا وهو كما أشرت سابقا داعستانى وهو من الجولان و يقيم في دمشق ومما أذكر أيضا مجموعة من الأشخاص أحدهم الشيخ «شكري الحسين» من حي الصاخور – حلب، وهو من قبيلة النعيم وآخرون من أقربائه من بلدة تل جبين وهم من قبيلة النعيم أيضا وقد أحضر بهم لأنهم قد زاروا تركيا وأن أحدهم قابل ابنته وزوجها من أبناء عمومته وكان لاجئاً سياسيًّا في العراق وأن أحدهم قد وشى بهم وأن مسؤول الأمن في حلب من عائلة حميدة قد قال لأبى الفتاة والله ستموت ولا أحد يعلم عن موتك وفعلا قد مات وذلك الرجل في تدمر كما علمت دون ذنب أو جرم سوى مشاهدته لابنته المتزوجة من قريبها المطلوب لعصابات الأسد وشبيحته الذين كانوا كالخفافيش يخشون الظهور ويخافون النور وهاهم الآن وقد استبد بهم البغي وظنوا أنهم يملكون شجاعة الصقور وصولة النسور الزرازير إذا قام قائمها – توهمت أنها صارت شواهينَ ولا أظن ذلك أن ذلك سيستمر إلا إلى حين عهدي بإقحام الرجال إذا لعتادهم إليه ظواريا، وهاهم أسود سوريا الأشاوس يدكون حصون البغي ويقتلعون جذور الظالمين إذ أتوا على بيوتهم من القواعد فخرت عليهم السقوف من فوقهم، وكأنها كانت من فخار أو شكل من الأوهام وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. وما أحوجنا أن نستفيد من الماضي لنعلم من خلاله حاجات الحاضر ومتطلبات المستقبل وأن السعيد من وُعظ بغيره وأن الشقي من وعظ بنفسه ولننظر كيف كان عاقبة مكرهم أنَّا دمرناهم وقومهم وما كانوا يصنعون.

ومن الأشخاص الذين التقيت بهم في مهجع المرضى هو «إياد قتابى» مهندس وأعتقد أن كنيته قتابى وهذا الشخص ذو الخلق الرفيع كان قد أطلق سراحه ولكن تمت عملية هروب من السجن بواسطة رقيب في المخابرات وبعدها أعادوا اعتقال أبا إياد بذريعة أنه قد يكون على علم مسبق بأنهم سيهربون إذا أنهم من أصحابه وذلك مجرد ظن وأن الظن لا يغنى من الحق شيئاً، ومن المصادفات في يوم قدومي إلى ذلك المهجع أن طلبت إدارة السجن أن يكتبوا فاتورة شراء حاجيات وللأمانة أن جميع الحضور على اختلاف مشاربهم ألحوا على ليكتبوا لي ما أشاء ولكنني شكرتهم جميعا إذ لا يلزمني شيء ومن الأشخاص الذين تعرفت عليهم شخص من قبيلة الموالى محافظه إدلب قرية «الخيارة» التي لا تبعد كثيراً عن معرة النعمان وكان يدعى أبو حسن ومن الصدف أيضا أن أتعرف في صيدنايا على قريبه خالد السليمان أبو مدين والذي أمضى في السجن قرابة سبعة وعشرين عاما. وأن أبا حسن كان رجلاً بسيطاً ولم يثبت عليه شيء وتم إخلاء سبيله وفى ليلة حضوري إلى ذلك المهجع التقيت في سهرة مع بعض الزملاء من الحزب الشيوعي أي بعد أن أُطفأت الأنوار في مكان النوم ولجأنا إلى مكان مُعد من قبل الزملاء المساجين لمن يرغب في السهر وقد أوجدوا مقاعد من علب الحليب النيدو ويضعون عليها كرتوناً من أطباق البيض وفوق الكرتون يضعون بطانية ويجعلون منها مقعدا مناسبا وكذلك طاولة وبنفس الطريقة، تفاجأت بطلب من الزملاء الشيوعيين أن نعمل محاورة فكرية إذ علموا من الشيخ شكري الحسين أنني أحمل إجازه في الاقتصاد والعلوم السياسية منذ عام ١٩٦٩ م ودون أن أعرف أو أذكر أن الشيخ شكري قد سبق له وأن زارني في منزلي في الفيلات الغربية بصحبة أحد أقاربي، أجبتهم والله لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في يساري أن أصبح شيوعيا لما قبلت بإذن الله تعالى أما ما يهمنى أن نتعايش مع الجميع في هذا السجن في ظل انعدام الحرية وقيمة الفكر وفعلاً وقد أصبحنا أصدقاء نحترم بعضنا البعض دون أن يتخلى أيًّا منا عن فكره ومعتقده لا بل أصبحت أشير لهم على بعض الأفكار السائدة لدى المعسكر الشيوعي مثل مبدأ السيادة الناقصة «لبوجينيف» وكذلك جدار برلين... الخ

وذات يوم كنت وآخرون نتناول وجبه الإفطار وكانت الحياة في يسر وخير إذا ما قارنتها مع جميع الأيام السابقة لي في السجن وآخرها في المزة حيث المجاعة والحرمان وكنت أحب أن أشرب الشاي مع زيادة في الحلي سألني أحد الحضور هل أنت تدفع شيئاً من ثمن السكر أي مستنكراً على زيادة السكر التي استعملتها، أثّر ذلك في نفسي كثيرا و أصررت على أن لا أشرب الشاي حتى أستطيع أن أشترى سكراً وكان الجميع قد استنكروا ذلك التصرف وألحوا عليَّ أن أنسى ذلك التصرف وأن أشرب الشاي وأن ذلك الشخص هو لا يدفع شيئا من ثمن السكر أو غيره وبحمد من الله وفضل جاءتني زيارة زوجتي وأبنائي وحصلت على تسعة آلاف ليرة وبادرت واشتريت كيس سكر واشتريت شاياً وبعدها كان لي أن أشرب شاياً وأدعو من أريد وكذلك أحضروا لي حلوى وبعض المأكولات والملابس ولم يمض وقت طويل حتى جاءتني زيارة ثانية وحصلت على خمسة آلاف ليره سورية إذ لا يسمح لي أن آخذ مبالغ أكثر من ذلك. عشت في أمان ومحبة مع تلك الكوكبة من الزملاء ولكن وتيرة الدهر سرعان ما تتغير وطلب منى أن أُنهى علاقتي في المهجع وأعد نفسي للرحيل إلى سجن المزة، وقد فاتنى أن أذكر في ليله ٢٥ أو ٢٦ من الشهر الثالث صدر عفو وعلمنا ممن كانوا على معرفة بمواد القانون إذ لا يشملنا شيء من ذلك العفو لذا قد داهمتنا الأحزان ولكن صبرنا عليها وكتمناها إلى أن يشاء الله بفرج من عنده، في مطلع الشهر السابع من عام ١٩٨٥ م قد تم ترحيلي إلى سجن المزة لنبدأ محطة أخرى وجديدة في مضمونها وأحزانها وجروحها التي لم تندمل بعد (كلما التأم جُرح – جد بالتذكار جرح)



العنوان دمشق سجن المزة العسكري للمرة الثانية :

ودعت أصدقائي في كفر سوسة القسم الجنوبي مهجع المرضى في بداية الشهر السابع عام ١٩٨٥ م وينطلق في قطار الأحزان والرهبة من المجهول إلى سجن المزة العسكري وبعد أن حط بى المطاف إلى ذلك السجن اللعين تم تفتيشي وأوعية ملابسي التي جاءتني من أهلي خلال زيارتهم لي وكذلك وقد وضعوا أيديهم على النقود التي أحضرتها أيضا من الزيارة وبعد أن وُضعت في صندوق الأمانات في السجن اقتادوني إلى مهجعى الأول والذي غادرته بتاريخ ١٧-٢-١٩٨٥ م، دخلت المهجع وقد فرح الجميع بملاقاتي لعلهم يحصلون على أخبار تسرهم وتبدى لهم أملاً بعد واقع مر ومستقبل غامض يعيشه الجميع في قبضة عصابة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان ولأبسط حقوقه في الحياة الكريمة حدثتهم بأمانة حول رحلتي بين سجون الطاغية حافظ الأسد ولم يكن هناك في جعبتي من الأخبار ما يفرحهم ويفرحني كنت أنا وزملائي في القضية حديثي العهد بالنسبة لهم جميعاً إلا القليل اليسير ممن دخلوا السجن بعدنا، قمت بتقديم شيء من الواجب والضيافة لهم مما تيسر بيعه لنا من مشروبات غازية وليس أكثر كما لم يكن مسموحا لي بالاحتفاظ بنقود في حوزتي تسامرت وأبناء دعوتي وعللنا نفوسنا بفرج من عند الله وحده سبحانه وتعالى هذا الجو المبهج والآمن نوعا ما، لم يدم طويلا إذ جاءني المدعو «رئيف» رئيس المهجع وهو من الإخوة المسيحيين من حوران وطلب منى أن أتحمل عنه مصروفات الشبيحة في الدخان وبعض حوائجهم بالطبع رفضت وأجبته أنا غير مكلف بهم ولا يوجد سبب واحد أقتنع به لأميزهم عن بقية زملائنا في المهجع وأنا لست ممن يدفعون جزية لأحد أو يقبلون بشروط إذعان لأي جهة كانت ما دام لي خيار وقدرة على الرفض. نقل الخبر لهم وعمدوا لافتعال مشاكلهم معي كما كانت مع الآخرين، عمدوا أخذ لأنفسهم قارورات من المشروبات الغازية عن طريق أصدقائهم من الشرطة العسكرية والموكل لهم بالإشراف على ندوة السجن ومما يجدر ذكره أن الأسعار في السجن لم تكن عادية بل هي أكثر من ذلك بِغية ابتزاز ما لدينا من دراهم لا يوجد لها

رافد أو زيادة من قبل أهلنا الممنوع عليهم الاتصال بنا أو معرفة أحوالنا إذ أننا كنا نعيش في عالم آخر في ربعة عصابات منظمة وتسلحت بقوى البطش والعدوان دون حماية لنا من قانون أو خلق.

طلب منى أفراد العصابة المجرمة أن أدفع ثمن مشروباتهم إلا أنني رفضت ذلك، فأصرَّ عليَّ زعيم منهم يدعى «ناصر فارس» قائلاً ستدفع غصباً عن ربك استغفر الله من قول هذا اللعين أجبته يخسأ هو وكل من يناصره قرع الباب فأتى أفراد الشرطة العسكرية في تلك المناوبة فاستمعوا له دون أن أعلم ما قاله، تمَّ استدعاؤه إلى إدارة السجن ومن ثم استدعوني إلى الإدارة – وخاطبني المساعد اللعين المكنى أبو رامز قائلا «ولك إذا واحد سب الإمام على أنت تتصدى له – لماذا؟

أجبته أن المدعو هذا سب ربى وأنا معلوم لدى رئيس الجمهورية لانتمائي إلى حزب ديني فأجعل من نفسي كما يزعم هذا أنني ظل الله في الأرض فالله سبحانه ليس بحاجة إلى وكيل ولكنني أنا مسلم كما هو معلوم لدى جميع السلطات وأن سب والدي هو أهون على نفسي من أن يسب أحد ربِّى وأعلمك سيادة المساعد هذا لم يسب الإمام على بل سب ربى وأضيف لكم حتى لو سب الإمام على فأنا لست من أشياعه لا بل هو جدِّي ومن يسب جدي بالطبع سأسب جده – وأردت أن أوصل له رسالة أنني أقرب إلى الإمام على كرم الله وجهه من أي فرد يدعى التشيع له زوراً وبهتاناً و أبلغته أنا في سجن ولا يمكن أن أخضع لفعل أراده عصابة أنا أملك مبلغاً من المال وأريد مقابلة مدير السجن لأتبرع به للحكومة بدلا من أن يسلبني إياه فرد في العصابة – أيضا أردت أن أوصل له رسالة أنني لن أؤخذ بالتهديد والوعيد من أحد أيا كان أجابني لا أحد يسلبك شيئاً، أجبته إذا ما الجرم الذي ارتكبته حتى يتم التحقيق معي لا بل أريد مقابلة مدير السجن – أدركت أن ذلك يخيفهم لا لشرف ونزاهة من قبل مدير السجن بل لا يريد مدير السجن أن يعطى تصرفاتهم صفة قانونية يريد أن تحصل الأمور دون علمه أو أن تلامس مسمعه – أخذ يطمئني أن لا أحد يفرض عليك شيئا لا تريد

فعله من خلال إرادتك أنت حر في نقودك ذهبنا جميعا وأبلغ رئيس المهجع بردع كل من يريد التطاول على حاجياتنا ومما يجدر ذكره أنني عندما سمح لنا بشراء شيء من المعلبات توضع في ندوة السجن منا باسم طالبها وعندما يريد استخدام شيئا منها يتم بطلب من رئيس المهجع وتسجل باسم مالكها أي الذي دفع ثمنها وبعد حين وجدت أن تواطؤاً قد حصل بين رئيف رئيس المهجع وبعضاً من أفراد العصابة وسرقوا شيئا من المعلبات التي هي باسمي أثرت ضجة فزع على أثرها «رئيف» وتعهد أن يقدم لي ثمن المسروقات أنا رفضت ذلك لأن القصد لم يكن مادياً بقدر ما هو عدم الإذعان لإرادة العصابة و إرادة من يناصرهم في إدارة السجن. أذكر هذه الحوادث البسيطة في شكلها لكنها كبيرة في معناها ومرادها أي أن كل فرد في سوريا من شعبها أو مقيم بها هو صيد مباح لشبيحة الأسد وأعوانه وأن كل موارد الدولة في سوريا هي ملك آل الأسد وأعوانه ليس من الطائفة النصيرية وحدها بل من كل بطانة الأسد من الآخرين والذين يعرفون بالسُّنَّة وأنا أشرف السُّنَّة وأربابها أن يكون أولئك من السنة لأنني على يقين أن الكثير منهم لا يعرفون الوضوء بشكله الصحيح ولا أريد لنفسي أن أكون شاهد زور بأنهم سُنّة – حافظ الأسد لم يقم أركان سلطته على أبناء الطائفة النصيرية وحدهم لا بل كان أكثر المقربين منه هم من أولئك الذين يبحثون عن ذاتهم في ملامح الآخرين وممن يزحفون كالبطيخ ويسلقون كالفاصوليا أليس خدام و طلاس ومحمود الزغبى والأحمر وعلى المدني والكسم ومحمد على الحلبي هم من بطانة حافظ الأسد علينا أن نعرف الداء حتى نحصل على الدواء الشافي ولا نخفى أنفسنا خلف أصابعنا أنا لا أدافع عن الطائفة النصيرية إذ لا أعرف واحداً منهم قد دعوته أو أقمت به اتصالا به لأنني أربأ بنفسي عن الشبهات رحم الله امرءاً جب الغيبة عن نفسه.

هنا قد بينا مصدر النقود التي كانت بحوزتي أردت أن أساعد من هم في المهجع وأشترى لكل منهم بعض أقراص الفلافل لعلها تساعدهم في صنع شطيرة تيقنت أنفسهم من مجاعة السجن إلا أنني كنت أتلقى الرفض إذ يطلب الجميع أو الأغلبية

شراء دخان كنت أستجيب لبعض المطالب مُكْرهاً لأنني لا أستطيع دوما أن أسبح وفى كل الأوقات عكس التيار إذ أن الدخان كان كابوساً مذلا لكل مدخن، إذ لاحظت أن خصاما ما بين اثنين وقد تدخل أو تدخل الجميع لرأب الصدع بينهما إلا أن الفشل كان هو النتيجة الحتمية ولكن سرعان ما يأتي عندما يشم أحدهم رائحة الدخان من قبل خصمه اللدود فتجده يقترب منه ليعطيه مصة واحدة أو أكثر فيزول الخصام تحت لافتة الدخان!!!!

لم نسلم بعد من شرور تلك العصابة من الشبيحة والذين لا يعلم عنهم أحد إلا من وقع عليه كيدهم وشرورهم وأن ظهورهم العلني الآن لم يكن مصادفة أو قدريًّا لا بل أنهم موجودون في المجتمع ويمارسون بطشهم على كل الناس دون أن يقدر أحد على مخاصمتهم لأنهم هم أظافر السلطة وذراعها ذراع الكيد والتنكيل والتسلط والإذلال.

بعد أن قدمت إلى كفر سوسة وقد تحدثت عن الأسعار في كفر سوسة هي عند الأسعار الموجودة في المزة وللأمانة أن ذلك يرجع إلى نزاهة وانضباطية المساعد أبو أحمد القائم على الإدارة المباشرة في سجن كفر سوسة. يعمل أفراد العصابة بعد أن وصل ذلك لمسامعهم إلى نقل الخبر إلى عصابة السجن ممثلة بالمقدم المدعو بهجت صالح ومساعديه كلاً من المدعو أبو سومر وأبو رامز كلاب صيده - أُدعى إلى مكتبهم وأُسأل عن ذلك لم أنكر بل قلت أنا نقلت خبر موجود ولم أصطنعه من بنات أفكاري ولا أعلم أن ذلك يضيركم أو ينال شيئا من أمانتكم!!! الأمر لم يخلومن التوبيخ وكلام القذارة والتي هم منبعها وأصلها وفروعها.

ويحصل أن يتقدم منا المدعو «إبراهيم خوجا» وهو من الطائفة النصيرية وكان في خصام ظاهر مع عصابة أبى خنجر كنا نُشركه معنا في طعامنا ولكننا علمنا أن ذلك الشخص كان كالأفعى لينة الملمس خبيثة الباطنة إذ كان يوشى بنا سرًّا إلى إدارة السجن وقد مورست عليه ضغوطات أيضاً أن ينضم إلى جماعة أبى خنجر ولا يخاصمهم وذلك من قبل إدارة السجن وللعلم أن المدعو قد سُجن لأنه وقع في خصام مع أحد أفراد عائلة

الأسد وكان يهرب كل شيء ولتنافر المصالح بينهما وقع خصام إلى جانب أن المدعو كان يعمل في ترويج العملة المزورة كما سمعنا، وكان المدعو يعمل في جهاز المخابرات تحت إمرة المدعو العميد"غازي كنعان» عندما كان رئيسا للفرع العسكري في حمص. وقد ذكر لي أن غازي كنعان كان الرجل الثاني في الدهاء الاستخبارى بعد العميد على دوبة، وأن غازي كنعان هو أول من كشف تنظيم الإخوان المسلمين في حمص في مطلع الثمانينيات وقد تم التنكيل بهم وتصفية أجنحتهم القوية والخطرة على كيانه المصطنع الاستبدادي. كما ذكرت عندماكنت أتذمر من المعاملة السيئة إذ أعلمنا أن الممارسات التي تحصل في مخابرات سرايا الدفاع والواقعة بالقرب من المزة جبل بجوار البوابة الرسمية والقريبة من مستشفى الأسدى أي قبله في الوادي أشار أن العذاب هناك كان قاتلا ومميتاً.

ومن الأشخاص الذين عرفتهم هناك كان العقيد يحيا السعدي أبو زكريا كان كما علمنا طيارا ماهرا ومدربا ناجحا وطيار اختبار واستعراض، ذكر لنا أنه كان يقوم بانقلاب حلزوني بطائرته الميغ وقبل أن يصل إلى الأرض بخمسين متراً تقريباً وقد يكون أذهل الجميع من خبراء السوفييت فيقلع بها صاعدا مما كان يثير إعجاب الخبراء السوفييت، قد عذب ذلك الرجل الشهم والأبي لا لخيانة أو جرم بل أبدى ملاحظة قائلا أن بدعة الوقوف دقيقة على أرواح الشهداء هذه بدعة صهيونية ولو قرأنا الفاتحة ودعونا لهم لكان ذلك هو الأفضل، عوقب على ذلك وسجن في سجن مطار المزة وهو تحت الأرض ويذكر أنه هو وسجن المخابرات الجوية والواقع تحت أرض مبنى المخابرات الجويةفي دمشق أسوأ وأقسى سجون العصابة الأسدية في سوريا الأبية وقد حوكم بحكم صوري عشر سنوات وقد انتقل من مهجعنا وقد قيل لنا أنه انتقل إلى مهجع مفتوح في الطابق العلوي منا وذكر لي أن ستين طائرة إف ١٦ أفضل من كل سلاح الجو السوري وأردف قائلا لو نملك ستين طائرة إف ١٦ لأحرقنا سماء إسرائيل إنه كان ذو شكيمة وبأس شديد أذكره بفخر واعتزاز.

ومما يجدر ذكره أيضا أن عصابة أبى خنجر كانت تعمل على ارتياد الملاهي الليلية

وتفرض عليها إتاوات مالية وتنفقها على بنات الليل والهوى ولكن وقد تطورت حاجياتهم إلى مزيد من الأموال لإنفاقها على المخدرات عمدوا إلى تكوين عصابات مسلحة تسطو وتنهب و تسلب وأخيرا عمدوا إلى اختطاف سائح سعودي وأسرته عن طريق الكسوة واقتادوه إلى طريق نجها حيث وجود المكان الخالي من الناس وقاموا بقتله وسلب أمواله أمام زوجته وأولاده وعندما حوكموا انتهى الأمر بإعدام شخص حلبي كان شريكاً لهم في الجريمة وهذا عبارة عن ضحية لإرضاء مطالبة السلطات السعودية في حين كان ينبغي إعدامهم جميعا لأنهم شركاء في الاختطاف والإرهاب والسطو المسلح.

وبعد وصولي إلى المزة بيوم واحد تم استدعائي ليذهبوا إلى خارج السجن ولم أعرف إلى أين وبعد أن لبست ملابسي اقتادوني إلى قلم السجن وكانت تنتظرني دورية من الشرطة العسكرية وبعد أن قيدوا يديَّ بقيد حديدي انطلقوا إلى حيث لا أعلم في سيارة جيب عسكرية وقد وضعوني بينهم ويداي وضعتها إلى الأسفل وكان يحرسنا سيارتان من الشرطة العسكرية إحداهما أمامنا والثانية من الخلف ومعهم بنادقهم ومن المصادفة الأولى والأخيرة أن أحد الشرطة العسكرية والذي كان بجانبي هو من محافظة حوران إذ عرفته من لهجته لاطفني وسألني عن شخص من أقاربي هو يعرفه أجبته نعم هو من أقاربي ولم أستطع إنكار ذلك لأن الشرطي على يقين من صلة القربى التي تربطني بصاحبه، سألني ماذا تريد أن تبلغه أو تريد منه أجبته لا شيء حيث حرصت ألا يكون ذلك سبباً لاتهامه بعلاقة ما معي. ألا أن رئيس الدورية قد منعه لاحقا من التكلم معي قائلا له «اتركه ولا تكلمه» مررنا في المزة القديمة ومررنا بشارع الثورة في وسط مدينه دمشق ودون أن أعرف إلى أين نحن ذاهبون ولم أجرؤ أن أسأل أيًّا منهم إلى أين نحن ذاهبون خوفا أن يتكلم معي أحدهم كلاماً نابياً وأخيرا حطّت بنا الرحال في منطقة القابون حيث توجد قيادة الشرطة العسكرية توقفت بنا السيارة واقتادوني إلى مبنى وحوله حراسة، علمت لاحقا أنه مقر المحكمة الميدانية وهى محكمه صورية لأن الأحكام تأتى من المخابرات مباشرة وكما لا يوجد فيها دفاع «محامى» وأن أحكامها غير

قابلة للنقض كما لاتتلى على من يمثل أمامها. وضعوني في غرفة الانتظار حيث مكتوب ذلك على باب الغرفة.

أجلسوني أرضا وبعد فترة اقتادوني وأزالوا الحديد أي القيد من يديَّ وأدخلوني على رئيس المحكمة العميد صلاح المعاني وهو من أصل فلسطيني وبعد حديث مفيد معي وكان لطيفاً ومهذبا للأمانة، استدعى رئيس مكتبه حتى لا يؤخذ عليه أنه قابلني على انفراد وعرفت لاحقا أن تصرفه هذا كان مبرراً لأن وجوده رئيسا للمحاكم الميدانية هو أمر شكلي وأن الأمور جميعها بيد المقدم المجرم سليمان الخطيب وهو من الطائفة النصيرية، وهو اسمه روبسبير جزار الثورة الفرنسية إذ تم إعدام قرابة خمسة عشر ألف شخص على يد هذا المجرم وبعد أن سألني العميد صلاح هل أحد ضربك أشرت له إلى آثار الضرب ولكنه لا يستطيع أن يفعل لي شيئا إذ كما ذكرت أن منصبه منصبا خلبيا أي شكلياً وبعد أن أنهى المقابلة قال لهم خذوه أخذوني إلى غرفة الانتظار وطال بى الانتظار وأنا لا أعلم ماذا ينتظرني وحوالي الساعة الواحدة والنصف اقتادوني إلى مكتب مجاور وفيه شخص بلباس مدني ويدعى حسن إذ كان قاضياً وسألني سؤالاً واحداً ماذا عندك أن تضيفه لكي يساعدك أي يرد منى معلومات إضافية ولاحظت لا توجد لديه أي معاملة تخصني بل تأتيه أسئلة من المخابرات مكتوبة ثم يقوم بتلاوتها على أجبته لا يوجد عندي ما أضيفه وانتهت المقابلة بهذا السؤال. ضرب الجرس حيث حضر أحد أفراد الدورية واستلمني ووضع القيد في يدي وأخذوني إلى سيارتهم بعد أن أكملوا الإجراءات اللازمة وعادوا بى إلى سجن المزة ولكن بطريق مغاير لطريق القدوم وصلت إلى مهجعى منهك القوى ومتعباً.

التف حولي الجميع يسألوني عن رحلة العذاب قصصت عليهم تفاصيل الرحلة ولكن كان من المفاجئ لي أن تم استدعائي في اليوم التالي لنفس الغرض إلّا أنه هذه المرة وضعوني في سيارة مغلقة معده لنقل المساجين ويوجد على الباب أفراد الحراسة من الشرطة العسكرية وبنفس الإجراءات كان يصطحبنا سيارتا حراسة واحدة من الأمام

والأخرى من الخلف ذهبوا بى من خلال طريق مغاير للأول إذ كنت ألاحظ ذلك من فتحات جانبية في السيارة وصلنا إلى مقر المحكمة وجلست في غرفة الانتظار وكان ذلك يحصل دوماً في الصباح الباكر أي حوالي الساعة الثامنة صباحا أدخلوني إلى غرفة الانتظار ولكن فوجئت هذه المرة بسياط تنهال على أثناء جلوسي وبركلات من أقدامهم وضرباً من أيديهم آلموني كثيرا دون أن أجد معيناً ولا ناصراً إلا الاستعانة بالله وحده كنت أدعو ربى أن يكون معي ويبعد أيدي المجرمين عنى وبعد انتظار طويل وخوف ورهبة اقتادوني لمقابله نفس القاضي ويسألني أسئلة محدده كالعادة من كان يقدم لك معلومات ولم تذكره - لا أحد يكتفي بذلك - كان الأمر لا يتعدى الإزعاج والعذاب والإهانة وبعد انتهاء الدوام عندهم في وقت متأخر تعود بى الدورية إلى المزة ويلتف حولي الجميع لأحدثهم عما حصل معي لا جديد سوى التعذيب و الإهانة والمعاناة والمذلة.

تكرر الأمر معي ولمدة أسبوع تقريبا يوميًّا وبعد ذلك كان مرة في كل أسبوع ولأشهر تقريبا وأنا أقاسى من الأمرّين وعذاب المجهول وسوء المعاملة من شبيحة العصابة الأسدية المتواجدين في المحكمة ولكن هم من الشرطة العسكرية. وبعد ذلك الذهاب المكوكي تم استدعائي بشكل مفزع ومخيف وقد غمروني ببطانية حتى لا أبصر ولا أحد يبصرني وبعد انتظار خانق في هجير الصيف وعلى أرض أسمنتية أشبه ما تكون بفرن تم إدخالي إلى غرفة يوجد فيها شخصان وطلب منى أحدهم أن أجلس وقدم لي نفسه أنه المقدم «سليمان الخطيب» وأن الآخر هو المقدم «بهجت الصالح» مدير سجن المزة وأعلمني أنني أمام محكمة ميدانية خاطبني قائلا «أصدقني وأنا سأساعدك» أجبته لقد تربيت أن أموت صادقاً ولا أعيش كاذباً سألني هل الذي يصدق يموت أجبته نعم قد -أي في حضور الظلم سألني من أوحى لك لقلب نظام الحكم؟ أجبته أنا لم أفكر بذلك قطعاً كيف أقلب نظام الحكم بعدد قليل من الأشخاص ثلاثة ولو أنى فكرت بذلك لأنشأت حزباً سياسيًّا وأنت تقدر أن تعرف هل أقدر على ذلك أم لا. أو أن أنضم إلى أحد الأحزاب الموجودة والمعارضة وسأجد كل ترحاب وتقدير.

ثم سألني هل درَّسَك المعروف الدواليبى أجبته بالنفي وكذلك لا أعرفه ولكنى أردت أن أغير من أفكاره وقلت درسنى الدكتور «أحمد السمان» وهو مدير جامعة دمشق الأسبق ورجل أكاديمي شهير ومعروف أكثر أن يكون وجهاً سياسيًّا. سألني عن حياتي في الأردن والسعودية فذهبت به بعيداً أي من طفولتي الأولى في الأردن ودراستي هناك وحياه المشقة في البادية وفى مراحل تعليمي الأولى حيث لا توجد مدراس عندنا لا بل كان يعمد والدي أن يستودعني عند بعض أقاربه ومعارفه إذ كان حريصاً أن أتعلم رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ومن ثم ذكرت له كيف حضرت إلى السعودية قاصداً العلم وكيف تنقلت بين المدن والمناطق في السعودية وعبر طريق لم تكن قصيرة آنذاك مما جعله يقول لي ما علاقتي بهذا، فأجبته إذا كان هناك جرم مثلاً فلا بد أن تكون هناك ظروف تحيط بالإنسان وقضيته حتى يتم تكيف قانوني لتلك الجريمة كنت أعنى نشأتي في الأردن أنا لم اخترها بل هي متعلقة بوالدي وظروفه وكذلك في السعودية لأنني أردت أن أتعلم وذهبت إلى السعودية وحصلت على منحه دراسية مكرمة وتقديراً دون أن يكون أمر سياسي أو تعامل لأنني أنا ووالدي لم يسبق لأي منا أن أقام في السعودية أو تعامل معها. هددني بأنه سيعدمني وسيسحبني من رجلي لم أجاوبه أبدا.

كنت أدرك أن هناك جهاز تسجيل لأنه لا يوجد أحد يُدوِّن أقوالي وثبت لي لاحقا أن دخل عليه المساعد وسأله هل سيحضر له جهاز تسجيل طبعا لشخصٍ سيأتي بعدى هنا وثَبَت لي أن أقوالي كانت مسجلة في جهاز التسجيل، أنهى معي المقابلة ولكن قبل ذلك أدخلوا شخصاً وهو من محافظة الحسكة وهو من قبيلة الجبور وأكد له أنه سيعدمه هو أو ابنه إذ خيَّره بذلك فآثر ذلك الرجل أن يعدم هو بدلا من ابنه كان ذلك خيارا مؤلما وكان فيه إيثار الأبوة وتضحية لا يقدمها إلا من إرتضى التضحية طواعية فداء لفلذة كبده. ولا عجب لا يفوتني أن أذكر واقعه حصلت معي في المقابلة التي جمعتني بالمقدم سليمان الخطيب وبهجت الصالح مدير سجن المزة العسكري هذه المقابلة كانت فريدة إذ استمرت لساعات طويلة وهذا على غير العادة مع سليمان الخطيب الذي كان

يحاكم الناس خلال دقائق ويعدمهم خلال ثوان ! في هذه المقابلة أراد المقدم سليمان الخطيب والذي هو من الطائفة النصيرية أي يوقع رئيسه العميد صلاح المعاني رئيس المحكمة الميدانية والذي هو من أصل فلسطيني وضابط متنفذ عند رفعت الأسد إذ كان من مرتبات سرايا الدفاع التي يرأسها رفعت الأسد وهو من الضباط الذين أبلوا بلاءً حسناً في حرب رمضان عام ١٩٧٣ م وقد شغل أيضا رئيس جهاز الصاعقة وهو الجناح العسكري لحزب البعث السوري في منظمة التحرير الفلسطينية وقد شغل ذلك بعد اغتيال «زهير محسن» في فرنسا على ما أعتقد على يد الموساد الإسرائيلي كما أُشيع إبان ذلك والذي كان يسميه الرئيس السادات زهير العجمي كناية أنه كان ذا يد طويلة في التهريب ومخالفة القوانين والارتزاق بطرق غير شرعية. سألني المقدم سليمان الخطيب وبحضور المقدم بهجت صالح مدير سجن المزة العسكري سألني ما علاقاتي بصلاح المعاتي؟ أجبته لا توجد أيه علاقة تربطني به وشدّد عليّ المحاولات وقال لي أنت قد حضرت حفلة عرسه و أكدت له أن ذلك لم يحصل قط وكانت تلك الحفلة قد حضرها رفعت الأسد ولكنه لم يقتنع، قال لي أبدا لم تعرفه من قبل ولم تقابله من قبل؟! أكدت أنني لم أعرفه ولم أقابله من قبل، ولكنني قلت لا أعلم أن كان قد تواجدت في مكان ما وكان هو موجوداً وقد يكون أحد قد أشار له عليّ لا أعلم ذلك ولكن أذكر أنني لم أقابله.

دار حديث كثيراً حول ذلك وهددني إن كنت كاذباً سأنال منه أشد العقاب ولنتساءل لماذا هذه المزاعم؟.... هذه المزاعم حصلت أولاً لأن العميد صلاح المعاني هو من المقربين إلى رفعت الأسد وظن أنه تعاطف معي لذلك السبب حيث أن سليمان الخطيب قد سألني عن علاقتي برفعت والتي أنكرتها كما سأذكره لاحقا ثانيا أن «صلاح المعاتى» هو من أصل فلسطيني وأن الدائرة الأمنية في عصابات حافظ الأسد لا تثق بأحد هو من غير الطائفة إذ ينظرون لأي شخص قريب منهم على أنه أداة منفذة فقط.

ولا يمكن أن يرتقي إلى درجة الثقة مهما علا شأنه وقدم من خدمات وتضحيات أراد المقدم سليمان الخطيب أن يسند تهمة إلى العميد صلاح المعاتى لأن رفعت الأسد كان

يمثل جناحا مناوئاً لجناح اللواء على دوبا رئيس المخابرات العسكرية والخصم اللدود إلى رفعت وأن المقدم سليمان الخطيب هو من جناح اللواء على دوبا وأذكر في تلك المقابلة أن المقدم سليمان الخطيب قد سألني عن علاقتي برفعت الأسد فأجبته لا أعرف عنه شيئاً سوى أنه أخ الرئيس حافظ الأسد وأنه قائد لسرايا الدفاع وذلك من خلال وسائل الإعلام فقط وكان ذلك سؤالاً ز اعماً منه أنني أتزعم مجموعة تعمل لصالح السعودية التي كان يعتقد لديهم أنه يتلقى دعماً خاصاً من المملكة السعودية وأنا بالطبع لا علم لي بذلك أبدا... فأراد المقدم سليمان الخطيب من تلك الأسئلة لينسب إلى رفعت الأسد مناوأته للنظام وأن هناك إلى جانبه مجموعات يتستر عليها وتعمل تحت مظلته وهذا وإن دل على شيء فيدل على صراع الأجنحة في سوريا إبان حكم حافظ الأسد ولا أدل على ذلك من اختطاف القنصل السعودي السيد حسن فراش من لبنان وكان وراء ذلك هو اللواء على دوبا وهذا العمل أراد من ورائه اللواء على دوبا الإساءة للعلاقات مع المملكة العربية السعودية وإساءة العلاقات مع جناح رفعت الأسد بشكل عام وإن من أجنحه اللواء على دوبا هو نائب رئيس الجمهورية عبد الحليم خدام والذي هو من منطقه اللواء على دوبا وأن خدام كان مناوئا لرفعت الأسد وإن هذا إن دل على شيء فإن المرحلة كان قائدها هو حافظ الأسد ذو النفوذ المطلق وأن أحدا في الأجنحة المشار إليها لم يكن في مقدوره الخروج على السياسة العامة والتي هو يرسمها ويقررها وإن بَدا للعَيان أن حافظ الأسد بعد خروجه من المستشفى في نهاية عام ١٩٨٣م وقد أوجد نواباً له وهم عبد الحميد خدام للشؤون السياسية وزهير مشارقة للشئون الحزبية ورفعت الأسد للشؤون الأمنية والعسكرية وأن دور أي من أولئك المشار إليهم كان مرسوماً من قبل حافظ الأسد وأنه هو الذي يراقب تنفيذ السياسات التي هو يرسمها من تلقاء نفسه. وإن كان رفعت الأسد قد تم تحييده لسبب الخلافات التي كانت موجودة بين أجنحة الحكم في سوريا فإن تحيد رفعت الأسد لم يصطحبه بيان رسمي بإعفائه من أي من المناصب التي كان يشغلها!!! بل كان معه فريق عمل كبير أثناء تواجده في فرنسا.

أشير إلى هذه الأحداث لبيان الظروف السياسية التي سبقت ورافقت اعتقالنا والتي كان لها أسوأ الأثر على بقائنا في السجن كما سأتطرق لذلك لاحقا ولا يفوتني أن أذكر ذلك إلا يوم حيث تم استدعائي للذهاب إلى المحكمة الميدانية في حرستا مدينة في ريف دمشق وكالعادة وضعت الأغلال في يديَّ وحال وصولي إلى مقر المحكمة وضعت في غرفة الانتظار جالسا على الأرض ولاحظت في الغرفة المقابلة أخي محجم رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وكما لاحظت زوجتي وعندما لاحظوا ذلك أي الرجال العاملين في المحكمة أوصدوا على الباب وبعد فترة تم استدعائي إلى مكتب رئيس المحكمة العميد صلاح المعاتى ووجدت المحكمة بكامل أعضائها أي بوجود المقدم سليمان الخطيب والقاضي حسن ولقد وجدت والدي جالسا إلى جانبهم بجوار رئيس المحكمة وأن هذا لم يحدث أبدا في تاريخ المحكمة كما علمت لاحقا وكان والدي يتحدث وبحرية مع رئيس المحكمة ولكن ذهلت عندما لاحظت وجود زوجتي في المحكمة وهذا غير مألوف في تاريخ أهلنا وعائلتي أن تظهر النساء في أروقة المحاكم مما جعلني أبكي كيداً مما ظن معه والدي أنني كنت خائفاً فقال لي هل أنت خائف؟ (لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا) كان رحمه الله ذا بأس وقوة وشكيمة لا يبكى ولو رأى العالم ميتاً حوله لأنه كان يقول لي دوماً الذي يموت ماحنا يخوياه لم يكن في مقدوري أن أعلمه سبب بكائي الفعلى.

وإذا قلت دموع العين لا تعنى مذلة تسمو النفوس ومن دونها شهب
دمــوع العين للجور مرجعـه وأحــار قلب من حاقــت به النـوب

كان ذلك ولا يزال حسرةً في صدري لأنه توفى دون أن يعلم سبب بكائي، ذهب وهو يظن أنني كنت خائفا وقد علمت أن حضور أهلي كان مدعاة لأن يروني وأراهم وهذا تكرما من رئيس المحكمة العميد صلاح المعاتى وبحجة مواجهتي مع زوجتي لأن سيارتي التي أخذت من قبل الملازم عبد الكريم إسكندر كانت باسمها وكذلك كانت مفاتحة من قبل المحكمة مع أخي محجم بحجة أنه حاول أن يرشى أخو زوجته فايز النورى رئيس محكمة أمن الدولة وهو من أصل ديري وأن أخي قد نفى تلك التهم

ومما علمته أخيرا وبعد خروجي من السجن ومن زوجتي إذ أعلمتني أنه قد تم إحضار شخص ما إلى ساحة المحكمة أثناء وجودهم في الغرفة المجاورة لغرفة الانتظار وحين وجودي هناك وقد تم إعدامه أمامهم وقالت لي إن الأمر كان مفجعا لنا ومخيفا ظنا منها أنهم سيعدمونك بنفس الطريقة!! أليس هذا إجرام بحق الأبرياء وإرهاب دولة بحق شعب أعزل لا ذنب له ولا جرم. وأثناء وجودي في المحكمة قد سمحوا لوالدي أن يعطيني دراهم وكانت محدودة لأنه قال لي أمام المحكمة لقد أحضروني على حين غفلة ولم أكن أحمل معي نقوداً كافية ولكنني أردت أن أوصل لهم رسالة عن الإرهاب في السجن إذ قلت لأبى أمام المحكمة لا أستطيع أخذ النقود وإلا ستكون سبباً في معاقبتي وجعلها سببا لمسألتي عن مصدر النقود فما كان من رئيس المحكمة إلا أن استدعى رئيس مكتبه وطلب منه أن يبلغ بهجت الصالح مدير سجن المزة العسكري أن النقود قد حصلت عليها وبحضور المحكمة بكامل أعضائها وبعد أن عادوا إلى سجن المزة وجدت المقدم بهجت الصالح في انتظاري وقد استلموا منى النقود وعلمت أيضا لاحقا أن حضور والدي كان ليعلموه علم اليقين أن اعتقالي لأسباب سياسية وليست وشاية كما كان يظن منى بعض النصيريين نتيجة خصام لهم مع آل القاعور مما استدعاني للتدخل لأنهم أهل زوجتي وكانوا أيضا معتدى عليهم من قبل عمال أرض في السابق في أملاكهم في بلدتي الزعورة وعين فيت وعودة إلى فترة وجودي في سجن المزة العسكري أن حصل حضور مدير السجن إلى مهجعنا الذي كان بعرف السجن مغلقاً أي لا توجد زيارات لأي واحد فيه كما لا يسمح لنا بالنظر إلى أي واحد خارج المهجع أو ينظر إلينا من قبل أي واحد أيضا من الخارج وكانت النوافذ مغطاة بستائر داكنة هي عبارة عن بطانيات للنوم.

وعندما جاءنا أبلغنا أننا سننتقل إلى مكان أفضل مما نحن فيه حيث توجد المياه الساخنة والزيارات.... الخ، فرح الكل منا ولكنى كنت أشُك في ذلك لأن تنقلنا كان سريًّا ودون إعلامنا عن الوجهة التي نحن ذاهبون إليها عند تنقلنا من مكان لآخر حسب مقتضيات الأمر بالنسبة لهم. وبعد حين تم إبلاغنا أن ننهى علاقتنا في المهجع وأن نحضر

أنفسنا مع طلوع الفجر لنذهب إلى تدمر وكان هذا ليس بُشرى لنا بل هو نازلة ليس لها كاشف إلا من عند الله سبحانه وتعالى لقد علمنا من بعض المساجين ما سنواجهه من عذاب و إهانة في تدمر منذ وصولنا وفى الصباح الباكر وبعد أن تم وداعنا لأصدقائنا في المهجع حيث أفجعهم مصابنا ومنهم من كان يبكينا وداً وإخلاصاً. تم فتح باب المهجع ونزلنا إلى القلم حيث كنا أربعة أشخاص وشخص آخر أيضا من مهجعنا من حلب لا أعلم إذا كان من ريفها أو من المدينة تم تفتيشنا بدقة وقد سلمونا أماناتنا التي كانت بحوزتهم وإغلاق سجلاتنا في السجن وكان ذلك صبيحة ٢٩/ ١٢/ ١٩٨٥م وكان يوماً مشئوماً لن تندمل جراحه أبدا ما دامت الأنفس حية والأجساد باقية.



العنوان - المحطة - الانتقال إلى العالم الآخر سجن تدمر العسكري:

وبعد أن أنهينا ارتباطنا بسجن المزة العسكري وركبنا في سيارة مغلقة معدة لنقل المساجين ويوجد عند الباب دورية من الشرطة العسكرية ببنادقهم انطلقت بنا السيارة وتتقدم السيارة التي تقلنا سيارة حراسة وفى خلفنا أيضا سيارة حراسة انطلقت بنا إلى سجن تدمر العسكري،كان يوما شديد البرودة ونحمل بين جوانحنا الخوف من المجهول ومن العذاب الذي سمعنا عنه من الآخرين عالم مجهول لأنه عالم لن يعلم عنه أحد بعد أن ندخله وقد علمنا أنه قد كتب على مدخله «الداخل مفقود والخارج مولود» إنه العالم الآخر الذي سيضمنا بين جناحيه ويذيقنا من أشكال وألوان العذاب ما لم نعرف حدوده ووبال أمره. وصلنا تدمر في الصباح الباكر وعند باب السيارة وجدنا عدداً غفيراً من الجنود ويرحبون بنا أهلا بالشباب تلقونا عند باب السيارة بالركل واللطم ودخلت إلى مهجع متسع ورحب وأمرونا أن نقف ووجوهنا إلى الحائط وانقضوا علينا ضربا بلا هوادة وقد أصبت حينها وكسر أنفى وكان ينزف دما وبعد أن خارت قوانا وضاقت صدورنا اقتادونا إلى خارج المهجع وأمرونا أن نخلع ملابسنا وأن نقف في صف واحد، وأدخلونا الواحد تلو الآخر ووضعوا لنا قيودا في قلم السجن، وبعد أن انتهينا من ذلك فتشوا ملابسنا أحضروا لنا دولاب سيارة كفر واقتادوني ووضعوني بالدولاب وأخذت السياط تنهال على أقدامى من قبل أكثر من شخص وأقدامي مثبتة برباط من الحبال مثبتة على ماسورة من الحديد ويمسك بكل طرف منها شخص لم أعد أحتمل الضرب ظننت أنه لن يتوقف أبداً وأن هذا مصيري المحتوم الذي ستتعطل عنده أقدامى وأنتظر ما سيئول إليه الأمر أكثر من ذلك كان صراخا يملأ عنان السماء وكنت أسمع آمرهم أن يستمروا بضربي حتى تنتفخ قدماي وكنت أتساءل كيف تنفتح قدماي؟ إذ لا يوجد إلا الجلد والعظم من الضعف والهزال استمر الضرب وكان الدم ينهمر من قدمي ومن ساقي وبعدها رموني أرضا وأمروني أن أنهض وأمشى وأقف إلى جانب الجدار وكان

ذلك مؤلما ومفجعا لي، ولم يكن زملائي أحسن حالا منى لا بل أن أحدهم كادوا أن يغتالوه خنقاً لأنه كان من جهاز الأمن وأما زميلنا الحلبي كادوا أن يقضوا عليه لأنه وضع نقوداً في مخبأ بالبنطال خوفاً من مصادرتها كما كان يظن سابقا. بعد هذا الاستقبال كما يسمونه اقتادونا مشيا على أقدامنا المهشمة والجريحة إلى مكان يبعد حوالي ثلاثمائة أو أربعمائة متر ودخلنا إلى مهجع يدعى عندهم أبو ريحه حيث كان يوجد فيه ساقية تمر بها المجارى الكريهة وكان أيضا بداخله أعمدة باطونية وزنزانتي ضمن المهجع كان شنيعاً في شكله وتصميمه وعندها ظننت أنه سيتم إعدامنا بداخله لوجود الساقية التي تمر بها الأوساخ ونحن في انتظار المجهول وقد فتح علينا الباب ثانية وسألوا من منكم الأستاذ أجابهم أحد زملائنا أنه أستاذ فأوكلوا له مسئولية المهجع أي أنه الوحيد المخول على مخاطبة الشرطة والاستجابة لمطالبهم. وقدموا لنا أغطية من البطانيات العسكرية وقد أغلقوا علينا الباب وأيضا لم يكمل الأمر حتى فتحوا علينا الباب ثانية وأمرونا أن نخرج وقبل ذلك أي بعد وصولنا وجدت شفقة في الحجر ملتصقة بقدمي دون أن أشعر بها من شدة الذهول والعذاب وفقدان الوعي والحس خرجنا ونسير في صف واحد وأعيننا معصوبة ساروا بنا مسافة وعندها توقفنا وقد فتح باب كبير أدركنا ذلك من صوت فتح الباب وسمعنا صوتاً من الداخل يقول انتبه باحة الكل وجهه على الحيط مروا بنا ببوابة الباحة ووضعونا في زنزانتين أي في كل زنزانة شخصان كان رقم زنزانتنا وقد عرفنا لاحقاً رقم ٢ أما الشخصان الآخران في زنزانة بعيدة شيئاً ما عن زنزانتنا أغلقوا علينا الأبواب وبدأنا ونحن راكعين على ترتيب البطانيات الموجودة في زنزانتنا وكنا لا نقوى على الوقوف كان كل منا ينظر إلى الآخر وكأنه يقول ما هذا المصير؟ وماذا بعد؟ وفى الليل وجدنا من يفتح علينا الشراقة فتحة في الباب وقال لزميلي شو؟ تتكلم – ها؟ علِّم حالك – أي ستنال العقاب في الصباح الباكر أي حين إدخال الطعام نمنا وكأنّنا أموات لا نعلم أين نحن ولكن كانت جراحنا تؤلمنا كلما لامسها الغطاء أو أصابها احتكاك، نمنا وهموم الكون قد خيمت علينا وألقت بظلها الثقيل على صدورنا أُوَّاهُ ما هذا العذاب أواه أين النعيم أواه أين الأهل أواه يارب

أنزل علينا رحمتك ونجنا بقوتك من القوم الظالمين جفت مآقيناونضب دمعها وضاقت علينا الدنيا بما رحبت.

لم يبق لنا عزم أو قوة أو حراك وأجسامنا قد أعياها العذاب والضرب المبرح وفى الليل كنا نسمع أصوات داخل وخارج المكان كنا نعلم ما المقصود بذلك وفى الصباح الباكر وقد سمعنا صرير أقفال الباب وأصوات الشرطة والشبيحة انتبه بحة الكل وجهه على الحيطة نزلنا من يطقنا أي فراشنا ووقفنا مكرهين ووجوهنا باتجاه الحائط وقد أبصرنا قبل ذلك ومن خلال فتحات في الباب والجدار أن أعدادا من الشرطة العسكرية قد دخلوا وبأيديهم السياط والشبيحة تحمل معهم الطعام بدأ الشبيحة بفتح الأبواب وبجوارهم عدد من الشرطة العسكرية فتحت أقفال الزنازين ولكن الأبواب لم تفتح سمعنا صوتاً واحداً ينادون واحداً خرج عدد من المساجين ومعهم أوان بلاستيكية وقد انطلقوا وهم مهطعي رؤوسهم وأعينهم تكاد تكون مغلقة لا ينظرون إلا إلى مكان مابين أقدامهم وهم مسرعون ذُهلنا ونتساءل بيننا نحن ماذا سنفعل؟ لا نعرف لا نعلم.. عاد الجميع مسرعين ونسمع أصوات الضرب والصراخ أما نحن ماذا ينتظرنا؟! لا نعلم سمعنا لاحقا صوتاً ينادى ثمانية وقد فتحت الأبواب بشدة وقوة وانطلق من فيها من مهطعى الرؤوس ولا ينظرون إلاّ إلى مكان ما بين أرجلهم عادوا والضرب والصراخ يتوالى ويصل إلى مسامعنا الحزينة والحيرة تملأ صدورنا وفى لحظة وقد فتح الباب علينا وسألنا شو بدكم عزيمة؟ ليش ما طلعتوا يا..... من الكلمات الوسخة والنابية خرج زميلي رحمة الله عليه لأن حالته كانت أفضل من حالتى، عاد إلي وقد رأيته مهشماً وقد رموا به في ساقية لتصريف الماء في الباحة رأيته والدم ينهمر من رأسه ومن وجهه دخل ومعه آنية بلاستيكية وقد ملئت بالشاي ومعه إفطار وقد عجن لدمه النازف وحالته البائسة.

دخل وبعد أن وضع ما يحمله في داخل الزنزانة التفت إلى ذلك المجرم وصرخ في وجهي. شو ولك يا فاعل يا تارك من الكلمات التي أربأ أن تصل إلى مسامعكم، مد

إيدك؟ مددت يدي وقد انهمرت السياط عليها ولكنني تماسكت أمام الضرب المبرح والموجع وتسال شو أعصاب؟ وعلمنا أخيراً أن ذلك يغيظهم ويعتبرونه تحدياً لذا ينبغي أن يصرخ الإنسان حتى يرتاح بالهم وتطمئن نفوسهم الدنيئة بعذاب الآخرين.

وبعد ذلك السؤال ضربني على رأسي بالسوط الذي بيده مرتين وأن السوط هو كاوتشوك دبابة ويزن تقريبا نصف كغم أو أكثر، بعد ذلك الضرب فقدت توازني وسقطت على حافة المرحاض في داخل الزنزانة وقد أعلمنا في البداية أي عندما عاد إلينا ولم نكن قد خرجنا وسألنا لماذا لم تخرجوا شو ضيوف؟ قال لنا أن رقم زنزانتنا (٢) معلوم أجبنا له معلوم. وبعد أن ضربني وسقطت على حافة المرحاض وقد أغلق الباب قد حضر زميلي ليسعفني وينهض بى. ولكن المجرم قد فتح الشرافة ليعلم ما مصيري بعد الضرب وقد وجد زميلي يسعفني لأنهض بعد أن سقطت صاح بزميلي شو تسعفه – ها.... وكان بنبرة التهديد والتنكر، ذهب وتركنا في أحزاننا التي أفرشتنا وطاب لها المقام ونعم الحال كان كل منا يلملم جراحه ويواسى نفسه وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب منا الحناجر. لم ينته الأمر بعد.الإقفال لم تقفل والشرطة والشبيحة لا يزالون في ساحة الباحة وبدأ مسلسل العذاب فكان الشبيحة يفتحون الشرافة ويخرجون من يريدون ويذهبون به بعد أن يسحبوه من زنزانته يذهب ويلقى به أرضا ويوضع في الدولاب وتثبت أقدامه بأمراس مثبتة على ماسورة يمسك بكل طرف منها أحد الشبيحة وتنهال السياط من أكثر من جلاد ضرباً قاسياً وتسمع الأصوات تشق عنان السماء وتسعى للاستغاثة بالله وينطلق الرجاء والتوسل ولكن لهم قلوب كالحجارة لا ترق لهم ألسنة قذرة لا تسمع منها إلا السوء والفحشاء والمنكر والسباب والقذف لأعراض الأمهات والأخوات والبنات .

تستمر الأمور لزمن قد يصل إلى ساعات عدة وكلًّا منا ينتظر مصيره المحتوم وقد لا يصيبه منه أذى أو نيل ولكن العذاب قد نزل لا محالة والقلوب تخفق تكاد أن تفارق الصدور أو تذوب مع الآهات والدموع ولو خلقت من حديد لما حملت كما حملت من

العذاب تغلق الأقفال بعد حين وينصرف الجميع منهم ويغلق باب الباحة ونحن في انتظار ما يستجد بنا من أطباق العذاب وأصناف الهوان والله المستعان على ما يصفون، قلوبنا تعتصر بالأسى والحزن وصدورنا تطفح بفيض من العذاب والامتهان، الواقع لنا مر وكما هو المستقبل لنا غامض والظلام يلقى بوطأته وجبروته على أبصارنا وبصائرنا لا نرى في خضم هذا الواقع أي بارقة أمل ترتجى أومسعف او معين ننتظر ما سنواجه في كل لحظه وساعة لا يطول انتظارنا حتى نسمع صوت أقفال باب الباحة ليعلن لنا أمر سيء نجهله يفتح الباب ويعلن الشبيحة باحة انتبه الكل وجهه على الحائط نبصر من خلال شقوق الباب أعداد من الشرطة العسكرية وبأيديهم السياط والشبيحة قد أدخلوا أوعية الغداء نحضر أنفسنا لمقابلة تلك المعمعة وينطلق الشبيحة لفتح أبواب الزنازين وبصحبتهم عدد من الشرطة العسكرية تفتح الأقفال وننتظر الأوامر بفتح الأبواب وكالعادة نسمع صوتاً ينادى واحد ينطلق الناس من حولنا مهطعى رؤوسهم وأعينهم تكاد تكون مغلقة وينظرون إلى ما بين أقدامهم بطرف خفي يأخذون ما يسمح لهم به من غذاء ويعودون مهرولين ومسرعين كل إلى مهجعه ويحذر الجميع من أن يسكب شيئا من الطعام على الأرض وإلا سيكون ذلك جريمة لا تغتفر يأتي صوت آخر مناديا ثمانية ويخرج الناس كالمعتاد أي كما شرحته في مناداة واحد نتلقى الحيرة والرهبة ماذا سنفعل لم يقل اثنين يطول انتظارنا حتى ينتهي الأمر بعودة فئة ثمانية يأتينا الرقيب المسؤول ويفتح علينا الباب ويطلق علينا سيلاً من الشتائم والوعيد لماذا لا تخرجوا أجبناه لم نسمع نداء اثنين إذ أن زنزانتنا رقم ٢ فأجابنا لا ينبغي أن تخرجوا عندما تسمعون صوت واحد يا للعجب من هذه الرموز شرح لنا أن من ١ إلى ٧ تعنى واحداً ومن ٨ فمافوق تعنى ثمانية- نعم فهمنا- خرج زميلي رحمه الله إذ كان أحسن حالاً منى وخرج وعاد بغداء إيدامه الدم واللعنة والهوان أبصرته مهشماً ونازفاً كما أبصرته في الصباح وبعده قد أصابني من ذلك العلج ما أصابني في الصباح بعد أن ضرب يدىَّ بسياط ومن الخلف كان ذلك مؤذيا ومبرحا قاسيت الألم والمرارة والذل والهوان وأنا لا أقوى على منع كيدهم وأذاهم نتجرع كأس المر والحنظل في كل لحظة ونحن في ربقة أولئك الكفرة المجرمين، تقفل الأقفال

ونجلس يرقب بعضنا بعضا وقد تعطلت لغة الكلام إلا آهات وزفرات تكاد تكون لواعج أسى وحزن من واقع مر ومرير نحاول أن نشد أزر بعضنا البعض ونحن في ترقب لما ستكشفه الساعات القادمة من مشاهد ووقائع نجهلها وتتكرر المأساة ويحضر المجرمون بعددهم وعدتهم وسياطهم التي أكلت من لحمنا سعيراً وهشيماً. تنفتح الأقفال ويتكرر المشهد ويخرج زميلي في اللحظة المناسبة بعد أن استوعبنا القصد والمراد يحضر سالما والحمد لله وتقفل الأقفال ويذهب المجرمون ويغلق باب الباحة وأدركنا أن لا شيئا مذلا بعد دخول العشاء نجلس في خشية ورهبة من الحرس الليلي الذي لا نعرف مساوئه عند تجوله ليلاً في مراقبة دائمة لنا تفتح الشرافه ويناديناا شبيح عرفنا اسمه لاحقا أنه بشار إسماعيل من (القرداحة) ويسكن في(اللاذقية) وهو مجرم لص أي امتهن سرقة السيارات ومن ثم عاد واختطف كبير الخبراء السوفييت في الصواريخ بعد أن نصب له كمينا في باحة كنيسة إذ اعتاد ذلك الخبير أن يضع فيها سيارته سيطر هو ومن معه من عصابة على الخبير وأعلمنا انه كان ينوى الذهاب به إلى لبنان ويسلمه إلى جماعات يمينية قد تبعث به إلى إسرائيل أو تكتفي بأسره واحتجازه كان بشار على حد زعمه معروفا من قبل الحواجز الأمنية في اللاذقية ولا يخشى أيا منها إذ كان مدعوما ولا أحد يمكن له أن يوقفه ولكن وبعد أن التقط النداءات اللاسلكية ومن خلال جهاز الخبير أدرك خطورة الأمر مما حدى به أن يضرب الخبير على فمه ويلقيه هو ومن معه أرضا ويلجئون إلى قلعة مهجورة إذ يعمد أحد منهم إلى المدينة ويحضر لهم حاجاتهم من طعام وشراب وبعد أن هدأ الجو ذهب بشار إلى جزيرة «ارواد» ومن خلال معارفه من البحارة ذهبوا به إلى قبرص أو اليونان لست متأكدا وبعدها وإرضاء للسوفييت وفى خلال تنسيق مع أهله عاد ليسلم نفسه إلى السلطات السورية وكأن شيئا لم يحصل ولو أن أحدا مهم أعلى شأن منه وقام بمثل فعلته لعُلّق شنقاً خلال أيام!! يوضع بشار في سجن تدمر العسكري مكرما ومعززا وصاحب سلطة وجاه ودلال وخدم وحشم ولم يكن وجوده في تدمر إلا إيهاماً للسوفييت بأنه معاقب وبعيدا عن المراقبة أي عن أعين السوفييت، بشار هذا وقد علم من المسئولين في السجن أننا نملك مقدارا من النقود بادر ليطمئنا أنه مادام

في السجن فنحن سنكون في حماه وأن أحدا لن ينالنا بأذى وعمد متطوعا ليشترى لنا بيجامة لي و غيارات داخلية لزميلي وافقنا دون قيد ولا شرط وفعلا أحضر لنا حوائجنا في اليوم التالي وعلى رؤوس الأشهاد ولكنه أخذ الثمن أضعاف الثمن الفعلي كان أول الغيث قطرة واستمر صديقي على إحضار الطعام لنا ولكنه كان تحت حماية بشار وأن قدمي قد التهبتا وأخذ القيح والصديد يخرج منهما ولا نملك دواء ولا علاجا سوى ما كنا نضع عليها عجيناً انستحضره من الخبز الذي يقدمونه لنا تتوالى الأحداث ونشعر ذات يوم أن الباحة كادت أن تنقلب رأسا على عقب إذ دخلت أعداد غفيرة من الشرطة والشبيحة على رأسهم بشار إسماعيل كانت محطتهم أمام زنزانتنا رقم ٢ وبدأ الشبيحة بفتح الأقفال وصدرت الأوامر كالمعتاد وكنا نحن الأقرب من مكان تواجدهم وإن الويل لمن يتأخر ولو قليلا عن الخروج بسرعة إلى حيث هم متواجدون التقطنا بشار ونحن مهطعي رؤوسنا وأعيننا مغلقة قدمنا الواحد تلو الآخر إلى شبيح يضع على وجوهنا الصابون وآخر يلتقطنا بموس حلاقة يجعل من وجوهنا خرائط وأخاديد نازفة دون أن نحس بذلك الأذى لشدة الذعر والخوف.

أخذنا بشار وعاد بنا سريعاً إلى زنزانتنا وأقفل الأقفال بأمر منه ولكننا كنا نسمع البكاء والعويل من خلف الباب ويتهمون البعض أين تريد الفرار زورا وبهتاناً، يرمونه أرضا وتنهال عليه السياط من كل حدب وصوب والصراخ يعلو الفضاء والركل والرفس أمور لابد منها في تلك المعمعة.

يطول بنا الانتظار وكأن عقارب الساعة لا تدور وبعد هلع وخوف ينتهي الأمر ونحن سعداء لأننا نجونا من العذاب الذي كان يصل إلى مسامعنا وعلى الرغم من ألمنا لما حل بأولئك المستضعفين من أمثالنا وحيث ألا نقدر على نجدتهم أو عونهم بشيء.

أما حفلات الغداء والعشاء فهي مهرجانات كرنفالية بأشكال وألوان غير معتادة أو معهودة إلا ضمن أسوار سجن تدمر العسكري، حفلات أساسها البلاء والعذاب والاستخفاف بمن كل هو قيم في الأرض أو في السماء ولا عجب لأن فاقد الشيء

لا يعطيه وكما أن العصابة الأسدية عقدها الاجتماعي أو منطلقاتها الفكرية تقوم على البطش والاستبداد والاستحواذ على كل مقدرات الشعب دون وازع أو رادع أو قانون. وفى المساء يأتي الشبيح بشار إسماعيل ليجمع من الزنازين أجرة الحلاقة المقررة نصف ليرة سورية والويل كل الويل لمن لا يملك القدرة على الدفع لأنه سيواجه عقابا في الصباح لا عهد له به من قبل. يأتينا وكان من يكلمه هو زميلي لأنني كنت مصاباً ولا أقوى على الوقوف إلا إكراها كما هو الحال في الحلاقة إذ لا مفر ولا مناص من ذلك يسأله كم تأمر ثمن الحلاقة؟ يقول بشار هات ما عندك فيعطيه زميلي خمسة وعشرين ليرة سوريه ينبسط كثيرا ويبدأ بالحديث معنا متباهياً بما قدمه لنا من حماية ورعاية لأنه هو المندوب السامي في الباحة هو الآمر هو الناهي وأن الشرطة وضباط الصف جميعهم تحت إمرة الشبيح بشار إسماعيل. يأتي المساء وبحضور بشار نشعر أننا وقد خلعنا عن أنفسنا رداء الرعب والمصائب والأهوال ولكن في الصباح الباكر كنا نسمع أنغام العصافير الموجودة على أغصان الأشجار الباسقة والكثيفة وعندها نصحوا ويحضرنا الألم والخوف من المجهول وما يحمله لنا من عذاب وهلع، نصلى فرائضنا نرتجف خوفا من أن نفاجأ بأحد يرانا ونحن نصلى هذه جرائم لا تغتفر إذ أن العذاب يقصد منه أولاً مسخ آدمية الإنسان بحيث لن يعد يشعر الإنسان بإنسانيته إذا أصبحت أموراً مباحة لسلطة غاشمة لا يردعها رادع أو وازع ويقصد منها أيضا هو إفراغ الإنسان من قيمَه إذ لم يعد يفكر أو يحس إلاّ كيف ينجو من العذاب إذ أن في ظل الخوف يتجمد العقل عن العمل ويصبح الإنسان يتحرك من خلال فطرة وغريزة حب البقاء كأي كائن حي لا يحمل عقلاً أو فكراً ولكنه يستشعر الخطر فيهرب منه ولكن نحن لا نملك حرية درء الخطر أو اللواذ عنه وفى الصباح وكالمعتاد يذهب صديقي ويحضر لنا الإفطار وبعدها نعيش أنغام البكاء والعويل وأنغام الاستغاثة والرجاء والتوسل لا مجيب ولا نعنى سوى الله سبحانه وتعالى ونعيش الذعر الخوف لأننا لسنا بمأمن من أن ينالنا ما نسمعه ونبصره من مصائب وأهوال ينتهي المشهد وننتظر مشهداً آخر ومع الأيام يأتينا بشار ويفتح شراقةالزنزانة ونسأله متى نخرج من هنا ونذهب إلى الغرف المقابلة لنا وحيث

أفرادها يتمتعون بحرية الذهاب لإحضار الطعام دون خوف أو وجل وكما وأنهم يربون شعرهم ولديهم أدوات للطبخ ونشتم رائحة الطهي ورائحة القهوة يجيبنا بشار لا أعلم ولكن يقول لنا إن هذا المكان هو أفضل مكان في السجن وأن الباحات الأخرى هي بؤر من العذاب الدائم والمستمر يسألنا بشار كم لديكم من النقود أجبته معنا خمسة آلاف لأننا لا نقوى على الإنكار لأن المساعد وضباط الصف هم الذين فتشونا وأخذوا المبلغ منى ثم أعادوه لي وأن بشاراً يتحرك بتنسيق مع المساعد وبالتالي بغطاء من مدير السجن لأنهم جميعا شركاء في الغنائم والاستعباد يعلم أن لدينا ثمانية آلاف ولكن جزء من المبلغ قدمته لزملائي في الزنزانة في الطرف الآخر أثناء توجهنا إلى تدمر. طلب بشار أن نعطيه ألفي ليرة قلت له نحن مقطوعون في هذا المكان وعلينا أن ننفق على أنفسنا وزملائنا الآخرين. أجاب لن تنقطعوا وأنا موجود. حاولنا معه ولكنه أصر وترك لنا الخيار قائلا إن أحدكم قد يفقد عينه أو كليته فكروا جيدا قلت لصديقي أرجو أن لا تظن بالرغم من قسوة الأمور أن حسن ينحني أمام العاصفة ولا يقدم شيئا لأحد حتى لو كان الثمن الموت، كان صديقي واقعياً فرجاني وقال: دخيلك والله يذبحونا الله يعوض علينا، أعلمني أن الواقعية هي أن نفتدى أنفسنا بهذا المبلغ الذي لا يغنى ولا يسمن من جوع لو كانت الأمور طبيعية ولكن أهميته لندرته وحاجتنا له مع الأيام لضرورة حاجتنا للباس والدواء. يذهب ويأتينا الشبيح بشار إسماعيل في اليوم التالي ويقدم له صديقي المبلغ وحيث أن بشاراً يمثل كابوسا حتى للذين في الغرف والجميع مع أولئك الذين يقاسون منه ومن العصابة الأسدية مختلف صنوف الإرهاب فإنهم يتربصون به الدوائر ويبقى الأمر على سريته بيننا وبينه دون علمنا أن أحداً قد علم بذلك، وتمر الأيام وبعد فترة يبادر أحد الرقباء ويسأل صديقي وين اللي معك؟ فيقول له مصاب فصفعه وقال له من أصابه؟ قال في الاستقبال ! رموه أرضا وأصابوه بعذاب ساحق وماحق وجاءني نازفاً ومهتكاً ومعه الرقيب وأمرني أن أخرج أنا لإحضار الطعام وبالعودة إلى ما أصاب صديقي إذ أنه لا يسمح لأحد أن يقول أنه ضرب أو حتى لو مات عليه أن يقول أن مَوت فلان كان قدريا.

وأن أي إصابة هي نتيجة وقوعه في الحمام بزعمهم انه لا يوجد ضرب أو إرهاب في السجن. وفي اليوم التالي تقاسيت على نفسي وأرجعت أمري إلى الله ليعينني على الركض والصبر على الألم وإحضار الطعام. خرجت والألم يكاديفري مهجتي ووضعت علامة على باب المهجع حتى لا أضل السبيل إليه وضعنا خيط على الباب من الداخل وعلّقْنا على الخيط منشفة لأهتدى على باب مهجعنا لوجود عدة مهاجع مفتوحة في آن واحد ولا يوجد ما يميزها وكذلك كان يفعل صديقي وأن من يتردد في معرفة مهجعه يصيبه عقابٌ لا شفقة فيه ولا هوادة.

كان الشبيحة الذين يقومون على توزيع الطعام وخاصة الإيدام والشاي كثيراً ما يعمدون إلى ملأ آنية الزبدية والطاسة بشكل كبير حتى ينهمر منا ما بداخلها على أرض الباحة وهذا سبب كاف لمعاقبة أي سجين يحصل معه ذلك إلا أن بشار كان يقول لذلك للشبيح المسؤول عن الطعام لا تملأ له الزبدية وكان بشار يمشى بجانبي ويقول لي على مهلك لا تخف طبعا لأنه أصبح مكشوفا أمامنا ويخشى من أي وشاية حتى ولو كان يجد التغاضي من المساعد وإدارة السجن لأن كل شرطي أو رقيب أو حتى أي شبيح هو محسوب على جهة أمنية تراقب كل ما يحدث داخل السجن لأن أي تعاطف مع أي سجين يعتبرونه إخلالاً بأمن السجن وأن تدمر بالعرف القضائي والأمني تعنى الأشغال الشاقة التي ليس لها سقف أو حدود أو لون وأن كل الأمور التي تحصل داخل السجن هو أوامر مركزية ومدير السجن ومساعد الانضباط هم الذين يشرفون على تنفيذ أساليب التعذيب والإرهاب.

هذا الإرهاب كان كابوسا يجثم على الصدور ويقبض الأنفاس ولولا ذلك الإرهاب لما قبلت النفوس أو تحملت شدة وقسوة المعاناة - معاناة في كل شيء - الأسر والخوف والجوع والبرد والمرض والمصير، السجن كان يعنى ضياع الذات وانعدام الرؤية في مستقبل مجهول وواقع مر ومرير.

تستمر المعاناة في أشكالها وألوانها ليلاً ونهاراً كما كانت البداية وبعد خمسة وخمسين

يوما بالضبط والتمام ننتقل إلى مهجع جماعي وأبناء دعوتي، فنشعر بالأُلفة وتحسن الظروف ولكن بعد أيام قليلة ننتقل إلى غرفه رقم ١ في الباحة الخامسة وهى غرف مواجهة للزنازين ومما يجد ذكره أن الباحة الخامسة هي من موروث فرنسا إبان احتلالها لسوريا ويقال إن الغرف كانت إسطبلات للخيل ولست متأكدا من هذه المقولة وفى هذه الأثناء نجتمع بعدد من الشبان الصغار نسبيا من اللاذقية وهم متهمون بشغب أثناء أحداث اللاذقية عام ١٩٨٢ ومنهم حسن بشير ونديم وعبد الرزاق. وشخص آخر أذكره من الدير يدعى «تيسير حياوى» وهذا الشخص أعدم أخيرا في لبنان لاتهامه بجريمة قتل في لبنان أثناء تواجده كما يزعم في منطقه فتح وآخران في حماه – كان عددنا مقبولا لأن الغرفة أيضا كانت صغيرة ومن الظلم ونكد الحياة هناك أي في تدمر أن أحد زملائنا (نديم) قد ذهب في الصباح ليحضر لنا وجبة الإفطار وعمد نديم ليأخذ حصتنا من البيض على ما أذكر وسرعان ما نسبوا له سرقه البيض وفى كل وجبة كانوا ينادونه ويدعونه أنه سارق البيض، هو لم يكن سارقاً هو مجرد أن مد يده ليأخذ حصتنا ولم يأخذها. هذا اتهام يراد منه إذلال النفوس والتشهير بها وعذابها. ومما يجدر ذكره أن بشاراً قد حصل معه مشكلة مع مساعد الانضباط إذ أوشى وافترى عليه وكان من نتيجة ذلك أن مساعد الانضباط ويدعى محمد نعمة سلموني من سلمية قد تم نقله وأن بشاراً أيضا تم عزله عن مراقبة الباحة ولو شكلياً لأن قنواته باقية مع كل أفراد ضباط الصف وكذلك الشرطة العسكرية في السجن، وأن بشار كان بمقدوره أن يمنع أي ضابط صف وشرطي من دخول الباحة بل معاقبته لأنه كان يوقع الكثيرين من أفراد الشرطة في مخالفات انضباطية ومن ثم يستخدمها كألغام موقوتة فيفجرها بهم ويوقع بهم نتيجة وضعه وصلته بمدير السجن العميد «غازي الجهنى» والذي توفى و أفراد أسرته بحادث سيارة ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[إبراهيم: ٤٢].

وبالعودة إلى وجودنا في الغرفة قد تسرب خبر أن بشاراً قد أخذ منا مبلغ ألفي ليرة سورية وأن بشاراً وخصومه قد علِموا بذلك علم بشار بذلك وغضب بشار وأخذ

يحيك لنا المكايد والمصائب لأن بقاءنا في الغرفة لم يدم طويلا إذ أخلوا الغرفة وعادوا بنا إلى الزنازين فأصبحنا فريسة لبشار الذي كان يأمر الشبيحة الذين حلوا مكانه لينالوا منا ويذيقونا أشد العذاب وخاصة أنا، وكان الشبيحة في كل يوم وأثناء إحضاري للطعام يمارسون كيدهم ومكرهم ضدي ولا يوجد من يستمع لنا أو يسألنا عن جرم أو ذنب قد اقترفناه. أمضينا فترة طويلة وقاسية من العذاب في الزنازين لأن غرفتنا قد حل بها جماعة من الشيوعيين وهذا يدل على التفضيل في المعاملة حتى في السجن وبعد الشيوعيين عادوا بأشخاص أردنيين كانوا يمثلون معارضة كما يزعمون ولهم علاقات بمنظمات فدائية ولا أعرف أكثر من ذلك لأنه لم يتسنى لنا رؤيتهم أو التعرف أو الحديث معهم، وبعد أن حصل مكان شاغر في الغرف كان من الطبيعي أن يعيدونا إلى الغرف ولكن بشار استخدم نفوذه ليعيدنا إلى الغرفة التي هو يوجد فيها بعد أن أقنع إدارة السجن بذلك لأنه لا يستطيع العيش مع فئة أخرى من المساجين يوجد بينهم ترابط وذوي قوة وقادرين على أن يخلقوا له المتاعب والمشاكل، نحن نمثل قضايا مختلفة ووجودنا في السجن حديث وقد أصابنا الذعر والخوف وأن بشاراً يمسك بيده مفاتيح إدارة السجن والشبيحة لأنه من فصيلتهم وأبناء جلدتهم لذا سيجد منّا لقمة سائغة ولا أحد منا قادر على أن يعكر صفوه أو يخالف أمره كما كان يظن.



المحطة: غرفة الشبيح بشار إسماعيل في الباحة الخامسة سجن تدمر العسكري:

كان الشبيح بشار يعيش مع سجناء فصيل شيوعي المنظمة الشيوعية العربية - وكان بشار في صدام معهم وكانت نزعاته السلطوية والقهرية والاستبدادية واللا أخلاقية تصطدم بوقوفهم جميعا صفًّا واحد في وجهه وتطلعاته المذكورة أعلاه.

لذا وجد ضالته أن يبعدهم إلى الغرفة رقم (٢) والتي كان من المفترض أن ننتقل إليها وبذلك يتخلص من جار غير ذي ود وصعب المراس ليستبدلهم بأشخاص لا يوجد بينهم رابط فكرى أو تنظيمي كما هو شأن الشيوعيين، وقبل أن أشرح معاناتنا بجوار ذلك الشبِّيح الأشر لابد أن أذكر ما قضية هؤلاء الشيوعيين، المنظمة الشيوعية العربية وهكذا تسمى هي ذات طابع قومى وهذا ما يميزها عن الشيوعية الأممية. وهذا الفصيل قد قام بأعمال عدائية في سوريا ومنها تفجير المركز الثقافي الأمريكي في حي المهاجرين بدمشق إلى جانب تفجيرات أخرى، وأن سِجنهم كان لاعتبارات سياسية تقرباً وتزلفاً لأمريكا - أي أن نظام حافظ الأسد يقاوم الإرهاب!! وهذه هي سياسة ذر الرماد في العيون فكيان حافظ الأسد جعل من سوريا وكراً للإرهاب العالمي ويتخذ من ذلك أوراقاً يلعب بها متى شاء وكيف يشاء ويحقق من خلالها مصالحه ويبنى عليها علاقاته الدولية كحصن تقدمي نضالي كما يسوق نفسه وهذا التوجه الذي اتخذ منه منطلقه في محاربة نظام صدام حسين في العراق إذ كان يُشار إلى تنظيم البعث العراقي على أنه تنظيم يميني ويحاسب أفراده في السجون السورية على هذا الأساس. وبالعودة إلى مصابنا مع الشبيح بشار إسماعيل إذ قام بتوزيعنا على أربع حجر في الغرفة وكان ذلك التوزيع وفقا لأهوائه ورغباته، كان مكاني في آخر حجرة مع شخصين أحدهما من إدلب وهو جمركي متهم بتهريب شخص مطلوب إلى السلطات السورية إذ سهل هروبه إلى المملكة الأردنية الهاشمية والآخر من حماة بتهمة المتاجرة بالسلاح. وحيث انتقل إلى يد تنظيم الإخوان المسلمين في مرحلة لاحقة، عمد الشبيح بشار أن شكل ورشة عمل في الحرز

لصالحه ولصالح مساعد الانضباط نزيه والذي جاء على أعتاب المساعد السابق محمد نعمة الكل يعمل في الخرز دون أجر أو كسب سوى مكاسب بسيطة وعدهم بها شراء دخان لمن يدخن إلا أنه لم يحقق لهم شيئاً من ذلك.

أما أنا أبديت له أنى لا أستطيع العمل لأن نظري ضعيف وكما أن إصبع يدي مكسور هو كذلك ولا يساعد على العمل، أصبحت في مواجهة مذلة إذ أن بشار كان سيداً برجوازيًّا أو إقطاعيًّا شموليًّا الكل يعمل في خدمته بالخرز أو من يمسك له بالمنشفة في انتظار خروجه من الحمام أو من يصنع له الشاي أو من يحضر له الطعام أو من ينظف له غرفته - كل ذلك يحصل نتيجة نفوذه المطلق من قبل السلطة أما أنا فكنت أرى أن المواجهة معه لا محالة لأن وضعي لا يطيب له ولا يرتضيه إذ يعتبره أنفة ورفعة. وفعلا وبعد حين حضر إلى غرفتي وطلب لمن حولي أن يخرجوا من الغرفة ليكلمني على انفراد - وكان قد وضع قدمه على حافة المسطبة التي كنا نام علها وخاطبني اسمع (أنا لا يوجد عندي أحد يقدر أن يكبر رأسه معلوم؟ تدفع تسلم ما تدفع تعرف شو يصير عليك أنا بشار إسماعيل) أصبحت في مواجهه أمرين أحلاهما مُر إما الرضوخ للاستعباد والانقياد لنكرة من نكرات المجتمع أو الرفض وعلى الباغي فلتدور الدوائر، أجبته إذا كنت أنت بشار إسماعيل فأنا حسن الطحان.

أنت تسلب الناس حقوقهم بسلطة وسلاح السلطة أما أنا فو الله من قوم كانوا ولا فخر هم المانعون وهم المانحون يعطون ويمنعون ولكن أنا لا أملك الآن إرادة المنع أو المنح لا بل أملك إرادة تفرض على أن أرفض ذلك أي طلب، أنا لست سجيناً عندك - جُن جُنونه إذ لا يوجد عند حد ظنه من هو قادر أن يرفض له أمرا. أخذ يصيح بأعلى صوته - منادياً الحرس الموجود على سطح الباحة أتاه الحرس قائلا شو فيه أجابه ابعث لي المساعد جاء المساعد واختلى به ثم دعاني المساعد إلى خارج الغرفة وسألني حدثته بكل ما حصل سابقاً ولاحقاً وأعلمته أنني أملك مبلغاً متواضعاً وأنا على استعداد أن أتخلى عنه للحكومة ولا أدفعه إلى بشار إسماعيل عنوةً وإكراهاً. طلب منى أن آخذ أغراضى وأتبعه

للزنزانة وقال لي انتظر هنا حتى نشوف شو نعمل، أغلقوا عليّ الباب وجاءني شبيح آخر مسئول في الباحة ويدعى منذر – قال لي يقول لك بشار ادفع له ألفين ليرة سورية قرضه، أجبته لست معنياً لبشار ولا بطلبه – وبعد فترة شعرت أن رقيباً في الشرطة العسكرية ومعه عدد من الجنود وعدد من الشبيحة وأخرجوني إلى خارج الزنزانة وقد وضعوني في الدولاب (كفر) وانهالوا على ضرباً بالسياط والقوابى في الزنزانة وأذكر أن ذلك كان في زمهرير الشتاء القارس – نمت والأحزان تملأ صدري قهراً وهواناً وأندب حظي كما أندب القيم والمبادئ والشيم التي أضحت عناوين للمحال التجارية ولا تُذكر إلا في أسواق المصالح الشخصية أو بحضور النزوات الذاتية، ويصبح الصباح وتشرق معه ألوان العذاب والهوان، يفتح باب الباحة وتفتح أقفال الزنازين ونطلب كالعادة لإحضار الإفطار أركض وأقدامي دامية وتلامس صقيع الأرض مما سبب لها التهاباً مؤلماً يزداد سوءاً كلما دست الأرض أو لامست الصقيع ويتكرر خروجي في كل وقت لإحضار الغداء وإحضار العشاء كما يتكرر الألم معها ويزداد سوءا وإيلاما. وأعيش تلك المآسى القسرية من قبل أنذال البشر وأرخص من أنجبت البشرية ولا أملك حيلة ولا قوة إلا الانتحار مما يورثنا النار وغضب الواحد القهار، صبراً يا بلال صبراً يا آل ياسر صبراً أيها الأحرار الذين تسامون سوء العذاب بسياط طغمة فاسدة آل إليها كيان مصطنع وسلطة غاشمة وأمة نامت أو تعامت عمّا أنتم فيه وعما يفعل الظالمون.

لم تكن حالي من في الزنزانات أحسن حالاً مما أنا فيه لا بل الكل يأتيه نصيبه من عذاب لا ينتهي ولم ولن يشفى غليل طغمة حاقدة استمرأت عذاب الأحرار وكبت أنفاسهم وقطع جذورهم ظنًّا ودهماً – لأن الدم لا يولِّد إلا الدم وكما يقال أيضا من أطاعك لعصاك فقد عصاك ولا أغفل قول الكاتب الأمريكي الشهير أرنست هنجواى (إنك تستطيع أن تسحق الإنسان ولكن لا تستطيع أن تدحره) هذه أقوال مأثورة وحكم لم تستشفها عصابات الأسد أو تمثلها لضيق أفقها وسذاجة فكرها، مأساتي لم تنتهِ في زنزانتي وتمر الأيام وتفتح شرّاقة زنزانتي ويتهمني شبيح موكل إليه مراقبة الباحة أنني

أصلى عندما وجدني ملتحفاً ببطانية قال لي أنت تصلى أجبته لا أنا جالس وهذه البطانية التحفها من شدة البرد إلاّ أنه أصر على اتهامه وتوعدني بعقاب قاسٍ وعلمت أن ذلك لم يكن بعيداً عن إيحاءات الشبيح بشار إسماعيل وأوامره التي لم يسلم منها معتبراً نفسه انه هو أصل الأمن والانضباط لأنه من آل إسماعيل ومن القرداحة. لم يمض وقت طويل حتى فتح باب زنزانتي ورموني أرضا ووضعوني في الدولاب وانهالت على السياط من أكثر من شخص لم ينفع معها أيه حيلة أو رجاء أو استغاثة.

غبت عن الوجود وسكبوا فوق رأسي وجسمي الماء في زمهرير الشتاء فأصحو بعدها وأرى نفسي في الزنزانة وحيداً لا أكاد أقوى على الحركة والحراك. تبقى الحسرات والآهات والصراخ والعويل هي سلاحي الوحيد بعد الصبر والاستعانة بالله سبحانه وتعالى، تسوء أحوالي كثيراً ولم أعد أقوى على الخروج وإحضار الطعام إذ بادروا بإحضار الطعام لي ليقينهم أنني لن أقدر على الحركة وأي عقاب آخر سينتهي بى إلى الموت وهذا ما لم يرغبوا في حدوثه لي ولا لغيري لأن كل سجين يعتبرونه رهينة وسيفاً مسلطاً على أهله وذويه حتى لا يأتي منهم أي حراك أو معارضته لا بل لإكراههم العيش في دائرة الأمل والرجاء في بقائنا أحياء ويتحقق الاستسلام المطلق لسلطة الأسد وزبانيته لشعب عاشَ الأسى والذل والهوان كما عاشه أبناؤه وذووه.

ومع الأيام يزداد إصرارهم على وإكراهي على إحضار وجبات الطعام الرديء والذي لا تأكله الدواب والدواجن ولكن بضرورة حكمها وأمرها وغايتها نحضرها ونقتات منها. كان الجو باردا وماطرا وكل ذلك يؤذى جراحي التي التهبت بشدة وأصاب ذراعي ورم شديد وقيح وصديد وأنا لا أملك سوى استخلاص العجين من الخبز وأجعل منه ضمادة لجراحي وألفها وأعصبها بفانلتي الداخلية – الألم يزداد ولم أعد أحتمله أبداً وأصرخ ليلاً دون شعور من خوف أو عقاب أصرخ وتنطلق من حنجرتي آهات واستغاثة أرجوها من الله سبحانه وتعالى.

يسمع صراخي من قبل شخص من الشرطة العسكرية في أعلى السقف ويناديني ما

بك ولك؟ أجبته ألم شديد لم أعد أحتمله زجرنى وشتمني وأمرني أن لا يسمع صوتي أبداً ولكن وفى الحال ودون أن أشعر بصوت فتح باب الباحة إذ شرا قةزنزانتي تفتح ويأتيني ضوء مصباح يدوى وأسمع رقيباً من الشرطة العسكرية يسألني بصوت خافت شو يوجعك؟ - قلت له يا حضرة الرقيب شوف رجلي فعلاً رأى كتل لحمية وليس أقدام قال لي نم ودعني أشوف ماذا يمكن أن أفعله لك وفي الصباح الباكر حضر إلى زنزانتي مساعد الانضباط وطبيب السجن ومعه أعداد من الرقباء والشرطة وأمروا الشبيحة أن يحملوني إلى غرفتي حيث يوجد أصدقائي حيث يوجد بشار اللعين ويوكل إليه علاجي بأمر من إدارة السجن وبعد إحضار أدويه على حسابي الخاص إبر وشاش وسبرتو ومراهم وحبوب مسكنة.

المحطة : العودة إلى الغرفة رقم (٣) في الباحة الخامسة:

كانت عودتي إلى غرفتي حيث يوجد أصدقائي كانت بمثابة عودة الروح إلى الجسد بعد غياب طال لأشهر في خضم من الجراح والألم ووحشة الوحدة وغصة الحياة وهمجية الأعداء ولكن كان يؤلمني أن أرى الشبيح بشار اللعين العدو اللدود لكل سجين ترميه الأقدار في باحة الزنازين والأهوال، يلتف حولي أصدقائي الذين هم أهلي في ذلك المكان وقد أزرى بهم وبى الزمان في حومة الشبيحة والأشرار - يحضروا الدواء ويتم غسل أقدامى بالماء الساخن ومن ثم تعقم بمادة السبيرتو إذ جن جنون وبشار يزيل طبقة من اللحم الميت والقيح والصديد، أشعر بالألم يضرب أعماق رأسي وقدماي ترتجفان وكأن تيارا كهربائيا يسرى بهما. معاناة تطول لأكثر من ساعات من ألم متواصل ويخف الألم بعد ذلك تدريجياً ولكن للعذاب أشكال وألوان وليس لوناً واحداً إذ اضطر للخروج لقضاء حاجتي يحملني أصدقائي ويقعدوني حيث المكان لقضاء الحاجة.

ولكن ألمي يزداد إذ لا أستطيع أن أجلس وقدماي عليهما الضغط من جسمي فأحاول الجلوس متكأ وبمرارة تمر الحالة وتبقى قدماي ترتجفان لشدة الألم الذي أصابهما نتيجة الحركة والجلوس أثناء الذهاب لقضاء الحاجة ويعودون بى إلى مكان نومي وهم يحيطون بى يتحسسون آلامي وأوجاعي ويتكلمون معي بهمس خشية أن يسمعهم الشبيح بشار وهم يخشون نميمته ووشايته للشرطة والذين ينتظرون أوامره ليفرغوا سمومهم في أجساد أصبحت فرائس رخيصة في قبضتهم، يستمر الألم ولكن شعرت بالطمأنينة وراحة البال في وجود من يعينني في قضاء حاجتي من نوم وطعام وشراب والمعونة في كل ما أحتاجه من مساعدة ويأتي الشبيح بشار في الأوقات المناسبة لإجراء المعالجة المطلوبة وفى كل مرة أعانيه من ألم نتيجة الغيار وتنظيف الجرح وتعقيمه، أصدقائي يعملون في ورشة عمل لصالح بشار وزبانيته في إدارة السجن دون أن يحصلوا على شيء مادي يعنيهم على قضاء الضروري من حوائجهم لا أحد يقوى على مطالبة بشار أو إغضابه.

وتمر الأيام ويحصل صدام بين بشار وشبيح آخر من الطائفة النصيرية ويدعى «سيف محمد حسن شاهين» من منطقة وادي العيون، هذا الشبيح مجرم وقد لجأ إلى الجبهة العربية وهى جبهة فدائية تمثل بعث العراق كما هي الصاعقة بالنسبة للبعث السوري تطلب إدارة السجن منهما بشار و سيف أن يتفقا فيما بينهما إلا أن الخلاف قد دب بينهما لأن سيف لا يقبل أن يهيمن بشار عليه ويجعله واحداً في ورشته بدون مقابل، يخرج كل منهما ويقدم شكوى ضد الآخر - تتدخل الإدارة لحل الخلاف بينهما ولكن ذلك كان يتم لفترة ثم تظهر الخلافات بينهما ويحاول كل منهما استمالة الآخرين إلى جانبه وبعد ذلك نقل بشار إلى مكان قريب من الإدارة ويعامل كرقيب من حيث السكن والأكل والخدمة ويبقى الشبيح سيف في غرفتنا.

المحطة: ولاية الشبيح «سيف» للباحة الخامسة:

يذهب بشار إسماعيل ويعطى غرفة مستقلة في باحة إدارة السجن أي الباحة الأولى ويتسلم مراقبة الباحة الشبيح «سيف محمد حسن شاهين» ويمارس سلطات تعسفية ضد الموقوفين في زنزانات الباحة ويشرف على تعذيبهم وأذكر أنه تم إحضار دفعة جديدة وأودعوا الزنزانات وأذكر أن أحدهم كما ذكر الشبيح «سيف» قد توفى من البرد وكان ذلك عميد في الجيش وقد منعوا إعطاءه غطاء طوال مدة طويلة، وأن الكثيرين قد ماتوا في الزنازين نتيجة التعذيب أو المرض وسوء التغذية والرعاية الصحية.

وأذكر عندما كنت أنا و ابن دعوتي في الزنزانة أن طبيب السجن يشكون له السعال وضيف التنفس فتلفت جانباً وعندما لم يجد أحدا بجانبه همس قائلا: «من العز» أي كان مستهزأ أي سوء الأوضاع الصحية وعندما أراد الشبيح سيف أن يمارس علينا سلطات تعسفية اتحد أفراد الفرقة وشكوه لمساعد الانضباط وأن مساعد الانضباط الشبيح نزيه قد واجه وشايات من قبل سيف وبشار وعلى أثر ذلك تم نقل بشار وبقى سيف في الباحة وعندما وجد المساعد نزيه معارضة من أفراد الغرفة لسيف أراد الانتقام من سيف لا لإقرار الحق أو الوقوف مع العدالة بل لأمور كيدية بينهم وتم عزل سيف. وتتوالى المشاكل وبسببها سيف وشبيح آخر عراقي يدعى «حسن محمد» من تليعفر وكان ذلك الشخص ذ اسمعة سيئة إذ كان يعتدي على الموقوفين في الزنازين وبعد ذلك تم تسفير المذكور وكما سمعنا أنه تم إخلاء سبيله ولكن تلك الأمور غير مؤكدة لعدم وجود طرف آخر يؤكدها نتخلص من سيف ويحضر إلينا أشخاص آخرون وتستمر حياتنا في خوف وهلع.

ويحضر إلينا سجين من حلب يدعى «فايز أحمد مسكينة» بعد أن تم إخراجه وزميل له آخر يدعو أبو عبده من «باب النيرب» بحلب ومما يجدر ذكره الرواية التي نقلها إلى فايز مسكينة وهو متهم بالتعامل مع نظام البعث في العراق خلال خدمته في أحد فروع المخابرات.

روى لي أن والدته هي قريبة إلى العماد حكمت الشهاب وذهبت في زيارة له في منزله مستغيثة ومحتمية بجاهه بغية مساعدتها في إطلاق سراح ولدها وحال وصولها إلى منزله ومقابلتها له عرضت عليه الأمر أجابها أنه مدعو إلى منزل حافظ الأسد وسيصطحبها معه وبالفعل أوفى بوعده وأخذها وفتحت الحديث مع حافظ الأسد راجية ومتوسلة فأجابها أن أمره موكول إلى «أبى حازم» فرحت بذلك ظنا منها أن أبا حازم سيطلق سراحه وعندما عادت إلى منزل أبى حازم وفاتحته بالأمر أجابها إن كان أمره موكول لي سأعلقه في حبل المشنقة وأسحبه من رجله لأن من يتآمر على الرفيق الرئيس هو تآمر عليَّ شخصيًّا على حد زعمه وأردت من ذلك لأُبين أن كل من عمل تحت إمرة حافظ الأسد أو بالقرب منه كلهم شركاء في مختلف الجرائم التي اقترفها حافظ الأسد حتى لو بدلوا جلودهم وتلونوا بألوان المصالح والغايات بعد أن لفظهم وأعرض عنهم حافظ الأسد وأن التاريخ عندما يتحرر وينطلق لسانه سيذكرهم بأفعالهم وأعمالهم التي لا تكسبهم شرفاً ولا ترفع لهم ذكراً حسنا.

وممن أذكر شباب من حماة أذكر منهم «هاشم أحمد المصري» «وهيثم حداد» وهو صديق لي وأخ رعاني حق رعاية وخدمني عندما مرضت واشتدّ علي المرض وآخر يدعى فاروق الحمصى ومنهم آخر يدعى «فايز النمل» وهؤلاء قد اتهموا باغتيال الدكتور محمد الفاضل أستاذ القانون بجامعة دمشق وهو من الطائفة النصيرية وألقى القبض عليهم وتعرضوا إلى أبشع أنواع العذاب واعترفوا بأنهم قتلوا الدكتور الفاضل وتم انتزاع اعترافات متشابهة منهم جميعا بالإكراه والقسوة حتى أن اثنين منهم أحدهما ابن أخت السياسي السورى المعروف أكرم الحورانى وأعتقد أنه يدعى رائد الحورانى والآخر من عائلة التركاوى من حماه وقد تم إعدامهما بالرغم من أحدهما كان حدثاً ولم يشفع له صغر سنه من عقوبة الإعدام الجائروأن أياً من المذكورين لم أشاهده أو أتعرف عليه إذ أعدموا في المزة وقبل أن أُعتقل.

وأن أحدهم هو «هيثم حداد» رحمه الله قد أُعدم بعد خمسة عشر عاماً من اعتقاله!!

ومنهم من جُن ومنهم من فقد عقله ومنهم من فقد عينه في مهاجع في باحات أخرى ولم أتعرف على أي منهم وأردت من ذلك أن أُبين كيد الظالمين وإزهاقهم لأرواح الأبرياء دون أن يمنعهم قانون أو عُرف أو أخلاق. وأن هذا البلاء الذي ابتلى به الشعب السوري وحتى العرب لم يكن وليدة الساعة الحاضرة والتي نشاهد فصولها في كل ساعة ولحظة من قتل وتدمير لا بل هو بلاء عانت منه البلاد السورية ردحاً من الزمن وعندما قام الشعب يطالب بحريته وحقوقه المسلوبة ها هو بشار يستخدم معهم أعتى أسلحة البطش والدمار يقتل الأطفال والنساء والشيوخ والشباب لا بل يدمر مساكنهم وينهب محالهم ومتاجرهم ويرميهم بعبوات التفجير والدمار. رماه الله ومن معه ومن والاه بسهام من عنده انتصاراً للحق وعبرة لكل طاغية متجبر.



المحطة : الذهاب إلى مهاجع السل في الباحة السادسة في سجن تدمر العسكري:

لكل واقع سلبي أثر سلبي أيضا ونتيجة لبقائي فترات طويلة نسبياً في الزنازين ولسوء الأحوال والظروف المعيشية وسوء التهوية والتغذية والاضطرابات النفسية أصبت بمرض ظللت أعانى منه طويلا وكان يتمثل في سعال مستمر يضيق منه صدري ونفسي وجوانبي وكل أطرافي وأصاب على إثر ذلك بإعياء وأوجاع مختلفة. وكلما شكوت الأمر لطبيب السجن كتب لي وصفة دواء سعلة أنفقت عليه كل ما أملك ثمن أدوية سعال دون فائدة. وشكوت الأمر لمساعد الانضباط إذ أن الوضع في الغرف في الباحة الخامسة ليسمح بتربية الشعر ومخاطبة المساعد وأي رقيب بحرية ما لاعتبار الباحة باحة سياسية إذ لا يوجد قضايا تعود لتنظيمات مسلحة مناوئه للسلطة الأسدية وهذا تصنيفهم الخاص بهم استجاب المساعد لطلبي وأحضر طبيباً عسكريا من خارج السجن لمعاينتي وقرّر طبيب السجن أنني لست مصابا بالسل واستمر على نفس الدواء وحيث لم يتغير معي شيء كلمت المساعد ثانية وأحضر لي الطبيب – طبيب عسكري – من خارج السجن وفحصني أيضا أَقر أنني غير مصاب بداء السل، وحيث اشتد بي السعال أُخذْت مباشرةً إلى مهاجع السل وفحصني دكتور من المساجين وهو مسئول عن مهاجع السل ويدعى زاهي عبادي من الدير وأقر الدكتور أن إصابتي واضحة وعندها أقر المساعد أن أبقى في مهاجع السل حتى يتم شفائي دخلت المهاجع فكان الأمر مبهراً لكلينا كان مبهراً لي عندما رأيت آثار الضرب على وجوه المساجين ورأيت ثيابهم رثة وحليقي الرأس والشارب وكنت غريباً عليهم عندما رأوا شعري وهيئة لباسي قالوا في أنفسهم.

من أين أتى هذا؟!! الكل ارتاب وخاف منى كما علمت منهم لاحقاً، وسألوني عن اسمي وانتشر الأمر بينهم وبعدها حضر إليّ شخص يدعى محمد جاسم الرزق وهو من الدير فتعرف عليَّ، إذ كان يخدم خدمته العسكرية مع ابن عم لي فبعث برسالة للجميع



حولي ومن أنا استقبلني رئيس المهجع وكان شابًّا جريئاً ومهذباً وهو من جبل الزاوية محافظة إدلب وخصص لي مكاناً للمنامة فوجئت أن المنامة كانت بحدود عشرين سم وكل اثنين على عازل أي فراش أرضي عبارة عن قطعة شمع من القماش. وكان كل واحد ينام بعكس رأس الآخر وكان نظام النوم على جانب واحد وممنوع الحركة في الليل وأن السقف توجد به فتحات يتم من خلالها مراقبة الناس ليلاً ونهاراً من قبل حرس من الشرطة العسكرية وأن أي شخص يتحرك يعاقب من قبل الحرس الرسمي ويتم إخباره أي إبلاغه بالعقاب من قبل الحرس الداخلي من المساجين في داخل المهجع.

وقام المسؤول الصحي طبيب من المساجين ولكن لا يدعى طبيباً من قِبَل الشرطة ولا من قِبلنا لعدم الاعتراف به أنه حكيم بل يقال له مسئول صحي. قام وفحصني وقدم لي علاجاً وفى الصباح قدم لي قارورة زجاجية وأخذ عينة من البول وفحصها بالنظر إليها وتبين له من لون البول الذي أخذ لون الدواء أن الكِلى في حالة جيدة – أذكر ذلك الإشارة إلى البدائية في التشخيص وفى العلاج لا بل أن العلاج عبارة عن أدوية قد انتهت صلاحيتها على أغلب الأحيان وأن من يحصل على الدواء بشكل مستمر هذا ذو حظ وحظوة بالرغم من انتهاء صلاحيتها – وصف لي العلاج الذي آخذه من المسئول الصحي أو من أحد مساعديه وأشربه أمامه كان الطبيب زاهي عبادي (المسئول الصحي) شاب نشيط ويعتبر عالماً في أمراض السل لمتابعتها ميدانيًّا وليلاً ونهاراً ومتطوع لهذا العمل بالرغم من أنه لم يكن مسلولاً كما أعلمني الآخرون كان يراقب كل شخص بشكل مستمر ويأكل مع جميع المرضى ليتأكد من شهية كل واحد لأن المصاب بالسل يفقد الشهية للأكل وكان ذا ثقة من قبل مساعد الانضباط لجدارته وحسن سلوكه إذ لا يقبل أن يطلب أي مطلب شخصي له من مساعد الانضباط وكان قد قدم للسجن خدمات ليس بمقدور كل الأطباء العسكريين من القيام بفاعلية كما كان يقوم بها الدكتور «زاهي عبادي»، ذات يوم علمت بقدوم المساعد وطلب من رئيس المهجع أن يأخذ لي إذناً منه لمقابلتي كنت أرى العيش في ذلك المكان أكثر مصيبة من مصيبة السل بحد ذاتها الكل

أصابة الفزع والخوف لأن أياً منهم لا يجرؤ على هذا الطلب لأنه غير مسموح له بالتكلم مع المساعد أو أي عنصر في الإدارة إلا إذا استدعى هو من قبلهم ولأنهم يجهلون وضع الباحة الخامسة وكانوا أيضاً يخافون من أي فرد يتكلم مع المساعد والرقيب أن يوشى بهم - قابلت المساعد وقلت له سيادة المساعد دعني أموت بالسل في الغرف أو الزنزانة أفضل من البقاء هنا، سألني لماذا؟ قلت له ظروف العيش الصعبة، المنامة عشرين سم والأكل كل ثلاثة حصتهم بيضة واحدة... الخ.

قال لي لا يوجد علاج للسل إلا في هذا المكان وطلب رئيس المهجع والمسئول الصحي وأمرهم أن يعطوني ضعفاً من الأكل والمنامة ووعدني بعد أن يتم شفائي سيعودون بى إلى الغرف حيث الحرية والأمان نسبيا.

بادر كل من رئيس المهجع والمسئول الصحي لتنفيذ أمر المساعد إلا أنني أصررت لن أقبل بأي شيء يميزني عن الآخرين وإن كان البعض قد قال لي هذا حقك.

إذ لم تأخذ حصة أحد بل أمر من إدارة السجن إلا أنني لم أستسغ الأمر لنفسي ولا لكرامتي وشعوري بشعور الآخرين ممن هم أكثر حاجة منى للطعام وكذلك لمسافة النوم، لا شك أن ذلك قد حاز على وافر التقدير من البعض واعتبروها إيثاراً. كذلك أمر المساعد أن أعفى من التنفس إذ أن التنفس كان مذلاً ومنهكاً كان يعنى الجلوس على الأرض وهى مبلولة بالماء وأن يجلس الإنسان وأصابعه في أذنيه ويمتد أحياناً لساعات في حر الشمس الملتهبة، طبعا الإعفاء من التنفس وأن أبقى مع المرضى لن يكون على حساب أحد لأنه من قبل المساعد وهذا حق طبيعي لي لأن ذلك لم يكن يفرض على في الغرف وأنا أتيت إلى هنا لا لعقوبة بل بقصد العلاج لذا قبلت هذا الأمر وكذلك أُعفيت من واجب الحراسة الليلية لمدة ساعتين حسب الدور وهذا أمر متعب جدًّا ومنه مسئولية كبيرة وأن هذا لم يكن مفروضا علينا في الغرف واعتبرت ذلك حقًّا طبيعيًّا وكذلك المسئول الصحي ورئيس المهجع.

أمضيت قرابة ثلاثة أشهر تحت عناية ومراقبة الدكتور زاهي العبادى ورئيس المهجع

وأَلِفت الحياة معهم بل آثرتها على الحياة في الغرف إذ بدأت في حفظ القرآن وكنت شديد الحرص والرغبة على هذا الإيثار الرباني إذا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً وجدت من يحفظني آل عمران والنساء وكان شابًّا صغيراً مهذباً وكان أيضا أسداً هصوراً ويدعى «سامر الشقفة» وعلمت أنه أُعدم في تدمر على يد تلك العصابة المجرمة وما ذكره لي رحمة الله عليه أن والده كان مدرساً ومربيا عمل فترة في المملكة العربية السعودية وعلى ما أعتقد في منطقة العلا وكان لوالده أيادٍ بيضاء بحق «إبراهيم العلى» قائد الجيش الشعبي في سوريا و آخر يدعى «عبد الغنى إبراهيم» على ما أعتقد ويرأس المجلس العسكري في القيادة القطرية وكلاهما من الطائفة النصيرية وكانا مطاردين في زمن الوحدة ولجأ إلى والد سامر الشقفة وأمَّنَ لهما الإقامة والحماية ألا إن ذلك لم يشفع له إذ تم إعدامه وعدد من إخوته على يد الوحدات الخاصة في حماه لا لجُرم سوى أنهم أخذوا بجريرة ابن أختهم من عائله جمباز الحموية الذي كان مصدر خوف ورعب للسلطة وقد وُجد مقتولاً إلاّ أن ذلك لم يشفى غليل السلطة إذ عمدت إلى قتل أخواله رمياً بالرصاص انتقاماً منهم دون ذنب أو جُرم اقترفوه!!

روى لي سامر رحمه الله أنه أصرَّ أن يأخذ بثأر أبيه وعمومته بالرغم من رجاء والدته له – قال كنت أعمل في الصيف مهنة الدهان لأجد المصروف لوالدتي وأخي الصغير وأخواتي ولا أقبل أية معونة من أخوالي، كان رحمه الله على درجة عالية من الخلق وحب التعلم والجرأة إذ كان ذا إقدام في خدمة المهجع في أعمال تتطلب إدخال الطعام أو تنظيف الباحة وهى أعمال الإقدام عليها بمثابة انتحار لأن لا أحد يضمن العودة بسلام بعدها – كان من يخرج لذلك قد يعود مهشماً محطماً دامياً إلا أنه وأمثاله الكثر كانوا يرجون من ذلك التقرب إلى الله سبحانه وتعالى هذه شهادتي أسأل عنها في موقف الله العظيم إذ أن سامر قد فارقنا بجسده ولكنه لا يزال حيا عندي بروحه وروح أمثاله عنواناً لمقالات إن قُدِّر لي سأكتبها بعنوان أريج الأرواح. قام سامر بالانضمام إلى حزب الطليعة الإسلامي أو جماعة الطليعة وقام معهم في عمليات أوقعت الكثيرين من أبناء

الطائفة النصيرية موتاً، إن سامر قد اُستدرج إلى هذا العمل الذي كنت متيقناً أنه ليس هو طبع أصيل في خلقه لأن سامر كان وديعا وهادئا ومحبا للعلم والتعلم كان على صغر سنه من حفظة القرآن الكريم، إن كيان حافظ الأسد وسلطته الاستبدادية والغاشمة هي التي أوجدت الطائفية لتضمن لنفسها البقاء في سدة الحكم وينتهي الأمر أن سامراً قد شارك في معارك حماه ضد قوات الأسد الغازية والباغية لمدينة حماه، أُصيب سامر بطلقة رشاش قد أبصرتُ أثرها إذ رأيت مكان دخولها في صدره وخروجها من ظهره بفتحة مرهبة ومرعبة نُقل سامر إلى ملجأ في بناية هو وجميع الجرحى من أبناء حماه الثائرة وتشاء الأقدار أن تقصف البناية ويبقون أحياء في الطابق السفلى أي الملجأ ويتم كشف مخبأهم من قبل السلطات السورية وقد بدءوا إعدام بعضهم رمياً بالرصاص وتشاء الأقدار أن يأتي من يعرض على ذلك القاتل قائلا له تبيعهم؟؟؟ أجابه بسيجارة؟

أجابه السائل لا بباكيته دخان!! طبعاً هذه رموز أي أن أوامر قد صدرت بإحضار من بقى منهم على قيد الحياة، ويروى لي سامر وأثناء وجوده في الباص الذي كان يقلهم إلى معتقل آخر أن قام الرقيب بإطلاق النار عليه من مسدسه في جانب سامر وقد خرجت من الجانب الآخر وهذا أيضا لاحظته وأبصرته بعيني ولم تشأ الأقدار أن يموت سامر في تلك المعمعة حتى حان موتهُ شنقاً على يد عصابة أسدية امتهنت الإجرام لحق الشعب السوري وبحق الكثيرين من العرب وخاصة لبنان ومخيم تل الزعتر وغيره .

ولا بد أن أذكر أن الشبيح «وليد أباظة» هو الذي كان قد اعتقل سامر الشقفة وأن وليد هو شركسي ومن الجولان وكان مسئول الأمن السياسي في مدينة حماه ومما ذكر لي سامر أن والدته قد دعت على وليد أباظة وأن وليد قد أصيب ولده الوحيد بطلقة ذهبت بعينه - وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.»

يـؤخـر فـي كتـاب فيدخر   ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وبالعودة إلى وجودي في مهجع السل عند الدكتور زاهي العبادى ورئيس مهجعه الأديب ويدعى سعد الدين مصطفى وهو من جبل الزاوية محافظة إدلب كان وجودي

هناك في ظل تلك الأجواء مشجعا لي وجدت حميمية من الدكتور زاهي ورئيس المهجع سعد الدين مصطفى وسامر وغيرهم. وإن كان الأمر يخلو من صوت هنا وصوت هناك لضيق النفس واليأس والحاجة إلا أن الدكتور زاهي ورئيس مهجعه كانا يسيران الأمور على أحسن ما يرام، ومما أريد أن أذكره عن جهود الدكتور زاهي أنه كان عمليا إذ يعمد إلى عزل كل من حالته صعبة ويجمعهم جميعا في مجموعة ويدعمهم بمزيد من الطعام حتى تستجيب أجسادهم إلى العلاج، إذ قال لي ذات يوم أنا أتكفل بعلاج جميع المرضى بقليل الدواء ولكن بمزيد من الطعام ونوعيته لأن جميع أنواع العلاج في السل هي سموم منها من يؤثر على البصر ومنها من يؤثر على الكبد ومنها من يسبب العقم.

وكان يصرف لنا علاجاً ثلاثيًّا وإبرة يوم بعد يوم استجاب جسمي إلى العلاج وتم فرزي وعدد غير قليل ومنهم سامر ونذير علوش الذي أذكره بكل خير إذ أن هذا الشاب الكريم من بلدة «فريكه» وهم من قبيلة النعيم وكان وسيماً ويدرس اللغة الفرنسية وكان خدوماً في المهجع وفى إحضار الطعام وفى كل ما يلزم ولم يكن صاحب أفكار ونظريات هلوسة عقائدية، ومما أذكره أيضاً عن الدكتور زاهي عندما كان يسر لى بأفكاره وأمنياته قائلا أمنيتي في الحياة أن أقدِّم الخدمة الطبية لأي إنسان مهما كان شكله أو لونه أو معتقده أو جنسيته لكونه مخلوق وعبد لله سبحانه وتعالى، ومرةً شاهدت الدكتور زاهي وقد تصدى لأزمة قلبية ألمت بشخص يعيش في لبنان ولكن هو من أصل سوري أعتقد من تل كلخ وكان شيعيّا وأن محلهُ لبيع الخضار بالقرب من جامع حربا في طرابلس. رأيت زاهي وهو يبكى وبعد معالجة المريض سألته عن سبب بكائه سألني هل رأيت ذلك قلت له نعم أنا رأيتك باكياً، قال لي يا أخي أبو أمجد إن الشخص قد توقف قلبه لبضعه ثوانٍ ولكن الله أكرمني وعاد قلبه للعمل فاعتبرت ذلك فضلا من الله وكرمه عليّ فبكيت خاشعاً وشاكرا لله أليست هذه المشاعر تستحق أن تذكر في عالم يشكو من شُح المشاعر الإنسانية والأخلاقية ولا أقول الدينية حتى لا تصدر تجاهي تهمة أنا منها براء كما اعتدنا على التُّهم الجائرة والدسائس والتنكر من أبسط متطلبات الوفاء والإخلاص.



المحطة: مهجع الدكتور محمود عبد الله طويلة - الباحة السابعة في سجن تدمر العسكري:

خرجنا في صف واحد وأعيننا معصوبة بقطعه قماش سميكة مثبتة طرفيها بمطاطة توضع خلف الرأس خرجنا نحمل أسمالنا وثيابنا الرثة ونحن حليقو الرأس والشوارب وممسك كل منا بظهر الآخر ورؤوسنا منحنية نحو الأرض وكأننا من جماعات الهنود الحمر أو أشباح بشرية عاشت في فترة ما قبل التاريخ ينخر السل أجسادنا وبدون غذاء يذكر أو دواءٍ شافٍ لأن الأدوية التى كانت تأتينا هي أدوية قد انتهت مدة صلاحيتها وتعطى لنا بفاعلية متدنية إذ لا يوجد عندنا سواها، وصلنا إلى الباحة السابعة إلى المهجع المقصود، فتح الباب ووقف الكل باستعداد فاستلَمَنا رئيس المهجع والمسئول الطبيب الدكتور «محمود عبد الله طويلة» وهو شاب في مقتبل العمر من مدينة حلب وقف كل منا وعلى انفراد وأمام المهجع ليُعرِّف عن نفسه ومن أين هو وجنسيته وبعد ذلك يخصص لكل واحد مننا مكان للمنامة وبحدود عشرين سم ونقسم أيضا في مجموعات للطعام كانت الأمور متشابهة في مهاجع السل مع بعض الاختلاف في طبيعة الإدارة من فهم وحسن التصرف، وجدت تفهما لوضعي من قبل الدكتور طويلة ورئيس المهجع لأن وضعي كان مؤقتاً ولا بد أن أعود إلى الغرف في الباحة الخامسة لأن العيش في الغرف أكثر أمناً وطمأنينة ورفاهية لأن إدارة المخابرات تعتبر من هم في الخامسة أصحاب قضايا مناوئة ومعادية للدولة ولكن لم تحمل السلاح ولذا فالمعاملة تكون أفضل عندما لا يكون وجود لأمثال بشار إسماعيل وسيف شاهين من الشبيحة وأعوان السلطة.

ومما يجدر ذكره أيضا أن مهاجع السل قد يأتيها من هو ليس مريضاً أو مصاباً بالسل بل جاءها بالاتفاق مع مسئوله الصحي على أنه مسلول بقصد الالتحاق بأخ له أو قريب أو صديق أو لمعرفة أكثر عن تواجد الناس وأين هو تواجدهم. أي أن الحضور كان لأغراض اجتماعية وأن بعضاً منهم يأخذ الدواء ويعمد إلى بيعه إلى آخر ممن كان في مقدوره دفع الثمن وليس بالضرورة أن يكون مادياً بل قد يكون عن طريق المقايضة



وهؤلاء قليل ولكن كان يمثل إشكالية للمسئول الصحي عندما لا يصرف العلاج لمستحقيه فعلاً لذا يعمد المسئول الصحي ومعاونيه أن يلزموا المريض أن يأخذ العلاج حالاً وأمامهم، إن جميع هذه الأمور سببها الفعلي هو السلطة التي كانت تجمع الناس في أكوام بشرية ومقابل كميات قليلة من الدواء والغذاء والسعة في المكان واحتياجات العيش في أبسط أشكالها من حمامات ودورات للمياه، كانت الأعداد كبيرة جدًّا في أماكن ضيقة كل هذا كان سبباً في كثير من الإشكاليات والخصومات التي كانت تحدث ولأن المعاناة قد طال أمدها ومعها قد ينفد الصبر وتضيق النفوس بما لا يطاق ومما لاشك فيه أن بقاء الناس ولفترات طويلة دون الحصول على روافد ثقافية وعلمية وإخبارية واجتماعية كلها أمور كافية للاضطرابات النفسية لا بل والفعلية وأن هناك من فقد عقله وهناك من أصيب بانفصام للشخصية وهناك من تمرد على القيم والأخلاق وسار في مسارات الضياع والابتذال إلا أن ذلك يبقى محدوداً لأن الناس كان زادهم الإيمان والاستعانة بالله وأن المحن لابد أن تزول ولقد لاحظنا شخصاً يدعى «تيسير حياوى» وقد كتب على صدره «يا علة الصدر بالصبر داويها». ولقد علمت أنه قد أعدم رحمه الله. كل أولئك هم ضحايا كيان أسدى مصطنع وسلطة غاشمة لا تعترف بالحد الأدنى من كرامة وحقوق الإنسان حتى في أبسط أشكالها الكثير من هؤلاء هم شبان في مقتبل العمر في المرحلة الثانوية أو بداية حياته الجامعية ومنهم من لم ينل أي حظ في التعليم هؤلاء هم ضحايا اجتماعية وسياسات خرقاء تعمل على صنع الكراهية وتعميق جذورها. وبعد فترة أشهر جاءنا وافدًا الدكتور زاهي العبادى ليفحصنا للاطلاع على صحة كل واحد منا ينصب له ساتر من شرشف وبطانية لتكون بمثابة عيادة لفحص الأفراد في المهجع، كان نصيبي ممن تم اختيارهم للذهاب إلى مهجع يضم أشخاصاً هم في طريقهم للشفاء كان الدكتور محمود طويلة يفضل أن أبقى إلى جواره تفضلاً وكرماً منه وأيضا محبة للعيش سوية وعرض عليَّ أن يكون ذلك بالتنسيق مع الدكتور زاهي العبادى إلاّ أنني كنت أفضِّل الابتعاد ما استطعت عن أجواء السل والمرض.



المحطة: مهجع الدكتور على عباس - الباحة السابعة - سجن تدمر العسكري:

لا يوجد مهجع بهذا الاسم بل هناك أرقام لا أذكرها واخترت هذه التسمية مجازا بالنسبة إلى المسؤول الصحي فيها، كانت قافلتنا بشكلها ولونها وحزنها على عادتها وهى تسير في قطار المذلة والمرض والعوز والامتهان حتى حط بنا المطاف إلى أمام باب المهجع المقصود والذي لم يبعد كثيراً عن مهجع قدومنا وكالعادة أيضا فتح لنا باب المهجع وتم تسليمنا إلى رئيس المهجع والمسئول الصحي وبالعدد وتم استقبالنا كالعادة أن يعَرِّف كل واحد منا عن نفسه واسمه وقضيته أحياناً وأيضا كالعادة يخصص لكل واحد منا مكان المنامة والمجموعة التي سيكون فيها أثناء تناول الطعام والذي لا يسال له لعاب وتكاد تعزف عنه البهائم والكلاب.

وتمضى الأمور في هذا المهجع بالنسبة لي كالعادة مع وجود بعض المنغصات إذ امتنع المسئول الصحي أن يستمر لي بالعلاج دون انقطاع وكما هو معلوم ومن قبل الدكتور زاهي العبادى لأن ذلك يعنى لي العودة السريعة إلى الباحة الخامسة كما وُعدت من قبل مساعد الانضباط. كان السبب في عدم استمرارية العلاج لي طبقا لشُح الدواء.

وبناء على فتاوى من بعض أشخاص تحكمهم هلوسة عقائدية وليس ذلك عليَّ وحدي بل تنال تلك الفتاوى أشخاصاً آخرين وهم بينهم الانتماء للإخوان المسلمين واذكر منهم أبا شعبان قليدو ومن بلدة كفر نبل من إدلب ألا إن أمري لم يدم طويلا دون حل إذ عاد إلينا الدكتور زاهي العبادى وأبلغ الدكتور على عباس على ضرورة استمرارية تقديم العلاج بضرورة العودة إلى الباحة الخامسة، هذه أمور طبيعية تختلف وتحصل من إنسان لإنسان حسب حساباته وتقديراته وظروفه الشخصية أو لا يقوى أحيانا على مجابهة الآخرين من أبناء فكره وحزبه من أصحاب الفتاوى وهذا ما لم أشهده عند كل من الدكتور زاهي العبادى ومحمود طويلة إذ لا يقبلان أي تدخل في شئونهما الصحية في أيه جهة من داخل المهجع هذه أمور مرت بسرعة وكزوبعة في فنجان دون أن تترك في نفسي أي أثر سابقاً



ولاحقا لأنني أدرك الظروف والتي سبق لي وأن أشرت إليها والتي هي المسئولة عن كل هذه المنغصات والخلافات، تعرفت على رئيس المهجع وهو من حماه ويدعى حسن أبو نعيم وهو من قبيلة النعيم وكان هناك رئيس قبله يدعى شاكر من قرية الشاطوريه من محافظه إدلب بالقرب من الحدود التركية وكان شاكر رقيباً في سرايا الصراع والتي كان يرأسها عدنان الأسد وان اسم شاكر قد عثرت عليه المخابرات السورية عندما وضعت يدها على مخبأ الإخوان وفى الجبل ووجد اسمه وعدة أسماء أخرى مكتوبة بحبر سرى ومن ثم تم اعتقاله وقد أصيب بنكسة صحية خطيرة احتقان في الرئة بصدد قيح وتم له عملية بزل لسحب ذلك الاحتقان وتركته عافاه الله وشفاه وهو في وضع صحي خطير.

وأود أن أشير إلى حالة مأساوية هي بسيطة في شكلها ولكنها حزينة في مدلولاتها. إذ يوجد شخص مهذب وملتزم دينيًّا من بلدة الحفة ويسكن في اللاذقية وأثناء قيامه بواجب الحراسة الداخلية قد أصابه الجوع والبرد فبحث عن شيء يقوت أوده ليأكله فوجد برتقالة صغيرة وقليلا من اللبن في وعاء خاص، أكل الجميع من شدة الجوع وفى الصباح عمد شاكر قبل مرضه لإحضار فطوره المتواضع ألا إنه لم يجده سأل الجميع عن ذلك ألا أن أحدا لم يعترف عمن أخذ الطعام وبعد فتره قصيرة حضر إلى طرفي الفاعل واعترف لي بما حصل وطلب منى عدم ذكر اسمه لأحد سوى لشاكر وأن أعلمه بالظروف التي أحاطت به ودفعته لأكل الحاجيات التي وجدها وطلب منى أن أبلغ شاكر بأن يأخذ حصته من الطعام في الفترة القادمة أبلغت شاكراً فكان متسامحا ورفض أخذ أي شيء من حصة ذلك الشاب أليست هذه مأساة إنه جوع وحرمان أعواماً وشهوراً وأياماً حتى من أبسط و أرخص أنواع الطعام مما دفع شابًّا نزيهاً وعفيفاً و أميناً أن ينال من طعام زميله وأخيه على قلته وندرته دون أن يجد في نفسه أي وازع أو رادع في حينه لظروف الجوع والحرمان هذه صوره بسيطة من تعسف وجبروت السلطة الأسديه المارقة والمجرمة بحق شعب أعزل يتوق للحرية والعدالة الإنسانية وبحساب عليها أنها جرائم ضد أمن الدولة!! أية دولة هذه، هذه الدولة التي قال عنها كنفوشيوش فيلسوف الصين إن الدولة الظالمة هي أشد وحشية من النمر المفترس.



المحطة : مهجع المستوصف - سجن تدمر العسكري:

تم فحصنا فحصاً طبيا من قبل الدكتور زاهي العبادى وقرر على أثرها أن أخرج متعافيا وكان ذلك في مطلع عام ١٩٩٠ م وعندما تقرر اقتيادنا إلى المهجع المذكور أعلاه طلبت مقابلة مساعد الانضباط والمدعو محمد نعمة وذكرته بوعوده لي على أن يعيدني إلى الباحة الخامسة. الغرف حيث يوجد أصدقائي وأبناء دعوتي – قال لي اذهب الآن وبعدين أشوف.

ذهبنا جميعا ونزلت وكالعادة في مهجع المستوصف بعد أن تم تسليمنا إلى رئيس المهجع والمسئول الصحي – هذا المهجع عبارة عن غرفتين صغيرتين في باحة صغيرة تقع بين الباحة السادسة والسابعة وتدعي بالمستوصف لأنه كان يستعمل مستوصفاً لمداواة المرضى ولكنه أُلغِي وكان يسجن فيه بعض النسوة بعد إلغاء المستوصف. كان ذلك العام عاما تلوح فيه بوارق الأمل بإنهاء معاناتنا والخروج من السجن كان السبب هو وقف الحرب العراقية الإيرانية وتخلص العراق من معاناة الحرب وخسائرها الجسيمة وكان على القيادة العراقية أن تلتفت لمواجهة عدوها الأول هو كيان حافظ الأسد الذي كان يقف إلى جانب إيران في حربها مع العراق ومما كان يدور لي في الأذهان أن جميع الدول العربية تقريبا ماعدا قله منها كانت تقف إلى جانب العراق وأنها مستاءة من كيان حافظ الأسد في سورية وأن هذا الكيان قد وضع في حسابه ذلك التحول لصالح العراق وأصبح هو المستهدف الآن، لذا كان سيلتفت إلى جبهته الداخلية ويعمل إلى مصالحها وإخلاء سبيل السجناء هذا ما كنت استقرئه وأعتقد أنه سيحصل وأن عدم رجوعي إلى الباحة الخامس كان بسبب الانتظار في أوامر تعتقد إدارة السجن أن تتبلغها وجدت في المهجع الجديد شخصاً فاجأني أنه كان يتتبع أخباري ويعرفها عن طريق إشارات «مورس» تستخدم بين السجناء عن طريق الضرب على الحائط بأصابع اليد كان ذلك الشخص يدع قاسم الحسن من أصل فلسطيني يقيم في حوران هذا الشخص كان يتواجد وزميل له يدعى أحمد الرفاعى في أحد السواليل زنزانة في الباحة الخامسة وهما مصابان بالسل ويسمع سعالهما الشديد والمؤلم وكان صديق لي وهو الدكتور «محمد أحمد الشعار» ويشرف على علاجهما وكان يقول لي وهو يسمع سعالهما هذه أخطر مرحلة في حياتهما إذ الآن سيحصل نزيف في الرئة وأن بصاقهما سيكون مصحوباً

بالدم كنا نبصرهما وهما يتهاويان في مشيتهما لإحضار الطعام وبعد فترةٍ سمعنا أحدهما يقرع باب الزنزانة ويطلب الحرس الذي كان يتواجد على سقف الباحة أبلغه أن أحدهما قد توفى وعلمنا أن ذلك هو أحمد الرفاعى من محافظه القنيطرة تمر الأيام واجتمع الآن مع قاسم الحسن إذ أعلمني كيف كان يتتبع مكان وجودي كما أشرت سابقا وأعلمني أنه كان يسعل أكثر من زميله أحمد الرفاعى وأن أحمد ذات يوم قد جلس وطلب من قاسم أن يحضر له الطعام وأعلمني قاسم أن أحمد أكل الطعام بشهية وجلس يحدثه أي يحدث قاسم وقال لي فوجئت وكأن أحمد ليس مريضاً ثم استلقى لينام وبعد فترة قال لي أن أحمد الرفاعى قد مات رحمه الله. قال لي قاسم غسلته وألبسته طقم جينز جديد وهو له ثم طرقت الباب وأعلمتهم بوفاته، أحضروا لي مساعد الانضباط وبعض الرقباء والشرطة ومعهم عدد من الشبيحة وقد أخذوا أحمد الرفاعى يقول لي قاسم الآن أصبحت أفكر كيف أنا سأموت ومن سيعلمهم عند موتى وقال لي أصبحت أتوقع الموت في كل لحظة وبعد أيام قد أخذوا قاسماً إلى مهاجع السل وعولج وتم شفاؤه وها هو الآن في مهجع الأصحاء في مهجع المستوصف... كان قاسم شابا متحمسا وخدوما. أمضينا قرابة سنة وسبعة أشهر سويةً وعددنا قرابة خمس وسبعين شخصاً لا نملك من النقود ليرة سورية واحدة. وكنا نعيش في عوز وحرمان حتى أننا لم نستطع شراء كمية قليلة من الملح لا بل كان المسئول الصحي يطلب من الرقيب قليلا من الملح لمعالجة انخفاض ضغط الدم. كان ثمن ذلك عدة صفعات على وجهه وشتائم بحق العرض والشرف!! وعندما يتم إحضار كمية قليلة من الملح توزع على أفراد المهجع بالملعقة وكان مكسبا وقد تحقق لضرورة الحاجة للملح، كما وأن المسئول الصحي وأتذكر اسمه الآن «حسان المفتى» على ما أظن وهو من اللاذقية يناشد الجميع من يملك ليرة سورية واحدة أو أكثر أن يتقدم بها لشراء ولو حبة أسبرين واحدة لمعالجة أي شخص للحيلولة دون وقوع جلطة دموية معه أي تستخدم لتميع الدم إلاّ أنه لم يجد شخصاً واحداً معه تلك الليرة – هذا الفقر والعوز والضيق عانيناها وشاهدناها في تلك القبور البشرية والزواريب التي شيّدها حافظ الأسد لمعاقبة شعبه ودفنه فيها لينعم هو و آله بنعيم الوطن على أنقاض شقاء وتعاسة شعب بأكمله.



وقفة خاصة :

في يوم ٢٧-٢-١٩٩١ م وبعد انتهاء الدوام تقريبا يخرج من عندنا شاب يدعى «طاهر علوبى» وهو من حلب ومن عائلة ميسورة كما ذكر لي وهو من تنظيم حزب الطليعة الإسلامي وقد جاء من تركيا إلى سوريا وبمهمة حيث ألقى القبض عليه وأخذ إلى الإعدام وهو عليل الجسم إذ يعانى من سل وربما يكون في العظام، وفى اليوم التالي أي في ٢٨-٢-١٩٩١ م وفى نفس الوقت تقريباً تم استدعائي وقد أُخذت وعلى حين غفلة وبسرعة وأنا معصوب العينين حليق الرأس والشارب وثيابي رثة، ثم اقتادوني من قبل أحد شبيحة السجن ورقيب وعدد من أفراد الشرطة العسكرية ويتناوبون على ضربي وشتمي دون أن أعرف إلى أين أنا ذاهب ويسألني الرقيب «ولك شو هذه العباية» ويقصد جلابيتي أي ثوبي الذي كان متهرئاً وكذلك الأمر لشحاطتى البلاستيكية المتهرئة أيضا وكما هي حالة ثياب زملائي أن لم تكن حالة ثيابي أفضل حالاً من ثيابهم، اقتادوني وعند كل ممر كان رأسي أو قدمي تصطدم بعتبة ذلك الباب أو أحد جوانبه وأتلقى على أثرها ركلات أو صفعات إلى أن حط بى المطاف إلى مكان ظننت أنه مقر الإدارة لأنني شعرت بدفء المكان وسمعت صوت مساعد الانضباط المدعو محمد نعمة قائلا شو علاقتك بفلان من الناس أي ذكر لي أسماء لم أسمع بها من قبل وكما لا أعرفهم إلى أن سألني عن المدعو هاشم الفاعور إذ قال لي ما علاقتك بالأمير هاشم الفاعور؟ أجبته أنه ابن عم زوجتي وزوج أختها طلب منى المساعد أن أتنازل له عن أرضى في مدينة قدسيا من ريف دمشق! هان الأمر عندي لأنني كنت أعتقد أن مصيري سيكون الإعدام كما كان مصير طاهر علو، وحيث أنني لا أملك حرية الرفض أو المناقشة لما تعرضت له من ضرب وكما هي حال السجن التي اعتدنا عليها إذ لا حرية في الاختيار في الأشياء ولا خيار في الأمور سوى التنفيذ والقبول دوماً بكلمة نعم سيدي وجدت الأمر هيناً إذ لا يعدو عن أمر مادي وكما لم يتطرق إلى ذهني أن هاشم القاعور والذي يربطني به أكثر من وشيجة الرحم ووشيجة الأخوة وشيجة الجد والملح كما يقال وشيجة مواقف الآباء

والتضحية والتي وقفتها إلى جانبه وأهله لا يمكن أن أتصور أن هاشماً سيكون شبيحاً آخر وينسى أو يتناسى كل تلك النتائج السابقة الذكر، صدر أمر مساعد الانضباط قائلا خذوه بره وأحضروا كاتب العدل أجلسوني خارج المكتب أرضاً وأصابعي في أذني ومطأطئ الرأس وكل من يمر حولي يركلني أو يصفعني حتى حان وقت حضور كاتب العدل إذ أمروني أن أقف وأن أخلع الطماشة عصابة عيني وأن أنظر إليهم وهذه أمور محرمة من قبل أي أن النظر إليهم هو من المحرمات ولو حصل ذلك من قبل أي فرد فإن العقاب هو الدولاب أي الجلد بعدد المئات أو ألف جلدة إلى جانب الركل والصفع طلبوا منى أن أعتد بنفسي وأن أذكر في الداخل أننا في حالة جيدة ولا ينقصنا شيء أبدا وأن أحوالنا هي أيضا جيدة وحذروني من أي كلام غير ذلك.

دخلت ورأيت هاشم الفاعور ومدير السجن العميد غازي الجهنى إذ لم أره من قبل وطلبوا منى أن أوقع على وكالة مدونة ولم أقرأ ما فيها وحال انتهائي من التوقيع وقفت إلى جنب الحائط ورأيت هاشم مدهوشاً ومذهولاً عندما أبصرني بهذه الحالة التي لم يعتد أن يراني فيها أو يتصور أن يراني فيها سأل العميد أن يسمح لي بإخباري عن أهلي فسمح له بذلك وقال لي هاشم أهلك بخير وزوجتك بخير ولم يخبرني أكثر من ذلك واستأذنه أن يعطيني مصروفاً فأذِنَ له أن يعطيني ثلاثة آلاف ليرة سورية فقط أي حوالي مائتين وخمسين ريالاً!!! ولأن نظام السجن لا يسمح بأكثر من ذلك في حينه وبعد ذلك أخرجوني، وسمعت من يأمر العريف الذي اصطحبني إلى المهجع عاد يضربني ولكن دون أن يخرج منى نقطة دم واحدة وعند وصولي إلى أمام المهجع وفتح باب المهجع ضربني أحدهم ضربة على رأس معدتي وذلك ركلاً بقدمهم لم أستطع على أثرها أن أتنفس وبادرني أيضا بضربة على أثرها ألقتني على بُعد أكثر من مترين إلى داخل المهجع مما جعلني لا أقدر على الحركة أو النهوض وأَمَر الحارس الموجود على أسطح المهاجع والذي كان يناظرني من خلال فتحة في سقف المهجع أن لا يسمح لأحد أن يسعفني أو يأخذني إلى مكان به أي فراش، بقيت على الأرض دون أن يسعفني أحد حتى أنهى

الحارس مدة حراسته حيث بادر كل من في المهجع إلى إسعافي ومواساتي والاستماع إلى كل ما حصل معي على مذبحة هاشم الفاعور وخيانته كما سأذكر لاحقا.

إنني لا أزال أملك صك ملكية الأرض وأن المذكور بمساعدة ومشاركة الجهات الأمنية قد سلبني أرضي وبعد خروجي من السجن ومطالبتي بحقي في فرع سعسع للأمن العسكري أن حقي كما زعموا سيعود لي عن طريق بشار الأسد الذي هو أخرجني من السجن وأن الخشية من استغلال الأمر هذا ضد بعضهم البعض كان من أسباب تسهيل السماح لي بمغادرة البلاد ولو لسفرة واحدة وهم على يقين أنني لن أعود وقد خرجت ودون كفالة من أحد وأن السماح لي بالخروج قد أسعدني حتى ولو كانت سوريا كلها ملكي لأن بقائي في سوريا يعنى إلزامي ومن خلال مراجعتي للفرع الداخلي في شارع بغداد في دمشق أن أكون عميلا لهم لا سمح الله أو أن أيه وشاية ولو كيدية ضدي ستعيدني إلى السجن.

وأن محافظ القنيطرة نواف الفارس والذي قد أصبح سفير سوريا في العراق والذي انشق عن نظام كيان الأسد قد علم بالأمر واقترح حلًّا بالاحتكام إلى العرف ولكن الطرف الآخر ماطل وهرب إلى المملكة العربية السعودية والتي هو يحمل جنسيتها إلى جانب جنسيته السورية والمثبتة في وثائق قضيتي معه وهى الوكالة التي انتزعها منى بالإكراه خلال وجودي في السجن وإن وجوده في المملكة يعنى أنه تحت حماية القانون السعودي وأنا مقيم في المملكة العربية السعودية وأحرص أن أحترم المكان والنظام وولاة الأمر ولكن في الصدر غصة أن أبصر من اختلس حقي ومالي ولا أستطيع أن أعمل شيئاً. إن هذه الأمور قد اعتاد كيان الأسد أن يعمل بها بمكر وخبث، وحيث لا يجاد الضغائن والفتن في المجتمع السوري وينفذها من خلال أصحاب النفوس الخربة والآفاق الضيقة وممن رضوا بأنفسهم أن يكونوا مطايا شر تحمل أوزار كيان مستبد وغاشم استحوذ على كل مقدرات الوطن والشعب دون أن يحرك ذلك شيئا في نفوسهم المتهنة الرخيصة وأن الزمن لن يضيع الحقوق وأحتسب أن قضاء الحاجات لها أوقات

وأن الباطل لن يدوم بل إن الباطل كان زهوقاً. أكتب هذه الواقعة لأعلم القاصي والداني أنني لم أجد في أهله وذويه رجلاً رشيداً رغم تعهدهم وأمام أفراد من قبيلتهم وقبيلتي وأهلي النعيم أنهم سيدفعون حق حسن وأن شيئاً لم يحصل بعد أن أمَّن هاشم على نفسه في المملكة العربية السعودية.

وبالعودة إلى وجودي في مهجع المستوصف لم يطل كثيرا وفى منتصف العام تقريبا تم ذكر أسماء بعض المساجين ممن هم في مهجعنا على أمل إخلاء سبيلهم وفى اليوم التالي ذهبوا بهم إلى مكان آخر ونحن خرجنا من المهجع وطال انتظارنا في شمس محرقة وعلى بلاط هو من الرمضاء وأشد حرًّا وننتقل بين مهجع وآخر ونحن مطمشون أي معصوبي الأعين ونحمل حول أعناقنا أغطيتنا من بطانيات وأكياس من ملابسنا وأثناء ذلك كدت أن أموت لشدة الزحام والحر والتعب والإرهاق ووجدت من يعينني على حمل أمتعتي فسألته من يكون وعن اسمه فأجابني بهمس أنا خالد، من هذا خالد تحدثت لنفسي، أعرف شخصا اسمه خالد الحموي وقد غادرنا مع المجموعة التي تم نقلها إلى مهجع آخر على أمل إخلاء سبيلهم وعندما وصلنا إلى مهجع جديد في الباحة الرابعة رقم (٢) تعرفت على خالد ذلك الشاب ذو الفضل والتفضل عليَّ وعلمت أنه كان في حينها صائماً جزاه الله عنا كل خير، إنه خالد شاكوش من بلده الحفة في جبال اللاذقية وهى بلدة سُنية وأهلها متدينون وأن خالداً كان والده شيخاً و يؤسفنى عندما علمت أنه أيضا في السجن وفى مكان آخر ولا يسمح لأي منهما بلقاء الآخر.

إنني أمر على بعض الأمور دون أن أتمكن من سردها جميعا أو أن أتذكرها إذ أن كل شيء في تدمر هو مأساة وليس الأمر قدريًّا بل هو مكر وكيد كيان الأسد وسلطته الغاشمة التي أذلت الشعب السوري بأكمله كما ذكرتُ أيضا أن كثيرا من العرب لم يسلموا من شر ذلك الكيان المستبد وسلطته الغاشمة و أؤكد أن أبلغ بنى البشر وأشدَّهم ذكاء لا يستطيع أن ينقل الصورة الحقيقية لمآسي تدمر لأن الأمر لا يتعلق بساعة أو يوم أو شهر بل مأساة تلازمنا ليلاً ونهاراً وتسرى فينا مسرى الدم كيف أنساها وقد أضحت

مأساة عمري وإخواني من السجناء ممن نالهم البلاء وعضتهم أنياب وحوش الأسد.

وتحضرني الذاكرة أن رئيس المهجع كان قد استسلم لبعض من زملائه ليقلعوا له ضرساً ملتهباً وبينما هو مضطجع وسلَّم نفسه للقدر وهم يعدون العدة بأن يربطوا ذلك الضرس بخيوط متينة ومن ثم يتم نزع الضرس وبدون بنج وربما يحصل مع ذلك انتزاع شيء من الفك أو لحمة من اللثة ولكن رحمة الله كانت أسرع التي حملت له بشرى أمل إخلاء السبيل هذه رحمة الله تنزل رغم أنف حافظ الأسد ووحوشه المسعورة أليس في ذلك عبرة إذ أرادوا لنا الموت فأراد الله لنا الحياة أرادوا لنا الشقاء فأراد الله لنا السعادة... وأرادوا وأرادوا وأرادوا ولكن إرادة الله في الخير والرحمة كانت هي الأغلب والأوسع والأشمل وإن تعُدُّوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لرءوف رحيم .

المحطة : الباحة الرابعة مهجع رقم عشرين
سجن تدمر العسكري:

يومٌ مشهودٌ تشيب منه الوالدان ونحن نَسْبَح منذ الصباح الباكر في خضم محيط متلاطم الأمواج أمواجه جبال وشواطئهُ بعيدة المنال وأنواؤه صعبة الوصف والأحوال تجرفنا الأمواج وقد خارت عزائمنا لا نبصر شاطئاً أو ضفة، تقذفنا الأمواج البشرية فيلطم بعضنا بعضاً وتلتف حول أعناقنا أكداس من أسمال أغطيتنا وقد عُلّقت حول رقابنا ونحمل أكياس ملابسنا ونمسك بظهر بعضنا ونسير بلا هوادة أو صوب. الأرض جمرٌ إذ نسير حفاةً لصعوبة المسير. نتوقف ساعات عن محطات يفارقنا بعض أصدقائنا وينضم إلينا جَمع من أصحاب لا نعرفهم إلا بمصائبهم التي هي مصائبنا وآهاتنا وحسراتنا مئات تجمعنا أماكن ضيقة تضيق فيها الأنفاس ويسقط البعض مغشياً عليه من صعوبة المسير وتزاحم الأجسام، يومٌ لم أجد له مثيلاً في حياتنا الدنيا يتوعدنا رعديد أشر ويركلنا وغد حقير قذر، ألفاظ نابية تعصر القلب وتؤذى الروح والكبد وتلفنا الأحزان والأقدار ولا ندرى أقصر أم طال المشوار.

وبعد كدح وكد وجلد ومحطات يطول فيها الوقوف والانتظار - نؤمر بالوقوف ويفتح لنا باب ويؤذن لأوائلنا بالدخول ونتبعهم إلى قبر ارتضيناه بالمسرة والسرور ندخل ونرمى أنفسنا أرضاً بعد أن عز علينا أن نبصر من حولنا أو نحييهم، تمتد نحونا أيادرحيمة لم نشهدها في أثناء مسيرتنا المبرح والمنزح وبعد فترة التقاط الأنفس نبصر رحابة المكان وجمع الأحبة والخلان وهم يتعانقون بعد أن عز اللقاء منهم الإخوة ومنهم الأصدقاء ومنهم أبناء الحي ورفاق الزمان وكالعادة في محطات ترحالنا يتم التعارف وتوزيع أماكن النوم ومجموعات الطعام كان المهجع يضم قرابة ثلاثمائة شخص إلا قليلا لا توجد فيه إلا دورتان للمياه وكما لا تصله مياه الشرب إلا بعد عطش وطول انتظار لا نحصل على الماء إلا بقدر يسير للشرب والوضوء وغسل الوجه واليدين بتقنين بحدود الشح والتقتير، بعد أيام تفتح عيناي على عسر وفقر وضنك وفاقة وحاجة لكل شيء،

أناس تقطعت بهم السنون دون مغيث أو معين أحوال مأساوية في كل شيء وضيق في كل شيء وينتظر غالبية القوم وصْل أو عُون بعد أن اشتدت بهم الحاجة وأعوزهم الزمان، وبعد ذلك وجدت أناسا فيهم مسحة التقوى والإيمان وأناساً ينصبون نفسهم أئمة التقوى والفرقان وأناساً يكتمون مشاعرهم ولا يخوضون في حديث ويرمون أنفسهم في خدمة من حولهم ويتدبرون أمور المهجع من الداخل والخارج وهم يعاركون الأيام والأقدار ولا ينبسون ببنت شفة صبرا واحتسابا.

حدثني بعض أهل العقل والحكمة والاتزان وهم يترحمون على أُناس قد عانقوا أعواد المشانق وكانوا مصادر إثراء في الفكر والعقيدة والسلوك - كانوا قناديل ومشاعل فكر ورحمة واتزان، فخلف من بعدهم خلف زعموا أنفسهم أنهم ورثة العلم والإيمان مجموعات يزعم كل طرف الوصول إلى ليلى. لا أقبل أن أسمح لنفسي أن أخوض في تلك المآسي الإنسانية والفكرية والعقائدية لأنني على يقين أن أيا من الذين التقيت بهم لم يكن السبب في تلك الأمور، تلك الأمور صنعها كيد ومكر أعمدة الكيان الأسدى ليجعلوا الناس في متاهات فكرية وعقائدية وبؤس وفاقة، منعوا عنّا كلّ شيء منعوا عنّا الكتاب منعوا عنّا المذياع منعوا عنّا كل شيء يحتاجه الإنسان إلا ما يرمونه لنا من طعام وشراب نأكله ونشربه وتارة تعاف الخيل ما نأكل ومانشرب. ضيق الحال في كل شيء خلق المشاحنة بين البعض في كل شيء مشاحنة في حدود المنامة. مشاحنة حتى في الدخول إلى الحمام لقضاء الحاجة إذ يطول الانتظار أحيانا ساعات ومن البلاء وشدة العوز والجوع والحرمان أن يحضر لنا وبعد أشهر وسنين. أكلة من الفاصوليا الحب وقد طهيت بعصير البندورة (الطماطم) ولشدة الجوع يقبل عليها الجميع بنهم وجشع ومن البلاء أن تكون الفاصوليا الحب قد أضافوا لها كربونات الصوديوم ويحصل بعدها آلام البطن والإسهال فتجد الناس يتدافعون للوصول إلى دور يوصلهم إلى دورة المياه هذا مثال بسيط أسوقه للتدليل على سوء المأساة. لا الحصر للمأساة. أورد هنا وكما هو معلوم أن الاتحاد السوفييتي ودول حلف وارسو قد سقطت عام ١٩٩١ م ولكن أيًّا منا لم يعلم

بذلك إلا بعد عام ١٩٩٥ م أي أن جهلنا بكل ما حولنا هو أكثر مما أصاب أهل الكهف كما جاء في القرآن الكريم إذ أنهم قد وجدوا الاختلاف هو في العملة وأن ذلك قد طال علينا ويمكن أن يطول أكثر لولا أن أموراً خارجية قد حصلت وكان لها تأثير على وضع القرار السياسي فجاءوا لنا بجرائد عن أعوام سابقة وقد فاجأنا أن علمنا من خلالها وفات أهل لنا وأصدقاء وأصحاب وأن ذلك قد أعقبه خروج دفعة من جماعة الإخوان المسلمين وبعضهم من أصحاب أحكام ثقيلة ومديدة.

إذا كان سبب إحضار الصحف هو النية بإطلاق سراح هذه المجموعة ولكن على بينة من أخبار العالم وإلا سنصبح مثلا يتحدَّث عنه العالم للجهل الذي أحاط بنا في أحداث لا يجهلها ذو بصيرة أو بصر. إن الحرمان من الدواء واللباس والطعام وغيرها هي كوابيس تؤرق كل من هو في تدمر في المهاجع المغلقة وأؤكد أن كل لحظة في تدمر هي كابوس شر وأرق إذ لا توجد حصانة أو حماية من عاتية شر تنزل بنا في تلك اللحظة وأنني سأفرد محطة لكل تلك الأشياء أو بعضها للإشارة والتدليل على عمق مأساتنا التي سكت عنها الأعداء ونام عنها أو تناساها الأصدقاء، ولكن إن أُم المآسي والأحزان هي تلك التي ألمت بشباب هم في سن الورود والرياحين قد عانقوا أعواد المشانق وكانوا يملئون الحس والبصر وقد أضحوا اليوم أثرا بعد عين وقد علمت أن أكثر من خمسة عشر شابا هم من اختطفتهم شبيحة العصابة الأسدية ودفنوا في مقابر جماعية في وادي عويضة في منطقة تدمر كما ذكر لي من أصدقائنا في المهاجع وتوجد عليهم حراسة عسكريةأي في ذلك المكان الذي دفنوا به وأن منهم من اختطفه المرض والسل ومنهم من اختطفه البرد في الزنازين ومنهم من مات تحت التعذيب ومنهم من فقد عقله وأصبح مجنوناً وقد عشت مع ثلاثة قد فقدوا عقولهم وجنوا ولم يطلق سراحهم على الرغم من الحالة التي آلوا إليها ومنهم من فقد بعض أعضائه - ماذا سأذكر ومن أذكر وكيف أصف أحوالهم وهم يذهبون أولى بأس وعزيمة يتحدون إرادة وجبروت كيان حافظ الأسد وسلطته الغاشمة ليعانقوا أعواد المشانق وأذكر في هذا الصدد إذ وجدت في أحد الزنازين وقد

كتب على أحد جدرانها وبخط رفيع (إذا أرادوا لنا الموت ففي الموت شهادة وإذا أرادوا لنا السجن ففي السجن عبادة وإذا أرادوا لنا النفي ففي النفي نزهة) وقد سمعنا عن صبية قد زجوا بهم في زنازين الباحة الخامسة وكانوا ينشدون وعلى مسامع جلاديهم يا ظلام السجن خَيِّم إننا نهوى الظلام. إن الثورة السورية القائمة الآن لم تكن حدثا عابراً أو إيحاء من أحد أو عملاً ينبعث من هلوسة عقائدية إنها بركان ثائر فجره ظلم وبطش واستبداد وقهر وعهر طال أعراض الحرائر واستحواذ على كل مقدرات الشعب المادية والمعنوية دون رقيب أو حسيب وأن الثورة السورية لا يحركها فصيل معين أو تنظيم معين بل هي إرادة شعب بكل مكوناته وعقائده وأطيافه الدينية والسياسية والاجتماعية تداعى لها أبناء سوريا من شمالها إلى جنوبها ومن غربها إلى شرقها وهذا ما كان يتم لولا الألم والمصاب الذي حاق بكل أطياف الشعب وعقائدهم على حد سواء.

ومن الأمور البارزة والتي تستحق أن أذكرها أثناء وجودي في هذا المهجع حيث توارد إلى مسمعي من خلال صوت بجوار باب المهجع ويجيب الرقيب نعم موجود – فناداني أكثر من واحد من الإخوة الذين سمعوا كلام الرقيب يقول لي حَضِّر نفسك لزيارة.. كان ذلك بتاريخ ١٦ / ٤ عام ١٩٩٥م.

قدم لي بعض الإخوة قميصاً وبنطلوناً لأرتديهما أثناء ذهابي إلى الزيارة لأنه لا يسمح لأحد أن يذهب بثياب رثة لمقابلة أهله وذويه. وحصل ذلك بالتأكيد من إدارة السجن بعد أن أخذوني بتاريخ ٢٨-٢-١٩٩١م لينتزعوا منى وكالة لصالح المدعو هاشم الفاعور والذي تصرف بموجبها بأرضي في مدينة قدسيا وبالتواطؤ مع رجال مخابرات حافظ الأسد إذ لم يحصل مثل هذا بتاريخ سجن تدمر العسكري. حتى في ظل الزيارة الرسمية لا يسمح بالزيارتين إلا إلى الفروع أو الأصول القربى من الدرجة الأولى الإخوان والأخوات وأن المذكور قد خان الأمانة وصلة الرحم والخبز والملح ومواقف الرجولة التي وقفتها معه ومع أهله وذويه وأن المذكور وكما ذكرت سابقاً يحمل الجنسية السورية والتي بموجبها سلب أرضى وحقي ظنًّا منه أنني لن أخرج من السجن وأن

أحداً لن يطالبه بحقي. وكذلك لأنه يحمل الجنسية السعودية والتي بموجبها يحتمي الآن لأن الجنسية تعنى الولاء والحماية وأنا مقيم في المملكة العربية السعودية وأحترم النظام والمكان وأُولى الأمر فلا أستطيع أن أقترب منه لذا فهو ينام قرير العين هانيها وأنه هرب من سوريا بعد وعود منه ومن ذويه بأنهم سيدفعون ثمن أرضي وبحضور الشهود ومن قبيلة «الفضل» قبيلته وقبيلتي «النعيم».

ذهبت للزيارة ووجدت أفراد أسرتي ولم أكن أعرف أحدا منهم إلا ابني الكبير ووالدته.

جلست معهم لمدة نصف ساعة تقريباً وفى مكتب مساعد الانضباط إذ كان النظام يسمح بمقابلة الأهل والسلام عليهم والجلوس إليهم، كان ذلك مفرحاً لي بشكل لا يوصف إذ اطمأننت عليهم ومشاهدتهم ورودا زاهيةً في مقتبل العمر - حصلت على مبلغ ثلاثة آلاف ليرة سورية لا غير لأن نظام تدمر لا يسمح في ذلك الحين أكثر من ذلك المبلغ، وحصلت على ملابس تقيني شرور البرد والذي سكن واستقر في عظامي طوال تلك الأعوام السابقة ولكن علمت أخيرا وبعد خروجي من السجن أن ما حصلت عليه لم يكن إلا النذر اليسير من تلك الحوائج التي أحضروها لي وأن الباقي قد سلبوه وإن كنتُ أكثر حظًّا من بعض زملائي الذين قد سلبوهم كل حوائجهم التي أحضرها أهلهم في زيارتهم لهم وأن أكثر ما سرنا من الحوائج هو حرام صوف موروا أسباني الذي لازمني طيلة وجودي في تدمر إلى حين مغادرتها غير مأسوف عليها إن الحرام قد زرع الدفء في صدري منذ سنوات طويلة ومديدة ومريرة وقد حصلت على شيء من الأدوية الضرورية والتي استخدمها وزملائي في المهجع وبإشراف المسئول الطبي هناك.

وبتاريخ ٢٢-٦-١٩٩٥ م طلبت لزيارة ثانية وقابلت أفراد أسرتي وذلك بعد شهرين ونصف من الأولى ولم يسمح لي بأخذ أي مبلغ مالي وكما تم وضع اليد على كل حوائجي من الزيارة إلا القليل منها كما علمت بعد خروجي من السجن. وينبغي أن أؤكد أن تلك الزيارة والتي سبقتها لم تكن مجانية بل كان ثمنها مدفوعاً لأحد المتنفذين

من شبيحة الكيان الأسدى ومن خلال قناته الخاصة – هذا للعلم أي أن النظام المعمول به في شرع تلك العصابة يمنع عن فلان ويمنح إلى فلان آخر ويباع إلى فلان أي أن النظام هو نظام امتيازات تعطى لأعمدة كيان العصابة الأسدية المصطنع إذ يتصرفون به وفقا لأهوائهم ومصالحهم.

ومن الأمور التي حصلت أثناء وجودي في المهجع رقم ٢ في الباحة الرابعة أن تم استدعاء أسماء معينة وأن بعض تلك الأسماء كانت موجودة في مهجعنا وذهبوا بهم لمقابلة لجنة أمنية وتوالت الأسماء حتى أنّ مهجعى قد أصبح شبه خالٍ وبعد فترة تم استدعائنا أي من تبقى في المهجع ومن أحضروا إلى مهجعنا من مهاجع أصبحت شبه خالية وكان ذلك حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا وجلبونا إلى ساحة الباحة الأولى حيث كان مقر إدارة السجن وكنا نجلس على الأرض وفى وضعية مذلة ومهينة إذ كانت أصابعنا في آذاننا ورؤوسنا منحنية نحو الأرض طال بنا الانتظار وأصبح لا يطاق من قبل مرضى السكري الذين يحتاجون للذهاب إلى دورات المياه وكذلك كبار السن والمرضى حتى أن أحدا لم يستطع البقاء طيلة تلك الفترة الطويلة والتي استمرت إلى حوالي الساعة الثالثة صباحا تقريبا.وحال عودتنا كنا منهكى القوة وخائرى النفس وفى إعياء شديد أخلدنا إلى الراحة والنوم وكنا نأمل أن يتم إخلاء سبيلنا على الرغم من أننا لم نقابل أحدا وان أحدا لم يقابلنا ولم نجن من ذلك سوى العناء والمشقة والمذلة هذه تدمر مقبرة جماعية لأجساد حية بشرية وآتون لم تنطفئ ناره بعد.

إنها من مآثر الخزي والعار التي سطرها و أنجزها المجرم حافظ الأسد وستبقى حية في أذهان الشعب السوري والذي لن يستكن أو يستسلم لإدارة أي غازٍ أو مستبد وأن حقوقه ستعود إليه طال الزمن أم قَصُر، دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ولا يفوتني أن أُسَطر بدواعٍ من الأسى والحزن جرحاً لا أستطيع أن أنسى ألمه وذكراه حيث أن ألماً شديدا قاسيته وعانيته بمرارة إذ آلمني ضرسي وصبرت عليه كثيرا. وأنا

أعانى ألماً لا يطاق ولا يصطبر عليه وبعد معاناة طويلة فارقني فيها لذة النوم والراحة، كان زميلي المسئول الصحي الدكتور حسن العَجم من مدينه حلب أن عرض عليَّ خلعه بالطريقة المعتادة والمتوفرة حيث يتم القلع بواسطة قراطة الأظافر إذ يثبت طرفها المعنى على قطعة من الخشب بواسطة ربطها بخيوط ثم يتم ادخلا طرف القراطة المعدني في اللثة ويضغطها ولمرات عدة يصل معها طرف القراطة إلى أعماق اللثة ليقتلع الضرس من جذوره وقد لاحظت أن القطعة المعدنية قد التوت قبل أن يتم خلع الضرس، كان ذلك يحصل دون تخدير أو مسكن وأن الألم كان أشد إيقاعاً على نفسي من ألم الإعدام عن طريق المشنقة،إعدام المشنقة وكما ذكره لنا الأطباء يحصل بمجرد كسر عظمة خلف العنق. وإن ذلك لا يحتاج لأكثر من ثوانٍ وبعدها يفقد الجسم حسه وشعوره بالألم. ولكن ألم خلع الضرس وبهذه الطريقة والتي لم يعد لها مثيل في عالم اليوم ولمرات ومحاولات عدة هي أشد إيلاماً من فعل المشنقة ويشتد الألم بعد خلع الضرس لأن الجرح يبقى حيا ونازفاً ولا توجد طريقة لمداواته ومعالجته إلا عن طريق الملح المذاب في الماء، حصل ذلك معي مرتين وكنت كلما أبصرت تلك الأداة وهى مثبتة على قطعة الخشب لو أن بمقدوري أن أهرب من هول وقعها في نفسي ولكن لا خيار لي هنا سوى القبول أو الألم أمران أحلاهما مُر..

أضع هذه الواقعة الأليمة لأُشير أن تدمر هي رعب وألم وإرهاب يواجه الإنسان فيها في كل لحظة وبأشكال متعددة إذ لا يوجد فيها الأمن أو الأمان. هي ينبوع للمآسي والحرمان لا ينضب فيضه أو يتوقف تدفقه على يد وحوش بشرية أنتزع منها الضمير وفارقها الانتماء الإنساني.

باعت نفسها بأنجس الأثمان لحساب كيان مصطنع وسلطة غاشمة استمرا استعباد العباد ومآسي العذاب والهوان.

ومن الآلام التي تكاد لا تنسى على كثرتها أن ألمَّ بنا مرض أنفلونزا حاد ومصحوب بحرارة تكاد تتجاوز أربعين درجة لا يتوفر لدى المسئول الصحي من المسكنات للحرارة



شيء يذكر ومن ينال حبة واحدة مما هو متوفر منها يكون ذا حظ عظيم.

كان علاجنا الوحيد أن نخلع ملابسنا ونعالج بكمادات المياه لتخفيف درجات الحرارة المصحوبة بقشعريرة حادة تهز الجسم وتدمي القلب وتُبكى النفوس لعدم القدرة على تحملها.

ماذا سأذكر من أحزانى وآلامي وقد استقرت في سويداء قلبي وأقامت مملكتها وحضورها الدائم لسنوات طويلة ومريرة وكأنما خلقت لأكون عبداً للمآسي والأهوال. إن السنوات الطويلة في سجون الطاغية حافظ الأسد ووريثه بشار الأسد سيء الذكر هي سنوات متشابهة في العناء والمآسي والحرمان وبألوان مختلفة نحن وقودها وعناصر ديمومة التهابها في آتون العذاب والهوان. وبعد هذا السرد الموجز لأحداث ومآسٍ لا حدود ولا ضفاف لها تحدث في كل لحظة دون الاستطاعة في الإحاطة بها وذكرها وتذكرها يمضي بنا قطار المآسي والأحزان إلى محطة اخرى تنتهي بها إقامتنا في مهجع الإخوان المسلمين كمايوصف ويعرف من قبل كيان السلطة الأسدية تحط بنا الركاب في موقع آخر هو مهجع القضايا المختلفة بعد فترة أمضيتها في مهجع الإخوان المسلمين لمدة خمس سنوات تقريبا.

محطة : مهجع القضايا المختلفة في سجن تدمر العسكري:

يمضى بنا قطار المصائب والأحزان وانتهى بنا المطاف في مهجع القضايا المختلفة نَحضُر في كل مكان ونحمل بين جوانحنا مصائبنا وقهرنا وأهوالنا وتعاسة عيشتنا وجراحنا التي لا ضفاف لها ولا شفاء ولا علاج.

وندخل المهجع ويتم عدنا من قبل الرقيب ومن معه من الشرطة العسكرية والشبيحة ويغلق الباب ويتوجه كل واحد منا إلى مكان يختاره لأن المهجع كان كبيرا جدًّا وإن عددنا كان قليلاً وأن ذلك حصل بعد أن تم إخراج دفعة من المساجين وأصبع العدد مناسباً نوعا ما لتنفرج عنا غمامة الضيق في المنامة والذهاب إلى دورات المياه ولكن لابد أن تقدم فاتورة ذلك إذا أصبح عددنا قليلاً وأن أي حركة في الليل يتم رصدها من قبل الحرس الموجود على سطح المهجع وأن ذلك لابد من تحمل مسئوليته في عقاب مبرح وأن أي واحد قد لا يستطيع مغادرة فراشه ليذهب إلى الحمام ليلاً إذ اقتضى الأمر لأن مكانه سيكون مكشوفاً للحرس ويسأل الحرس الداخلي من المساجين عن صاحب الفراش وإذا ما حصل ذلك فإن الحرس الداخلي وصاحب الفراش سينال كل منهما العقاب المبرح والمؤذى.

وإن من المتاعب التي واجهتنا في ذلك المهجع أن دور الحراسة الداخلية سيكون في أمد قصير ولا توجد أيام للراحة من متاعب الحراسة ومسئوليتها ومن المتاعب أيضا في أوقات التنفس وإدخال الطعام إذ أن عددنا القليل قد يجعل كل منا عرضة للضرب والإهانة بينما في المهاجع الكبيرة قد يختلط الحابل بالنابل ويشعر الإنسان بحماية في ظل الكثرة والزحام.

وعليَّ أن أوضح للسادة القراء أن العذاب في تدمر هو أمر قدري ومفتعل من قبل كيان الأسد المصطنع وسلطته الغاشمة ولا يمكن للمرء أن يشعر بأي شيء من الأمن والأمان ما دام له وجود في هذه المقابر الجماعية التي أرادتها السلطة الأسدية لكل فئات

الشعب على اختلاف مِلله وطوائفه وكذلك الأمر لمن وقع في شرك السلطة الأسدية من الأقطار العربية إذ كنا من أقطار عربية مختلفة فهناك أفراد من لبنان وفلسطين والعراق والأردن ولكل واحد قضية مختلفة ومنهم أيضا المسلم السني والمسلم الشيعي وأيضا من الطائفة الدرزية ومنهم المسيحي وهذا دليل أن لكل فرد من أي طائفة تهمة جاهزة مجهزة يمكن إسنادها له لأن الكيان الأسدى كان يخاف من كل الطوائف على اختلاف مشاربها وكذلك من كل من الدول العربية لأن الكيان الأسدى المصطنع وسلطته الغاشمة يكيدون لجميع العرب وهم لا يعترفون بالسيادة الكاملة للدول العربية.

لأن القيادة الأسدية تعتبر الدول العربية هي أقطار وأن تلك الدول ينبغي توحيدها تحت سلطة وقيادة البعث وأن البعث هو اللباس الذي يخفون تحت يافطته أهواءهم ونزعاتهم ونواياهم الخبيثة وأن لهم تنظيمات خاصة بهم في جميع تلك الدول وبأحجام متفاوتة ولها قيادات معلنة وخفية ومقرها دمشق.

وأن تلك التنظيمات لها أوراق تلعب بها السلطة الأسدية وتعتبرها خناجر في خاصرة كل من لا يواليهم أو يسير في نهجهم وسياستهم وأن السلطة الأسدية قد تهادن البعض وتنسق مع البعض ولكن قد ثبت بالدليل واليقين أن لا أمان لها ولا ذمة ولا عهد وأن تلك السلطة الأسدية لم يسلم من شرِّها كبار العائلات والشخصيات حتى من الطائفة النصيرية فمنهم من اُغتيل ومنهم من مات في السجن ومنهم ممن شرد ومنهم من تم قمعه وعاش مسجوناً مذموماً مدحوراً في سوريا لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة.

هذا بلاء عظيم شربنا كأسه المر من العلقم والحنظل كما شربه غيرنا ولكن بشكل أو بآخر بطعم وطعم ولِمَرة ولحين. بقينا في ذلك المكان ولم يتغير شيء من ألوان الذل والهوان عرف بعضنا بعضا واصطحب بعضنا دون الآخر لتشابه الحياة والثقافة وأن مشاكلنا الداخلية كانت محدودة جدا لعدم وجود ما نختلف عليه من أفكار وهيمنة. وقد يحضرني الآن اسم شاب صغير من لبنان وهو من الطائفة الأرمن ويدعى «ميرام هارنت باربريان» وهذا كان رحَّالة في سجون ايطاليا، سويسرا، فرنسا و ألمانيا ويروى

لنا حكايته مع كل سجن وإن هي جميعها إلا نزهة طاف بها تلك الدول باحترام وتقدير ولا يمكن مقارنتها بتدمر بأي معيار أو مقياس، وكان معنا شاب عراقي ومن أصل فلسطيني ويدعى «مؤيد حسن أبو علي» وأعتقد أنه من قاطع الحديثة وهذا له مغامراته وحكاياته الاستخباراتية وأقصد من ذلك قد استمعنا إلى قضايا متعددة ولكل قضية مداخلها ومخارجها والتي تختلف مع أية قضية أخرى وكما أنَّ لكل واحد من هؤلاء شخصيته المميزة والمنفردة فمثلا «ميرام» كان يتقن الأرمينية والعربية والإنجليزية والفرنسية والتركية والإيطالية وهو صغير السن ويبدو أنه مسكين وضعيف ولكنه يستطيع أن يرشح من أدقِّ المصافي وينفلت من أعتى الأغلال وكان له ذلك حتى في السجن.

أما مؤيد فقد علمت عنه قصة وشاهدتها دون أن أعرف اسمه وشخصه حينها. كان مقيداً في الزنزانة وفى زمهرير الشتاء ولا يوجد عنده غطاء وأن الزنزانة عبارة عن براد لوجود الرطوبة وضيق جوانبها - ذات يوم علمنا أن من في الزنزانة قد أصابه الشلل ولا يقوى على الكلام وعند إحضار الطعام وجدوه لا يتكلم ولا يتحرك، مما استدعى حضور الطبيب ومساعد الانضباط وأعداد من الشرطة العسكرية والشبيحة وأذكر أن ذلك كان يوم الجمعة. هذا الأمر استدعى إعطاء قضيته اهتماماً خاصاً إذا أحضروا له البطانيات والعصير والأكل من الغرف وبعد أيام تم تحويله إلى مستشفى تل منين وفى تل منين قيدوه بالسلاسل وربطوه إلى جانب السرير وهناك كشف مؤيد عن حقيقته أنه ليس مشلولا ولكن معاناته من البرد فرضت عليه أن يلجأ إلى تلك الحيلة ليخلص نفسه من موت محقق كما مات آخرون من قبله دون أن نعرفهم أو نعرف أسماءهم ولكن علمنا ذلك لاحقا بعد أن يأخذوا الجثة ووجوهنا صوب الحائط ونعلم من الشرطة أو من الشبيحة أو من هو بجواره في الزنزانة وفى خلسة وغفلة من الحرس يشير إلى ذلك أن أساليب القهر هي التي تؤدى إلى تلك المخاطر إذ عادوا بمؤيد إلى تدمر وشاهدنا ما تعرض له من عقاب وحشي لا أستطيع وصفه أو تحمله. إن مؤيداً ذو جسم قوى وهو

شاب فكانت الشرطة والشبيحة بأعداد غفيرة يطاردونه في ساحة الباحة بعد أن يهرب منهم من شدة العذاب يضربونه بمواسير من الحديد وبأعمدة من الخشب وبالسياط والركل واللكم، يبقى مؤيد على هذه الحالة من العذاب ولأيام عديدة ويعمد بعدها إلى محاولة الانتحار إذ عمد إلى قطع شريان يده وقد لاحظ الحرس ذلك ونُقل على إثرها مؤيد إلى المهاجع هذه أمثلة لمعاناتنا وليست حصراً لكل معاناتنا و ألوان عذابنا والتي يضيق ذكرها بمجلدات كما لا يمكن وصفها وحصرها لو تسنى لنا كتابتها وتدوينها.

ولكن معاناة مؤيد لم تنتهِ بعد وسيرد بعضاً من معاناته في موضع آخر.

وممن عرفتهم العميد الركن «إسماعيل نادر» والذي كان رمزاً للعنفوان والصلابة وكان صديقاً لي ولا يبخل عنى في معاودته لي حين مرضى وتعبي إذ كان يهتم في تحضير فراشي والحديث إليَّ ولا أستطيع أن أقول إلا أنه كان ودوداً ومما أذكره عنه أنه كان عسكريًّا محترفاً وممسكاً بناصية علومها العسكرية ولا يقبل الهزل أو المزاح. وكثيراً ما يشرح لي بعض المعارف العسكرية والحروب التي خاضها، كان قد اشترك في حرب ١٩٦٧ م وأصيب في عينه وشارك في حرب ١٩٧٣م وأسر بعض الطيارين الإسرائيليين وجندي إسرائيلي من أصل صربي وشارك في حرب إسرائيل عند قبر شلوم في بيروت كان أبو رياض رجل المهام الصعبة ولكن فكر السلطة وزبانيتهم دبروا له مؤامرة خبيثة وأوقعوه في شراكها على الرغم من علمهم بأنه بريء من تلك التهم ولذلك كان له وضع خاص في سجن تدمر. كانت تأتيه زيارة في كل شهر وهذا أمر نادر الحدوث في المقبرة الأسدية التدمرية، ونستطيع أن نستخلص من ذلك أن شرور وبطش السلطة الأسدية لم يفرق بين طائفة وطائفة أو محافظة ومحافظة أو مدينة ومدينة أو قرية وقرية أو بين دولة عربية ودولة أخرى هذا مكر وكيد الأسرة الأسدية وها هي الآن تحرق سوريا لأن الشعب أراد حريته وكرامته بعد تلك المزاولات والممارسات المذلة لقد بلغ السيل الزبى كما يقال ونفد الصبر وطاب الموت على حياه المذلة والهوان.

ويحضر في ذهني زميلنا «حسن سليمان حذيفة» أيضا هو من الطائفة الدرزية ومن

محافظه السويداء وقد أخذ على حين غفلة من ضيف عنده وقريب له بالنسب وهو من لبنان وأوقعه في مصيبة ونتيجة الثقة والقربى قد أخذه بحديث وليس ذا مدلول وخطير ولكن نزاهته واستقامته وتفانيه في عمله رموه بتهم مكر وخداع لأن السلطة الأسدية وزبانيتها يكيدون المكر والسوء لكل من هو وطني ومخلص في عمله إذ يضعون الحواجز والعوائق في وجه كل ذي طموح حتى لا يتسنى له الوصول إلى مراتب يعتبرونها حصراً عليهم ولا يمكن الوصول إليها إلا من هو مَحَطِّ ثقتهم ورافداً لهم بالوشايات والبهتان.

وفى هذا الصدد أتردد كثيرا في سرد هذه الواقعة ولكن الأمانة واستخلاص المدلولات من فكر السلطة الأسدية وممارستها الأمنية والاستبدادية لذا أُعلم السادة القراء كان ضمن مهجعنا الجديد شخص يدعى عمرو زيد عدنان محيي الدين سوري الجنسية من حلب ومن أصل تركي كما يزعم إلا أن الشخص لا يجد حرجاً الآن في مهجعنا الجديد وبعد أن ترك مهاجع جماعة الإخوان إذ كان يواظب على حفظ القرآن الكريم.

الآن يجاهر بمقته واحتقاره للعرب وازدرائه الإسلام ولا يجد حرجاً في أن يكفر ويتلفظ بألفاظ نابية وإلحادية، مما جعلني أتصدى له إذ قلت بالأمس كنت تقرأ القرآن عند الإخوان المسلمين واليوم أنت لا تفعل شيئا من هذا حتى إنك لا تصلى، أما إذا كنت تعلم أن الإسلام هو دين الإخوان لوحدهم فأنا أقول لك لا الإسلام هو ديننا والقرآن قرآننا وأن محمداً ﷺ هو نبينا فلا أسمح لك أن تتمادى في هذا المجال وعلى مسامعنا أما ماذا أن تعتقد فهذا شأنك وأنا لست قيماً عليك.

هذا الشخص حسب زعمه كان يدرس في فرنسا ولكن يبدو لي أنه كان فاشلاً في دراسته وهو يعمل في محال تزيين وتجميل النساء حتى توصل أن يقوم بأعمال في الزينة وفى أماكن حساسة من جسم المرأة على حد قوله ولكن هذا الشخص كان يعمل أيضاً وعلى حد قوله مع الموساد الإسرائيلي ومع المخابرات الفرنسية والمخابرات السورية ومخابرات عربية أخرى لا أذكرها. جاء أخيراً إلى سوريا وربط نفسه مع أكثر من فرع مخابرات سورى وعندما تم كشفه ومن قبل رئيس الأمن العسكري اللواء «على دوبا»

قبل أن يفتح صالوناً نسائيًّا وللغرض الذي ذكرته، قال له «على دوبا» لو قدر لك وأن فتحت ذلك الصالون لكنت قبلةً لسيدات المجتمع المخملي وبالتالي كان باستطاعتك أن تحصل على المعلومات التي تريدها دون عناء وجهد ومن المفارقات والتي ينبغي أن نُبينها أنه حكم عليه عشر سنوات وتم إطلاق سراحه وأن أشخاصا كانوا بدون جرم مكثوا في السجن أكثر من عشر سنوات ومن البلاء أيضا أن الشخص كان ذا ثقة لدى الإدارة وان أي وشاية منه كانت مصدقة ولا غبار عليها ولاسيما لدى الرقيب أول الشبيح أحمد هيثم المحمود وهو من الطائفة النصيرية، هذه هي سورية في ظل الكيان الأسدى البغيض وسلطته الغاشمة أن تحكم بأدوات القهر والاستبداد و سفلة القوم والأراذل منهم.

وقبل أن نخرج من هذا المهجع وبعد أيام قليلة من وجودنا تأتيني زيارة ويذهبون بى لمقابلة أهلي ولكن تلك الزيارة كانت مفجعة لي في الذهاب وفى العودة، في الذهاب كنت أسحب من قبل الشبيحة ولقد اصطدمت بأكثر من بوابة وجدار وأنا لا أبصر الطريق وعلى أثرها ذلك تنهال على رأسي الصفعات واللكمات حتى عزفت عن الزيارة وكرهتها ولكن لا بد مما ليس منه بد، نمضى في طريقنا وأنا معصوب العينين وأجلس أرضاً في انتظار الأمر بالسماح لي للزيارة وبعد انتظار طويل جالساً والطقس بارد إذ كان ذلك في فصل الشتاء. يأتينا أحد الشبيحة ويأمرني بالوقوف ويفك العصابة عن عيني. ويقول لي اعتد بنفسك ويصدر لي تعليمات أن لا أُبدى أي شيء من الأمور المزعجة وأن أعلمهم أي أهلي أن أمورنا هي تمام على أكمل وجه، وكانت المفاجأة الثانية أن المقابلة كانت من خلف القضبان ومن خلفها قضبان وبالكاد أن أسمع قولهم وكذلك أبصارهم بعدما أزالوا عن عيني الطمّاشة ووجدت أن هناك تغيراً في الإدارة لوجود مساعد جديد وعرفت اسمه فيما بعد ويدعى «أحمد سلامة". لقد أبلغوني أنهم أحضروا لي جاكيت صوف حرصاً منهم أن لا تسرق، وعاد بي المجرمون والشبيحة وقبل وصولنا إلى مهجعى أوقفوني وشعرت أنهم أخذوا الجلَّ الأكبر من أغراض الزيارة ولم يبقوا لي

شيئا منها وبعد وصولي إلى مهجعي وبعد أن تفقدت الأغراض المرسلة إليّ وكما لم أجد الجاكيت.... ليس بمقدوري أن أفعل شيئاً وما عليَّ إلا الصبر وتناسى الأمر.

كنت أمضى كل وقتي مع العميد الركن «إسماعيل نادر» نتحدث جميعا بالماضي وأيام الدراسة لأنه قد أكمل دراسته الثانوية في الأردن وفى مدرسة هي تابعة لقسم الثقافة في الجيش الأردني – قسم خارجي – وأنا كذلك كنت أدرس في مدرسه كلية فيصل الثاني في العبدلى قسم داخلي إذ كان هناك قاسم مشترك من الذكريات والأحاديث.. وبعد فترة أيضاً قصيرة من تاريخ زيارتي كانت هناك لجنة طبية لمعاينة كبار السن وأصحاب الأمراض العضال، حضر مساعد الانضباط محمد نعمة ومعه المساعد الجديد وعدد من ضباط الصف ومن الشبيحة وكنت من بين الذين ذهبوا للمقابلة.

ووقع اختيارهم لي من بين المرضى الذين تستوجب أوضاعهم الصحية إخلاء السبيل – لقد تم جمعنا ومن مختلف المهاجع والقضايا في مهجع واحد في الباحة الثانية. فرحنا كثيراً لأن بوارق الأمل بدأت تلوح في الأفق بإخلاء السبل والخروج من هذه المذلة والعذاب المهين. اجتمعنا ولنا وضع خاص إذ لا نكلف بأعمال الحراسة الداخلية وأن أحداً لا يؤذينا من الشرطة أو الشبيحة أثناء إدخال الطعام ولا أثناء الليل والنهار.

حضرت اللجنة الطبية وأجازوا خروجنا لأسباب صحية وبعد الانتظار طال أكثر من شهر فوجئنا بأمر العودة إلى مهاجعنا وعلينا الانتظار إلى إشعار آخر دون أن نعلم الأسباب التي أدت إلى هذا الإلغاء، لم يحصل شيء بعد ذلك يُذكَر حتى أن استدعيت أن أحزم أغراضي لمغادرة المهجع.

أصابنا الذهول جميعاً لعدم معرفة الأسباب وإلى أين ستنتهي الأمور. خرجت من المهجع بعد أن صافحت أصدقائي مودعاً إياهم وحطت بى الأقدام فى الباحة الخامسة حيث وجدت أبناء دعوتي وأشخاصا منهم من أعرفه ومن لا أعرفه وكان شكلي غريباً عنهم إذ كنت حليق الرأس والشارب وهم يحتفظون بشعرهم وشواربهم وبحالة صحية و أمن وطمأنينة لأن ثمن ذلك هو سياسة الاستبعاد ونظام السخرة لأنهم كانوا يعملون

بالخرز يصنعون منه تحفا وصناعات محلاة بالخرز بأشكال وألوان زاهية، قد أفقدت الكثيرين نعمة الإبصار وسلامة العيون لأن تلك الأعمال تفقد الإنسان وعلى طول مزاولتها نعمة الرؤيا والإبصار حللت ضيفا مكرما نتيجة مساعٍ طيبة من أبناء دعوتي عند المساعد «أحمد سلامة» والذي جاء بعد المساعد محمد نعمة وقد قابلني مدير السجن أثناء حضوره إلى الباحة ويدعى المقدم غازي ديوب، ومما يجدر ذكره أن أحد الرقباء ويدعى حافظ وهو من الطائفة النصيرية قال لي مازحاً حضر حالك لدولاب قلت له ألا يكفى ما نالنا من دواليب، فهمس بأذني قائلا والله أنني أكره حتى شكل الدولاب ولكن ذلك يحصل غصباً عنى. حقا كان ذلك الإنسان مهذباً ولطيفاً مع الجميع وعند انتهاء خدمته العسكرية جاءنا مودعاً ومتمنياً لنا إخلاء السبيل العاجل. الأمانة تقتضى أن نعطى كل ذي حق حقه وكما وجدت رقيباً آخر وهو مثقف وكنيته المقداد وهو من الطائفة النصيرية ولا توجد له قربى مع مقداد بصري الشام في حوران وأعتقد أنه من مدينة «جبلة» وكان ليناً وسلساً وكان على مشاحنة مع الشبيح الرقيب الأول أحمد هيثم المحمود من ريف حمص أو من حمص المدينة لست متأكدا. وأن الرقيب المقداد قبل انتهاء خدمته العسكرية جاءنا مودعاً ومتمنياً لنا إخلاء السبيل القريب.

المحطة - الباحة الخامسة ثانيةً- الغرفة الثالثة سجن تدمر العسكري:

تمضى بنا الأيام والسنون ونحمل أوزار مصائبنا وأحزاننا تقاذفنا الأمواج وترمى بنا إلى حيث هي تشاء وتريد. حللت ضيفا عند أبناء دعوتي ووجدت منهم الترحاب وحسن الضيافة لأن حضوري إليهم كان نتيجة مساعيهم مع مساعد الانضباط الجديد «أحمد سلامة» وجدت وجوهاً جديدة في الغرفة حيث وجدت شخصاً مصريًّا من القاهرة واذكر اسم والده «أحمد خليل» وكان ذلك يعمل في جنوب لبنان وبقى هناك أثناء الاجتياح الإسرائيلي وبعد الانسحاب الإسرائيلي وجه له تهمة التعامل مع الإسرائيليين إلاّ أن ذلك الشخص تم إخلاء سبيله وغادر إلى مصر وكان طيب المزاج والخلق كان يعمل في تحضير الطعام للشباب الذين كانوا يعملون في الخرز. وفى ساعة حضوري إلى الغرفة حضر شخص من المخيم الفلسطيني فى حمص ويكنى «أبا راشد» وتهمته أنه من أعضاء الجبهة العربية في منظمة التحرير الفلسطينية والموالية إلى العراق ويقابلها منظمة الصاعقة الموالية إلى سوريا. ويوجد أيضاً بعض الإخوة الفلسطينيين ووجدت شخصاً سوريًّا من بلدة جبا من ريف القنيطرة، والقريبة من تواجد أهلي في الجولان وهذا الشخص أمضى قرابة ثلاثة عشر عاما في الزنزانة لصلته بشخص من عائلة أبى شقرا وهو من الطائفة الدرزية وكان ذلك الشخص زميله في الخدمة العسكرية ولدواعٍ شخصية ومرتبطة بظروف العمل كما أفاد محمد أحمد العلى من جبا قرر أبوشقرة بالهروبِ إلى إسرائيل وهو يعمل فى قاعدة للصواريخ أرض جو وقد حل ضيفاً عند محمد أحمد العلى ضيف في جبا وقام محمد أحمد العلى بإيصاله إلى بلدة حضر إذ أن سكانها من الطائفة الدرزية وهى محاذية للجولان المحتلة ومن ثم دخل إلى الحدود في الجولان المحتل وسلم نفسه للسلطات الإسرائيلية وفى عام ١٩٨٢ م وأثناء الاجتياح الإسرائيلي إلى جنوب لبنان دخل إلى جنوب لبنان وتم أسره في جنوب لبنان وأثناء التحقيق معه اعترف على محمد أحمد العلى الذي استضافه و أوصله إلى بلدة حضر حيث دخل إلى

إسرائيل أردت أن أُبيِّن معاناة هذا الشخص وأسباب الاضطهاد وما ينجم عنه من نتائج خطيرة وغير محسوبة أمام الاستفزاز وضيق الأفق. مما ينجُم عنه هذا التصرف غير اللائق إذ أنّ أبا شقرة قد أعدم وأن هذا قد تركته أيضاً في السجن ولم أعرف مصيره لأنني غادرت سوريا منذ عام ٢٠٠٥ م، وجدت ذلك الشخص في الغرفة التي نزلت بها ولم أكن أعرفه من قبل ووجدت خلاف بينه وبين أبناء دعوتي عملت جاهداً إصلاح الأمور بينهم بقدر المستطاع عسى أن أجتث أسباب المنازعات في ذلك المكان الذي يضيق بنا بأحزانه وآلامه، آلام الأسر والذل والامتهان مما تهون أمامها كل الاختلافات والمنازعات الشخصية، لم أفلح كثيرا مع الأيام لا بل قد أغاضَ البعض ولكن تستمر الأيام في سعة وراحة بوجود مساعد الانضباط الجديد أحمد سلامة والذي كان بطبعه يميل إلى المهادنة والسلام إذ قال لي ذات يوم أنا لا أملك إلا ابناً واحداً من ضمن بضعة بنات وأخاف عليه من الظلم لا أدرى مدى صدقه وصراحته ولكن ذلك ما سمعته ولا أذكر ذات يوم أنه كان سبباً في إزعاجنا أو إزعاج أي شخص في الغرف. أما الزنازين فلها وضع خاص. وبعد فتره قصيرة تأتيني زيارة من قبل أخي وإخواتي الاناث واحضروا لي بعض الحاجيات والملابس والتي وصلت إلى يدي أما ما تم نهبه وسلبه فهو أكثر بكثير كما علمت ذلك منهم لاحقاً بعد خروجي من السجن وكما حصلت على مبلغ ثلاثة آلاف ليرة سورية إذ أنّ نظام السجن لا يسمح بأكثر من ذلك في حينه. وبعد أشهر يحصل ما لم يكن في حسباننا ويحصل ما لم نتمناه أن يحصل، حصل أن تم عزل مساعد الانضباط أحمد سلامة واستلم بعده شخص شبيح وذو طبع صبياني وغير مسئول وذو نزعة شريرة وسلطوية إذ أنه تربّى في كنف المساعد محمد نعمة وهو عريف ولكن سرعان ما تآمر على المساعد محمد نعمه وانضم إلى جانب المساعد أحمد سلامة وأخيراً أوقع أحمد سلامة في شرك خداعه ومكره. استلم الشبيح أحمد هيثم المحمود وهو نصيري ومن محافظة حمص وكان يكيد لي ويضمر الشر منذ عام ١٩٩١م عندما تم إحضاري وانتزعوا منى وكالة بيع أرض لصالح المدعو هاشم بن شامان الفاعور والذي خان

الأمانة والعهد وصلة الرحم وكل أواصر الشرف والمبادئ مقابل أمور مادية تقاسمها مع زبانية الأسد ورجال مخابراته.

عمد أحمد هيثم المحمود لإشعال السجن بالعذاب والإرهاب ليسمح لنفسه ورئيسه الشبيح المقدم غازي ديوب نصيري ومن جبله، كان ذلك إلاّ إرهاب بقصد سلب الناس دراهمهم تحت ذرائع ساقطة وملتوية . إذ عمد على سبيل المثال لشراء مراوح للمهاجع وبعد أن يأخذ ثمنها ويحضرها ثم ينقل الناس إلى مهجع آخر ويأخذ ثمن المراوح لمرات عدة وبطرق ملتوية ومثل آخر وأثناء تيسير أمور الزيارات كان ينهب جُلَّ ما يحضره الأهالي لسجينهم من ملابس وحليب وأدوية ثم يبيعها في محال يختارها وفق مصالح مشتركة.

ومن أساليب السطو على حقوق السجناء أن بسط يده ويسر الأمور بطلب إحضار فاتورة للخضار وفاتورة ندوة وفاتورة خرز أما الخضار فعندما يسجل مهجع على سبيل المثال ثلاثمائة كغم لا يصلهم أكثر من خمسين أو ستين كغم ويأخذ ثمن ثلاثمائة كغم وبأسعار كاوية أضعاف السعر الفعلي وكذلك الخرز وفاتورة الندوة.

كان همه أن يجمع ثروة طائلة وتحت غطاء رئيسه الشبيح المقدم «غازي ديوب». وكان المذكور أيضا قد فتح ورشة للنجارة والتحف الخشبية وفرز لها أطقماً من المساجين والذين لهم معرفة بتلك الحرف وحتى ممن لا يعرفون وكان كل ذلك مقابل مبلغ من المال يدفعه السجين ليخلص نفسه من العذاب وأجواء الإرهاب والتي فرضها و أشعل نارها ذلك الشبيح ولم نسلم من شره وأذيته إذ فرز لنا شبيحة من طائفته وسبق وأن ذكرته ويدعى سيف محمد حسن شاهين من ودى العيون وجاءنا بعد أن عجز الشبيح الرقيب المسئول أحمد هيثم المحمود أن يدخل نفسه في الغرفة من خلال خلافات تحصل في الغرفة، كان الشبيح سيف قد عرض قدومه إلى غرفتنا إبان مسئولية المساعد أحمد سلامة. إلا إننا رفضناه لسمعته السيئة ومحاباته الإدارة وشروره التي لا يتردد أن يرمى لها أيًّا كان وفقاً لمزاجه ونزواته الذاتية ومصالحه الشخصية.

جاءنا المذكور وقد تقدم من قبل ذلك وأخذ إذناً وجاء ليصافحني وسلم عليّ لا بل قد بعث لي برسالة وفيها المديح والتودد. أعرفه جيدا لأنه قد سبق ووشى بى كذباً وزوراً



وبعد أن حاولت أن أحتويه وأكرمه ولكنه كان غداراً وسيء الصيت والعلم.

جاءنا وقبلناه مكرهين وكان أبو راشد قد هرب من الغرفة التي كان بها سيف ولجأ إلى غرفتنا هرباً منه وكذلك الكل يحاول أن لا يقيم معه أية علاقة ولكنه استطاع أن يستميل المدعو محمد أحمد العلى والذي حاولت أن أخفف عنه وأصلحه مع أبناء دعوتي وأقدم له كل مساعدة.

الخلاف بدأ يظهر في الغرفة بين أبى راشد وآخرين في الغرفة وكان كل طرف يتربص بالآخر وبتأجيج الصراع ويحاول سيف استغلالها كمادة للوشاية بنا عند قريبه وابن جلدته النصيرى أحمد هيثم المحمود مساعد الانضباط واشتكى على «أبى رشاد» على أنه سبني لأني رفضت أن أكتب له طلباً لإدارة السجن. أنا كنت أنأى بنفسي عن تلك المشاحنات وأخشى عواقبها كما أنها لا تتناسب مع خلقي أو طبعي وحياتي الاجتماعية ولكن أين المفر؟ جاء المساعد الشبيح أحمد هيثم المحمود ليتبيَّن الأمر وبعد أن علمت أن (سيف) قد استغل اسمى ووشى بأبي راشد أعلمت المساعد لا يوجد شيء بيني وبين أبى راشد وبعد خروج المساعد غار عليَّ سيف مهاجما فتصديت له مكرهاً إذ لا أجد حيلة أو وسيلة وبعدها طلب المساعد وطلب رئيس المهجع صديقه وحميمه محمد أحمد العلى ولم أعلم ماذا دار بينهم ولكن اقتادوني إلى الباحة وأمام غرفتي وزملائي وانهالوا على ضرباً بالسياط المبرحة ففقدت الوعي على إثرها إذ أعلمني أبناء دعوتي أنهم قد ضربوني أكثر من ألف سوط كرباج ولم أحس بشيء إذ أخذوني إلى زنازين تحت الأرض وأخذت أستعيد أنفاسي وبدا لي أن أقدامى قد بترت ولكن كنت أظن أن ذلك حلم وبعد أن صحوت وجدت الأمر حقيقة لا حلماً.

وعندما فتحت عيني وجدت نفسي محاطاً بالشبيح مساعد الانضباط أحمد هيثم المحمود وحوله زبانيته وشبيحته أزالوا شعري نتفاً وألماً من خلال ماكينة صدئة وخربة. أخذوني إلى زنزانة سحباً ورموني في غياهبها وأنا لا أقوى على الحراك أبدا. رميت نفسي على يطق توجد فيه بطانيات وكنت أعانى من الخروج في الحمام لا أقوى على الجلوس والضغط على أقدامى كنت أستلقي جانباً وأحاول قضاء حاجتي شعرت بارتجاج في

دماغي إذ كنت قد أرى أموراً هي من وحى الخيال وأتكلم بها مع الشرطة أيقنوا أنني في وضع غير طبيعي وكانوا ينهالون على ضربا عند إحضار الطعام إلى زنزانتي ومن أولئك الشرطة واحد لا أزال أذكر اسمه ويدعى مدحت وأعتقد أنه من جهة الجزيرة وكنت أتوسط له عند أبناء دعوتي بأن يمهلونه في دفع ثمن مشترياته من أدوات الخرز والتي كانوا يصنعونها إلا أن ذلك النذل كان يعبر عن أصله وتربيته التي لا تصل إلى أي منبت أو خلق حسن، تسوء حالتي كثيرا ويبعثوا إلى بشخص من أفراد الغرفة ليساعدني أو يعلمهم عنى إذا ما ساءت حالتي كثيراً وربما كان أمري قد وصل إلى علم المخابرات أي إدارة أمن الدولة وكان قد أعلمنا رقيب أنه سيتم تسفيرنا إلى دمشق إلا أن ذلك لم يحصل وأن الآخر قد أعادوه إلى الغرفة وأنا قد بعثوا لي شخصا لمداواة أقدامى وكان يسكب عليها الماء ويزيل القيح والتلف من خلايا أقدامى كانا عناءً شديداً وألما لا يطاق وبدون معين أو أنيس. وتشاء الأقدار أن يقدم شخص وهو مؤيد أبو على من العراق والذي سبق وأن ذكرته ومعاناته على الانتحار وقطع وريده بواسطة سترتج إبرة طبية.

أود أن يسمح لي القارئ الكريم إنّ سردي لتلك الوقائع لأُعبر عن أشكال المعاناة التي يكون مصدرهامن الداخل أي عندما يسجن المرء مع شخص من غير طينته وجيلته فيواجه السفيه ويواجه الجهل ويواجه سوء الطبع دون أن تكون له إرادة أو قدرة لدرء تلك الأمور عن نفسه أو أن ينأى بنفسه عنها، كما أشير إلى أشكال العذاب والامتهان لكرامة الإنسان وتشغيله بنظام السخرة وأن يسلب الإنسان حقه وحاجياته الضرورية والتي جاءته عن طريق أهله وما كان ليحلم بذلك لولا إراقة ماء وجه الأهل ودفع أتاوات ورشاوٍ إلى زبانية السلطة حتى يسمح لهم بزيارة ابنهم والاطمئنان عليه ومساعدته في ملبسه وحاجاته الضرورية وبمبلغ محدود ثم يسلب منه عنوة وأن تلك الأمور قد حصلت بفعل فاعل أي أن جاءوا لنا بذلك الشبيح لينالوا منا بالعذاب.

تلك الأساليب لا أستطيع حصرها لأنها أمور قدرية قد زرعت في أجسادنا لتكون من لحمنا ودمنا ونفسنا وطعامنا وشرابنا أنها سرمدية طوال تلك السنين المرة والمذلة من حياتنا التي كانت رخيصة في مقابر آل الأسد وزبانيتهم الأنذال والظلمة والمجرمين.



الباحة الرابعة - مهجع قضايا متعددة:

نظراً لاحتدام الأمور وسوء حالتي الصحية ومحاولة «مؤيد أبو على» فلسطيني مقيم في العراق الانتحار وكأن هناك من الشرطة والرقباء والذين هم من جناح المساعد أحمد سلامة وشوا بإدارة السجن على هذه الأمور غير المبررة ومن خلال قنوات خاصة بهم وأسباب مقنعة بأن أحمد هيثم المحمود ومدير السجن غازي ديوب قد عمدا لإذلال الناس لسلبهم ونهبهم ومخالفات هم يعرفونها. عمدت إدارة السجن باتخاذ قرار لنقلى إلى مهجع ووضعي تحت رعاية صحية ومعالجة الجروح الملتهبة والخطيرة التي ألمت بى وفعلاً حضر مسئول صحي طبيب لمداواة جروحي وتضميدها وكذلك حضر الشبيح الرقيب أول أحمد هيثم محمود مساعد الانضباط للاطمئنان عن حالتي الصحية وكان هناك شك عند مدير السجن ومساعد الانضباط أنَّ لجنة أمنية ستزور السجن للاطلاع على ما حصل معي والأسباب التي أدت الى ذلك. بدلاً من إرسالي إلى دمشق كما علمت من أحد الرقباء وأنا في الزنزانة إذ سأله الشاب الذي أحضروه إلى زنزانتي قائلاً لماذا نحن هنا؟ أجاب الرقيب من المتوقع أن يتم تحويلكما إلى دمشق. تم معالجتي ولكن أجواء السجن قد هدأت تقريباً ولم يطل الوقت حتى تم تغيير مدير السجن ومساعد الانضباط. وأتوا بمدير جديد وتم تعيين رقيب من رقباء السجن مساعد انضباط.

وبعد ذهابنا إلى صيدنايا علمنا أن كلاً من مدير السجن غازى ديوب ومساعد الانضباط هما سجينان في سجن المزة و تم طردهما من الخدمة بتهمة سرقة آثار.

وفى هذا المهجع الجديد التقيت بالعميد الركن «إسماعيل نادر» والذي عشت معه فترة في مهجع القضايا المختلفة ولكن وخلال ساعات تم نقله وظننت ان ذلك كان إخلاء سبيل له ولكن علمت أنه قد تم نقله إلى صيدنا في ريف دمشق عشت في ذلك المهجع وقابلت المدعو «رغيد الططري» والذي كنت أعرفه في مكان آخر كان هذا الشاب دمث الأخلاق ومسالم وذو طبع هادئ ورزين وهو من مدينة دمشق وتوجد له قرابة أرحام مع وزير خارجية سوريا «المعلم» ولا شك كانت الحياة قاسية في هذا المهجع الصغير

إذ كان بين ظهرانينا ثلاثة مساجين هم من المجانين كانوا مصدر إزعاج لرئيس المهجع ولنا جميعاوكان يوجد معنا شخص مسيحي من مدينة زحلة في لبنان ويدعى «جورج سرور» وكان ذلك مصدر إزعاج لنا أيضا إذ يحاول أن يوشى بنا إلى إدارة السجن بتهمة الصلاة وقراءة القرآن أمضينا فترة كلها عذاب على الرغم من وجود أشخاص يمكن العيش معهم والتفاهم وذات يوم وفى لمحة بصر شعرنا أن باب المهجع قد تم فتحه فجأةً وشعرنا بفزع وذهول ماذا سيحل بنا؟

وصدر إلينا أمر بالخروج جميعنا وحالاً خرجنا مذهولين ووقفنا إلى جانب جدار المهجع متجهين إلى الحائط صدر إلينا أمر بالجلوس ومن ثم صدر إلينا أمر آخر أن نرفع رؤوسنا ونفتح أعيُننا وإذ نحن أمام رجل طويل القامة أحلس الرأس ذو شوارب طويلة و أخذ يسألنا الواحد تلو الآخر عن تهمته وبعد أن أنهى الاستفسار، قال لنا ستنتقلون إلى مكان مريح وأخذ يُحدثنا بكلمات وادعة وطمأنينة وأمرونا أن نحزم أمتعتنا ونجمع حوائجنا استعداداً للرحيل، أخذ الشباب بنقل حوائجنا ونزلنا في مهجع مكون من غرفتين إحديهما مغلقة أي لا يوجد بها فتحات في السقف والأخرى مفتوحة. كان ذلك مفرحاً لنا إذ تجمعنا جميعاً في الغرفة المغلقة حيث لا يوجد أحد يزعجنا بالليل من الحرس الموجود على سطح المهجع. إذ كان لا يسمح لنا بالحركة أثناء الليل وإذا ما لاحظ ذلك فإن العقوبة قاسية ومذلة وليس لها سقف معين، أصبحنا الآن في طمأنينة وظننا أنّ الأمور في تحسن وأن أمر ما قد حصل. وبعد فتره من الزمن صدر لنا أمر أن نحزم أمتعتنا ونستعد لمغادره المهجع إلى مكان آخر حزنا كثيراً وكنا ننتظر من الصباح حتى نهاية الدوام وعندما نسأل يقال لنا استعدوا لإشعار آخر و أثناء ذلك سمعنا من يسألنا عن أسماء هل هي موجودة عندنا. لم يكن يوجد عندنا من هو من الأسماء المطلوبة.

وتواردت الاستفسارات ولاحظنا فيما يعد أن أعداد من المساجين يتقاطرون في صف ويسيرون إلى مكان آخر ولاحظنا أن أكواماً من البطانيات والملابس القديمة يتم إلقاؤها بمحاذاة مهجعنا أدركنا أن هناك حركة في السجن ولكن ما ماهيتها لا نعرف؟

وأخيراً جاء من يسألنا عن أسماء أشخاص هم من الذين بيننا وأمَرهم بالاستعداد

للسفر وفي الفجر الباكر تم أخذ الجميع وبقينا نحن ثلاثة لم تُدرَج أسماؤنا، اثنان أنا وآخر فلسطيني نتبع في قضايانا إلى أمن الدولة والآخر إلى الأمن العسكري ولكن سرعان ما حضر رقيب وأخذ ثالثنا. وبقيت أنا وذلك الشخص المشلول أنا أدركت أن الدور سيصلنا إذ الآن يأخذون من لهم علاقة بفرع الأمن العسكري ويبقى فرع أمن الدولة مستنفراً إلاّ أنَّ الذي كان معي يخالفني الرأي ويضع افتراضات وتصورات سوداوية لم أعر انتباهي كثيراً لتحليلاته كنا نواجه مشكلة إدخال الطعام كنت لا أقوى أنا على إدخال الطعام وكما هو لا يقوي على ذلك وكنا نكتفي بأي شيء قليل من الطعام حتى لا يسكب شيء منه على الأرض ونواجه العقاب والشتم والتأنيب بعد انتظارنا ونحن في مكان خرب بعد خروج زملائنا وعندنا أكوام من حاجياتهم والتي أمروهم أن يتركوها.

أتانا من يقرع بابنا ويفتح الشّراقة كان زميلي هو الأقرب منه سأله عن اسمه فأجابه وكنت في مكان أراقب الأمور ومن ثم دعاني فحضرت وسألني عن اسمى فأجبته ثم أغلق الشراقة وذهب، أعلمت زميلي أنني لاحظت كشف أسماء بيده وجاء ليتأكد من وجودنا في أي مهجع نحن وفي صبيحة اليوم التالي فتحوا علينا الباب وأمرونا أن نُخرج أمتعتنا وبعد أن أخرجت قسماً من حاجياتي استأذنته لإحضار بقيه حوائجنا لأن زملاءنا تركوا لنا الكثير من مؤن وحوائج كانت في مهجعنا. أخذني جانباً وكان شابًّا برتبة عريف وقال لي كم سنه صار لك في تدمر؟ أجبته ستة عشر عاما. أصابه الذهول لأن تلك الفترة قريبة من عمره، قال لا لن تبقَ في تدمر أكثر من ليلة واحدة.

فعندما سمعت بذلك كنت على أتم الاستعداد أن أتنازل عن تدمر كلها لو كانت ملكاً لي.

أخذت بطانية حرام لي وكان خير رفيق في غربتي في مواجهة البرد القارس قال لي لماذا تأخذه أصريت على أخذه وقلت له لأنني مريض وأخاف البرد كما أخذت كيساً من القماش بداخله ملابسي والتي جاءتني من أهلي خلال الزيارة ثم سألني هل أنت مريض؟ قلت له نعم أنا مريض. ثم استدعى أحد شبيحتهم وأمرهُ أن يحملني والآخر حمل الحرام والملابس ولكنني كنت لا آمن جانب ذلك المجرم خشية أن يرميني أرضا لذا

كنت ممسكا به جيداً. خشية غدره وضرره انتهى بنا المطاف إلى باحة كبيرة وكنا نجلس أرضا ولا نخشى أحد لأننا أصبحنا على يقين بأن تدمر قد أصبحت من ذكريات الماضي. كنت أشاهد الشرطة العسكرية وهم يفتشون حوائج السجناء ويأخذون وقتاً طويلاً لذا عمدت إلى التخلي عن كل ما بحوزتي من أغراض حتى الدواء والحليب لأُجنِّب نفسي مشقة التفتيش وللإسراع في العودة إلى مهجع يضم جميع من أنهى عملية التفتيش، لقد لاحظني أحد الرقباء وتوجه صوبي وطلبني أن أتبعه وفعلا تتبعته وفتّش ما تبقى من حوائجي وكانت قليلة جدًّا وبعد ذلك تعرضنا إلى أمر يخدش رقة الحياء وعفة المرء إذ طالبونا أن نخلع ملابسنا حتى الداخلية منها وفعلا فعلنا وبشعور ذاتي وضعت يدي على محاشمي لأخفى عورتي استحياء وإيماناً ولكن صاح بى موبخا وزاجراً. فما كان على إلا أن أستجيب لذلك الوغد عديم الحياء والإيمان ولا عجب لأن أخلاقهم جميعا سقيت بماء الرذيلة والانحلال. أنهيت التفتيش ولبست ملابسي وتوجهت إلى المهجع حيث يضم ما تبقى من سجن تدمر العسكري وكذلك مهجع آخر مجاور لنا وذلك على ما أعتقد في الشهر الرابع من عام ٢٠٠١ م ألفين وواحد. كان الحرام بالنسبة لي ولمن شاركني في الجلوس عليه فرج وراحة، إذ لا يوجد أحد قد أحضر معه مثل ذلك لأن الشرطة كانت تَحُول بين الناس وحوائجهم حتى يضعوا أيديهم عليها وغالبيتها جديدة وكذلك الملابس لأن الفترة السابقة كانت فترة رخاء تقريبا وزيارات بعد تعيين مدير السجن الجديد والذي لا أعرف اسمه حتى الآن.

يطول بنا الانتظار لأكثر من يومين ونحن لا نملك شيئا من أدوات الأكل كالمعلقة وأكواب الشاي.

كانت النفوس تقريباً عازفة عن الطعام والشراب لأن الخروج من تدمر يعنى لنا الخروج من لهيب جهنم لا بل أشد وطيسا لأنني ولله الحمد لم أحس بنارها كما أننا نطمع برحمة ربنا أن يحمينا منها ومن شدة وطيسها.ووارها

كنت لا أجد حرجاً في أخذ بعض لقيمات من الأرز عند حضوره بعد أن أغسل يديَّ فآكل شيئا منه لأقيت نفسي بعد طول الانتظار - وذات يوم وفى المساء فتحوا علينا

الأبواب وأمرونا بالخروج جميعا وأجلسونا أرضاً وأمرونا أن نرفع رؤوسنا ونفتح أعيننا وإذ نشاهد ذلك الرجل الضخم والطويل أحلس الرأس وذو شوارب طويلة وكثيفة. أخذ يخطب بنا وألقى كلمة غير صادقة في معانيها ولا في مضمونها ولا في عاطفتها لأننا طوال سنين عجاف أمضيناها في تدمر لم نسمع ذلك المديح وكما لم نسمع حُب الرئيس لنا وقيمة قدرنا في المجتمع كما قال وبعد أن أنهى كلمته طلب من يرد عليه رفعت يدي فقال لي أنا أعلم أنك أنت أكثرهم ثقافة وحيث أن الجميع قد أرادوا أن أتكلم أنا، سمح لي بالكلام وأبديت له أن الخلاف يحصل في كل المجتمعات ولكن يكون الرد الإحسان بالإحسان و الإساءة بالعدل وأبديتُ له أن أي خلاف في أي مجتمع عندما تكون النزوات الذائبة والمصالح الشخصية في حاله سبات فهذا الاختلاف يدل على حالة ايجابية في المجتمع لأن الكل يريد أن يبحث عن الحقيقة بطريقته الخاصة وحيث أن الحقيقة ليس لها إلا وجه واحد فإنهم جميعا سيلتقون عند الحقيقة ولو بعد حين، وأبديت له أنَّ كرامة الإنسان هي أسمي من أ ي شيء مادي وتعمدت أن أقدم دليلاً غير إسلامي لأنني أعلم أن ذلك يغيظهم فلذا قلت له إن المسيح عليه الصلاة والسلام قال ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان ولكنه أراد أن ينأى بهذا القول عن مدلوله ووجهته فقال نعم إن حزب الله في الجنوب تخلى عن الخبز مقابل الكرامة. وكما قلت له إن الوطن هو التاريخ وليس الملكية قلت له أن الذين يحمون الأوطان هم أصحاب التاريخ لأن كل شيء مادي يمكن تعويضه وحتى فقدانه يبقى أهون من أن الإنسان يفقد تاريخه وقيمه.

أردت أن أعلمه أن السجن وإن طال ليله فإنه ليس بمقدوره أن ينسينا قيمنا وحقنا المشروع في الكرامة الإنسانية وأن الأوطان ليست ملكاً لفئة أو طائفة بل هي ملك لكل من له انتماء شريف وماضٍ تليد، سأل الجميع هل أنتم تشاركون زميلكم ما قاله؟ أبدى الجميع موافقتهم وكان كلامي له مدعاة سرور للجميع حيث اعتبرها الكل أننا أُناس نفهم الحياة ونفهم مسالكها ونفهم متطلبات الفرد في الحياة ومتطلبات المجتمع من الفرد وأننا لسنا دواباً أو بهائم كما تعاملوننا لا بل إن للدواب حقوق ومعزة أكثر مما كنا نتلقاه على مدى عقدين من الزمن من قبل الكيان الأسدى الذميم وسلطته الغاشمة

الطاغية. كنا ننتظر الصباح بفارغ الصبر حتى كدنا نظن أنه ليس للصبح إشراق. أشرق الصبح الموعود بإشراقة الفرح والعتق من لهيب تدمر ومعاناتها القاسية حيث ضاعت سنون العمر في صحراء تدمر وكما ضاعت بسمة الأمل وديست تحت أقدام شبيحة الطاغية حافظ الأسد سيء الذكر وسليل وصنيع الطائفية والماسونية العالمية وأبنائها وأحفادها. خرجنا ونسمع نداء أصواتنا وكانت أسماؤنا أنا وزملائي أبناء قضيتي تقريبا آخر الأسماء، مما يجدر ذكره أن مدير السجن قد أعلمنا أن أيًّا منا هو أحسن من أي شرطي أو رقيب لذا إذا ما تعرض أحدكم للضرب أو شتم فليرفض الصعود إلى الباص حتى أحضر أنا هذه شهادة أزكى بها الرجل وأن عهده كان أفضل من كل من سبقه من مديري سجن تدمر العسكري.

لا بد أن أشير أن «غازي الجهنى» المدير السابق لسجن تدمر قد مات وأفراد أسرته بحادث سيارة وأن «فيصل غانم» المدير الأسبق لسجن تدمر قد مات أيضا بحادث سيارة ولم تكن له ذرية وأن غازي ديوب قد انتهى به الأمر إلى السجن والطرد من الخدمة العسكرية أليست هذه عدالة السماء ولا شماتة.

نقف في صف وتوضع قيود في أيدينا والسلاسل في أرجلنا ويأتي مسئول الدورية الذي سيصطحبنا ليتفقد القيود التي في أيدينا وللصدفة وجد يدي أصغر من إغلاقه القيد فأخرجها منه. فأعادني إلى الوراء ووضع لي قيداً منفرداً ولا تزال قدمي مرتبطة بالسلاسل مع من هو أمامي وركبنا في الباص هذه مسيرة قطار إذلالنا وهو أننا في مقبرة تدمر البشرية وأتونها الذي لم ينطفئ بعد.

أودُّ أن لا أنتقل إلى الأمام دون أن أسلط الضوء على محطات هامة في حياتنا في المهاجع وأن كل محطة هي مأساة في حد ذاتها وأن كل لحظة في تدمر تطوى في طياتها الإرهاب والإذلال المتوقع حدوثه إذ لا أمن ولا أمان في تدمر في أي وقت أو زمان.



١ - محطة إدخال الطعام :

ننهض في السادسة صباحاً إلزاميًّا دون تأخر أو تباطؤ ينصرف الكل في البحث عن آخر شخص في قائمة طويلة تريد أن تأخذ دورها في الذهاب إلى الحمام بعد ركود وجمود لمدة اثنتي عشرة ساعة. ينتظر الكل الدور وبعد الانتهاء من تلك العملية المعقدة والشاقة لكثرة الناس ومحدودية دورات المياه ننتظر إدخال فطور الصباح من خلال شبان تطوعوا لتلك المهمة الخطرة يبتغون الأجر والثواب لما يحيط بها من خوف ورعب إذ أن أيًّا من الشباب قد لا يسلم من بطش زبانية السجن دون ذنب أو خطيئة، حيث يطلب منهم الانبطاح أرضاً فينهالون عليهم ضربا بالسياط أو قد يتعرض أكثر من واحد للصفع المبرح أو الركل الموجع وقد تمر العملية بسلام أي أن أجواء الإرهاب قائمة. وأثناء إدخال الطعام صباحا يطلب المعلم أي من لاحظه الحرس الليلي يتقلب أو قد خرج من فراشه للذهاب إلى الحمام وقد يكون الضحية هو الحرس الداخلي من السجناء في المهجع لاتهامه من قبل حرس السلطة أنه نائم أو جالس.... أي أن التهمة جاهزة وليست قابلة للنفي.

يتم إدخال الإفطار ويتم توزيعه على مجموعات محددة ومعلومة وذات أرقام، يتكون الإفطار من بيضة واحدة لكل ثلاثة أشخاص أو حبة بطاطا (بطاطس) لكل ثمانية أشخاص أو ملعقة صغيرة من اللبن أو المربى أو الحلاوة أو حبات معدودة من الزيتون تأخذ كل مجموعة حصتها من الإفطار ويتم توزيعه على الأفراد وبالقرعة حتى لا يُظْلم أحد لقلة الطعام.

وهكذا هو الغداء والعشاء من حيث الإدخال ويتكون الغداء من البرغل وقد طُهِي قليلا ولا يوجد عليه أي مادة من الزيت أو السمن أي أنه غالباً غير ناضج تأخذ كل مجموعة حصتها وتوزع على الأفراد أو قد يكون الغداء من الأرز والذي غالبا ما يكون على ثلاثة أشكال قسم لا يزال نيًّا وقسم قد يكون معجوناً بالنشا وقسم قد يكون أحسن حالاً ولكن جميعها في إناء واحد وقد يكون الإيدام من صلصة البندورة (الطماطم)

ومعها قليل من البطاطس أو الباذنجان أو الكوسة ولكن بكمية قليلة. وقد يكون قد وقع عليها كميات من الذباب قبل أن تقرر إحضارالطعام في بلوات كما هي التى ينقل بها الحليب من المزارع إلى أماكن التسويق.

أما العشاء فقد يكون أيضا من البيض أو البطاطس أي يكون متشابها تقريبا لوجبة الإفطار أو شوربة عدس مطعمة بكميات من الحصى الناعم أو الرمل مما تسبب للكثيرين منا أن فقد نعمة الأسنان وقد نلجأ أحيان لتصفيتها للخلاص مما بها من رمل وإن نصيب كل فرد من الخبز ثلاثة أرغفة خلال أربع وعشرين ساعة وإن المجاعة قد تفرض على البعض أكل قشور البطاطس أو البيض ومن يحصل على قلة من الخبز من زميل له يكون ذلك عطاءً وجميلاً لا ينسى فضله. وقد يكون العشاء كما ذكرت مشابها للإفطار او معلقة طعام من لبنة أو ما يشبهها معلقة من المربى أو الحلاوة أو حبات معدودة من الزيتون الرديء أما اللحمة فقد يتم إحضارها مرة في الأسبوع وقد تكون غالبا من الدجاج وإن حصة الفرد الواحد قد لا تتجاوز خمسة عشر غراما وأن جل مخصصات السجناء تذهب إلى أفراد إدارة السجن من المساعدين والرقبا والأفراد والشبيحة أي إن هؤلاء ياكلون اللحم طوال أيام الأسبوع وكذلك هو حال مخصصات السجناء من الدوسير أي الفاكهة إذ تذهب إلى أولئك المذكورين أعلاه يتنعمون بها من بعد جوع أصابهم وهم في بيوتهم أي أن غالبيتهم من الرعاع والرعاة أو من الطبقات المنحطة والعميلة للسلطة منذ خلق الظهيرة أي أنهم عبيد لمن غلب.



٢- المحطة الثانية التنفس أو التفتيش:

وبعد تناول الإفطار وفي أوقات الصيف يتم الاستعداد لوزر آخر أي التنفس وقبل أن يحل قد نتوجسه ونستشعره من خلال الصراخ والبكاء والعويل في باحات ثانية هنا تتوقف الأنفاس وتزداد ضربات القلوب ويخيم الصمت الرهيب على المكان والكل ينتظر ذلك اللقاء وعما سيسفر عنه من مآسٍ وضحايا يزداد الخوف عندما تفتح باب الباحة ويدخل منها الجلادون من الشرطة العسكرية وبأيديهم السياط ومعهم الشبيحة وتفتح أبواب المهاجع بحسب أرقامها وينتقل صوت البكاء والعويل إلى ساحة الباحة والكل يترقب قربه وكأنه موج بحر هائج ومخيف يقترب رويدا رويداً منا إلى أن يحل بساحتنا ويصطف الناس كل صف خمسة خمسة. وينطلقون إلى الأمام ويجلسون الأرض في خمسة صفوف ويتم اختيار الضحية أو الضحايا وتنطلق الأصوات أصوات الاستغاثة أصوات الاستعانة أصوات الاستذلال ولا يقتصر الأمر على الضحية أو الضحايا بل يبدأ الصفع والركل لكل من والاهم أو كانوا قريباً منهم وأن العذاب قد يصيب رئيس المهجع أو المسئول الصحي أو كلاهما وبعد فترة وجيزة يؤذن للناس بالقيام ثم يؤذن لهم بالدخول والسياط تنهال عليهم من كل جانب وأن من الشباب البواسل من يقف صفًّا ويتلقون الضرب ليسمحوا لغيرهم بالدخول سالمين، أما التفتيش فهو نفس المعاناة والأخطار والتفتيش يكثُر في الشتاء إذ لا وجود للتنفس وإن كان في فصل الصيف أقل حدوثا منه في الشتاء، نستشعر التفتيش من صوت أنبوب معدني يستخدم في الدق على الأرض وعندها يعمد الجميع لإزالة كل أكياس الملابس والحاجات عن الجدران وتنقل أغطية النوم إلى وسط المهجع ويترقب الجميع معركة الهوان والذل مع كلاب بشرية مسعورة يطلق لها العنان لتنهش تلك الأجساد البريئة والسقيمة، ويخرج الكل كما هو الحال في التنفس ويتكرر مشهد العذاب كما هو الحال في التنفس لخلق أجواء الرعب والمذلة في قلوب أشخاص عزل لا يملكون أي وسيلة للدفاع عن نفسهم يدخل الرقيب من الشرطة العسكرية وحوله لفيف من الشرطة ومعه رئيس المهجع والمسئول الصحي

ويأخذ يدُق أرض المهجع بتلك الأنبوبة الحديدية وكذلك الجدران للتأكد من عدم وجود حفريات للهروب بالرغم من علمهم المطلق أن ذلك لم يحدث من قبل كما لا يمكن أن يحدث في المستقبل لعدم وجود أيه أدوات حادة للحفر ولعلمهم أيضا أن السجن محاط بسياج من الألغام وحراسة من الدبابات والوحدات الخاصة أي أن التفتيش والتنفس لا يخرجان عن دائرة الإرهاب والإذلال المستمر.



محطة الحرس الليلي في المهاجع سجن تدمر العسكري:

يفرض علينا النوم في تمام الساعة السادسة مساء نفترش الأرض ونلتحف أغطية لا تقي برد الصحراء القارص وعلى حدود عشرين سم وأن توضع الأقدام لكل فرد بمحاذاة رأس الفرد الآخر ويتم النوم على جنب إذ يمنع النوم على الظهر وتغطى الأعين بطماشات لا يظهر من خلالها شيء من الأعين ولا يسمح بتغطية الرأس بغطاء النوم أو بغطاء خاص للرأس وتبقى الرؤوس على الدوام حليقة وكذلك الشوارب والبرد يأخذ نصيبه من تلك الأجساد ويهزها بقشعريرته هي أصداء الآلام في الأطراف والصدور وتضبط تلك الأمور من خلال حارس ليلى من المساجين في مناوبة تمتد لساعتين يقف خلالها باستعداد دون السماح له بالجلوس يراقب كل حركة في المهجع وكذلك الطماشات حول العيون ويقف على أسطح المهاجع حارس من الشرطة العسكرية يراقب المهاجع من خلال فتحات في أعلى السقوف وكذلك من خلال فتحات جانبية في كل مهجع. ويأتي الحرس من الشرطة العسكرية و قدتسلل لواذاً ليقترب من تلك الفتحات الموجودة في سقف كل المهجع دون أن يشعر به أحد من النيام أو الحرس الداخلي من المساجين ويرقب كل حركة تحصل تحت مراقبة عينيه وعندما يضرب بقدمه على الفتحة في السقف فيهرع الحرس الداخلي فيحييه تحية عسكرية قائلا حاضر حضرة الرقيب حتى ولو لم يكن رقيبا يسأل الشرطي الحرس الداخلي ماذا عندك ولك فيجيبه الحرس الداخلي لا شيء حضرة الرقيب الكل نيام . ينهال عليه بالسباب والشتائم وقذف العرض والتعرض بكلمات بذيئة تلامس شرف وعفاف الأم والأخت، وقد يقول له اذهب يميناً أو شمالاً فيتحرك الحرس الداخلي حسب الأوامر ويقول له هذا هذا هذا لا هذا أيوه يقول الشرطي علِّمْه أي أَخبره بعذاب له منتظر. أي في الصباح عند إدخال الطعام أو في التفتيش أو التنفس وقد يعلم الحرس الداخلي أيضا بعقوبة منتظره ليس لها حد أو سقف أو شكل وعند وجود معلم دائم أو معلم من قبل نفس هذا الحرس وفى مناوبة سابقة يسأله أين المعلم فيشير له عن مكانه فيطلب عدد من السخرة أي من المساجين فيحضرون جالونات

كبيرة من الماء و يؤمرون بسكبها عليه وهو نائم وعلى غطائه وكذلك تلامس من هم في جواره ولا يسمح له بتغيير ملابسه أو الحركة أو الصراخ وقد يكون العقاب أن يُطلب عشرة سخرة ويقفون على جسمه وهو مُستلقٍ على الأرض ومن الأهوال أنه عندما يطلب الحرس الرسمي من الحرس الداخلي أن يذهب يميناً أو شمالاً ويقول له هذا هذا وخلال ذلك الكل يعتقد أنه هو الذي سيقع عليه العذاب، هذا موجز لصفحات سوداء في تاريخ تلك الأسرة الأسدية السلطوية التي استباحت كرامة الإنسان بابتذال وامتهان ودون وازع من الخلق أو رادع قانوني يحمى كرامة الإنسان وحقه وملكيته، أليست هذه وغيرها كافية لأن يقوم الشعب ويطالب بأبسط حقوق الإنسان في الحياة، وأنه إذا ما قام تتناوله الألسن والأقلام المأجورة بأنه إرهابي عميل ومجرم أو أو أو، تهم مفبركة وجاهزة للاستعمال وفقاً للحال وللزمان وعبر قنوات الرخص والابتذال.



محطة الأعمال اليومية في المهاجع سجن تدمر العسكري:

المهاجع على الرغم من شدة العناء وشدة الإرهاب تبقى خلايا نحل تعمل طيلة النهار لتلبية حاجات الناس من الضروريات والحاجات المفقودة والضرورية للاستعمال ومن الحوائج التي كنا نبحث عنها خيوط ناعمة نرتق بها أسمالنا البالية والتي مضى عليها أكثر من عقد من الزمن دون أن يلامس أجسادنا بدلاً منها من ملابس جديدة وبديلة عنها. يهتدي الشباب لصنعها من أكياس النايلون والتى نحصل عليها من خلال ما فيها من خبز تقطع بشكل طولي ثم تلف وكأنها كتبوله من غزل. ثم يحضر لوح من الصابون العسكري ويثبت عليه شنكل ويستخدم كمغزل يتم تحريكه بطريقة ميكانيكية ثم نحصل على حاجاتنا من الخيوط والتي تستخدم في صنع الحبال وصنع بالة لحفظ الملابس وتعليقها وكأنها شنطة وتستخدم أيضا في صناعة الأحذية بعد حياكتها ثم تكون واجهة وتثبت على قاعدة شخاطة بلاستيكية وقد اهترأت. ومن صناعات النسيج أن يتم تفكيك كنزة قديمة ثم يعاد غزلها وحياكتها من خلال سنارات تصنع من مادة البلاستيك المستحضر من بقايا أدوات الطعام الخربة وتقص بواسطة خيط من الحرير الذي يكفى ليقص أي شيء معدني أي لحسن استخدامه كمشرط ومن الأمور التي يتم صناعتها معالق بلاستيكية أيضا من بقايا البلاستيك ويقص من خلال خيط من الحرير لا بل أن الأمر قد يتعدى ذلك فيعمد الأطباء لصناعة سماعة قلب وجهاز لقياس ضغط الدم وقد يفي بالحاجة إلى درجه تفوق الثمانين بالمائة أو بأكثر ومن الصناعات التي شاهدتها حيث يتم تصنيع الخل مما نحصل عليه من الشاي اذ نوفره لتحضير الخل اذ يترك بعد تغطيتع بقطعة من الشاش لمدة أربعين يوما وقد يتم إضافة قليل من المربى إليه لزيادة حلاوته أو حبات من العنب إن وجد أو ما شابهه من الفواكه وبعد أربعين يوما تتكون عليه طبقة سميكة تسمى امية وقد رأيت من يأكلها وأن الخل يتم إضافة كمية قليلة منه إلى البرغل لتحسين طعمه وتكون وجبتنا الوحيدة في الإفطار في رمضان وسرا لان الصوم والصلاة وقراءة القرآن جميعها محرمة في تدمر ومن الصناعات الغذائية

أن يحفظ قشر البطيخ أي الجبس في قليل من الخل والماء والملح اذ يصنع منه مخلل أيضا نستخدمه في تحسين مذاق الطعام والذي يكاد لا يؤكل لولا الجوع إذ أن الجوع هو خير إدام كما يقال وكذلك هناك صناعة غذائية تتكون من بقايا الخبزات وجد يتم عجنه جيدا ويحفظ في قطعة من النايلون من أكياس الخبز ويلف لمدة من الزمن أيام أو أسابيع ليتم اكله لمن رغب في ذلك وتسمى هذه الصناعة خمخمينة بلهجة السجناء ولا يقدم على أكلها إلا من ألزمه الجوع أن يأكلها ولقد تم تصنيع طرف من قبل المهندسين لشخص قد بترت ساقه وأيضا شاهدت تصنيع مضخة ماء لاستعمالها لتحويل الماء النادر والقليل إلى مهجعنا وكذلك يتم تصنيع جوارب من الصوف بطريقة الحياكة كما هو الحال في صنع كنزه، وكذلك يتم صناعة جوارب صوفية من بقايا الصوف إن وجد ومن الأعمال التي تزاول في المهاجع هو حفظ القرآن وإن كان قليلاً في عهدي ولكنني كنت أنكب على حفظه وتثبيته ولقد وجدت مشقة ولكن عليَّ أن أُقدم وافر شكري وتقديري وتمنياتي الطيبة لكل من ساعدني في حفظه وهناك من يداوم على حضور جلسات للفقه وجلسات لشرح القرآن وتفسيره وهناك ورشات متعددة للاستفادة من تعلم المهن كالخياطة وصنع الحلوى ودورات في التمريض وفي الخط أي الاستفادة من تعلم ما يمكن تعلمه من خلال أصحاب المهن والعلوم وفى فترة سابقة عندما ضاقت بنا الدنيا حيث أن ملابسنا قد أصابها التلف والتمزق، لقد عمدنا لشراء أكياس من الطحين الفارغ ويصنعون منها بنطالاً وقميصاً على أحدث موديل ويتم صباغتها عن طريق قشور البصل أو ما تحصل عله من تراب أحمر من خلال ما علق بالبصل أو من خلال المطاط الأسود بعد حرقه وهكذا هي الحاجة أُمُّ الاختراع.كما يقولون أيضا.

لا بل وقد يعمد الأطباء والصيادلة لصناعة مركب دوائي يستخدم في مداواة الالتهابات والتي لا يوجد مضادات لمعالجتها ولقد تم تحضير مركب وعالجوا به أُذُني التي أصابها التهاب حاد كاد أن يصل إلى الأذن الداخلية ولكن الدكتور"حسن أحمد عجم» والذي أذكر له طيب صداقته ومعشره إذ كنت وإياه نتناول الطعام سويًّا وقد

غادرنا في عام ١٩٩٥م وكان لا يظن بذلك الفرج ولكن الله قد من عليه بالخروج من ربقة ذلك العذاب المهين والمستديم وأتمنى له السلامة إذ هو من مدينة حلب التي هي اليوم ساحة للوغى والقتال ومن الأمور التي ينبغي أن لا أغفلها هي أعمال تنظيف المهجع وغسل أدوات الطعام وهى أعمال يقوم بها شباب قد تطوعوا لذلك العمل ثوابا واحتسابا.

ومن التضحيات والتي أبصرتها وتحصل عندما يطلب معلم من قبل الجلادين تجد من يتطوع ويرمى بنفسه فداء لشخص آخر قد لا يعرفه جيدا أو لا توجد بينهما صداقة حميمة وهذه أمور في غاية التضحية إذ أن العذاب قد يتجاوز مئات السياط وقد ينجم عنه كسر بعض الأطراف أو أمور من السوء لم تكن في الحسبان ومن الأمور والتي شاهدتها عندما يطلب إحضار شخص للإعدام وقد أصبحنا نعرف تلك المواقيت إذ يأخذ جزءا من الوقت ليصلى ركعتين للشهادة وقد يرمى بملابسه الجيدة أو الحسنة أو المتوسطةليستبدلها بملابس متهرئة حتى يترك ذلك الصنيع المحمودة عواقبه.لغيره ممن هم في حاجة للملابس وأن هذا الفعل وفي هذه اللحظة يعد من المآثر التى يقل أو يندر مثيلها في ساعة يطلب فيها المرء إلى أعواد المشانق.

كما أسلفت لا أستطيع كما لا يستطيع أي إنسان أن يحيط بكل المآسي التي هي نبع يتدفق ومحيط هائج لا ينضب من العذاب والهوان في كل لحظة أو ومضة عين، تدمر مقبرة جماعية لأجساد بشرية حية وآتون لم تنطفئ ناره بعد وهى نار الظالمين الآن تحاصرهم في أوكارهم وجحورهم ذلًّا وخزياً وعاراً ولن يجدوا عنها من محيص وقد أنزلها بهم من قبل فرعون الشام حافظ الأسد وخليفته بشار وريث المجازر وقاتل الأطفال والأبرياء على شعب أعزل لم يعرف في تاريخه الذل والامتهان كما عرفه في هذه الحقبة السوداء من كيان الأسد المصطنع وسلطته الغاشمة وزبانيته المارقة الظالمة.

محطة قطار الإياب من سجن تدمر العسكري إلى سجن صيدنايا في ريف دمشق:

نغمض أعيننا عن مآسي تدمر وهولها وهلعها ونطمر أحزاننا في رمال صحرائها ونتناسى آلامنا وجراحنا من شدة فرح العتق من جحيم تدمر وربقةاستعمارها الجميع يأخذون أماكنهم في باصات عسكرية ويأتي بى السجان لأكون آخر من يصعد بعد أن وضعوا لي قيداً خاصًّا بكلتا يدي وسلاسل بقدمي يتصل بآخر شخص من أمامي وذلك بعد أن لاحظوا أن يديَّ وقد خرجت من ذلك القيد لصغر حجمهما، يأمر آمر الدورية أن الجميع يحصروا أنفسهم إلى الأمام حتى يفسحوا له الجلوس في مؤخرة الباص وكان مكانه ملاصقاً لمكان جلوسي وقد حصل تأخير في حركة الباصات فاستفسرت منه إن كان عطلاً قد حصل في مركبتنا حبًّا منى وشوقاً لمغادرة ذلك المكان والتأكد من أن انطلاقنا هو أمر حتمي. أجابني أن هناك سيارات ضمن القافلة معدة سلفاً لمثل هذا الأمر في حال حدوثه لم يطل انتظارنا بعد ذلك حتى أقلعت القافلة ومحروسة بآليات مسلحة تحيط بالقافلة من الأمام ومن المؤخرة، يسألني ذلك الرجل من أين أنت؟ أجبته أنه من غير المسموح لي أن أعلمك قال لي من الذي يمنعك عن ذلك. قلت له أوامر المخابرات. أجا بني لا يوجد ممنوع كان امتناعي عن إجابته خشية أنه كان يريد استدراجي لأفصح له عن مكاني ولكن بعد أن طمأنني أجبته وكان ذلك فاتحة لحصول معرفة بيني وبينه بالرغم من حداثة سنه وبعد أن قصصت عليه وقائع عائلية كان الشاب متسامحاً معنا إذ لم يفرض علينا أن نعصب أعيننا إذ كنافي شوق لرؤية السماء والأرض ومعالم الطريق بعد أن عزَّ علينا ذلك طوال عقدين من الزمن تقريباً وأكثر من ذلك بالنسبة لبعضنا كان الباص يعج بالأحاديث والأصوات وتعارف الناس فيما بينهم كان يشارك الجميع في المزاح والحديث كذلك بالنسبة للذي كان معه.

نطوى الأرض في سيرنا نحو صيدنايا وبعد مرور ساعتين وأكثر تقريبا دخلنا في أطراف مدينة تل منين وقد لاحظت تغيراً إذ العمران الفاره والأشجار التي تغطى جوانب الطريق وكأننا خلقنا توًّا ونبصر هذه الدنيا قد نسينا طعمها وكما نسينا مذاقها وشكلها تمض بنا

القافلة حتى نقترب من سجن صيدنايا ومن ثم نتوقف عند مدخل السجن لاستكمال بعض الإجراءات الأمنية هنا نعصب أعيننا ونمتنع عن الكلام قطعيًّا وبعد أن توقف الباص وفتح باب الخروج كنت أول من هبط من الباص إذ تلقاني شخص وأخذ بيدي سمح لنا أن نزيل الطماشات التي كانت تعصب أعيننا. ونتوجه إلى مبنى ضخم وكأنه قلعة وفي رأس رابية وبعد التأكد من أسمائنا وتسجيلها بقينا ينتظر كل منا مكان مهجعه الجديد تم توزيعنا على مهاجع مختلفة ولكن ضمن جناح واحد وأغلقت على أثرها الأبواب. أحضروا لنا طعام الغداء وكان ولا شك أفضل مما كان يقدم لنا في تدمر لا بل لا توجد مقارنة البتة. كان إغلاق الأبواب إجراءً مؤقتاً كما علمنا ممن سبقونا وذلك حتى لا يحصل انفلات أو تفلت أحدهم على حد اعتقادهم. كان ينقصنا أدوات منزلية لنستلم بها الطعام الذي يحضرونه لنا، كنا نشترى ذلك من رجال السخرة الذين هم يؤمنون لنا ذلك بالاتفاق مع مساعد الانضباط المدعو «محمد حسون» إذ كان لصًّا كبيراً ومتمرساً في أساليب النصب والاحتيال إذ أنّ تلك الأدوات هي ملك المطبخ الذي يتبع للسجن. لم نقف عند ذلك بل كنا ممتنين لتلك التسهيلات لضرورة حاجتنا لأدوات الطعام. كان الكل ممن سبقونا يتحدثون معنا من خلال فتحات للتهوية موجودة في أسفل حائط المهجع الذي يطل على ممر طويل، تلقينا جهاز راديو من مهجع هو ظهير لنا ومن خلال منور بينهما كان ذلك أيضا بمثابة فتحة من السماء نطل بها على آفاق الكون سمعنا أصواتاً لم نكن نسمعها في عالم القبور البشرية في مقبرة الكيان الأسدى البغيض والذي تم دفننا فيه ونحن أحياء في أفران تدمر التي كانت تكوى وتحرق أجسامنا وأرواحنا دون أن يعلم عنا أحد.

ويطالب بنا أحد حتى من المقربين من أهلينا إذ كانوا يهددونهم بالاعتقال وترويعهم لأننا نحن على حد زعمهم قد ارتكبنا جرائم خطرة على الدولة الأسدية وأمنها ولا يسمح لأحد أن يسأل عنا لا بل كانوا يطالبونهم أن ينسونا وأن يتبرءوا من أفعالنا والتي هي منارات للكرامة والقيم و لا تقاس ببشاعة أي تصرف من قبل رئيس مفرزة أمنية في منطقه نائية إذ كان سيداً مطاعاً مخاف الجناب ومهاب الوجود حتى وتقدم له الرشاوى والهدايا والولائم تقرباً وتودداً ودرءاً لشره وكيده وبطشه المطلق الذي لا يحده قانون أو شرف أو أخلاق.

تمضى بنا الأيام وتفتح لنا الأبواب وننطلق في الممشى في ممر طويل وتنطلق أقدامنا بالمسير بعد أن أقعدها وعقلها قيود تدمر التعسفية والإجرامية.

عمدت لشراء مذياع أطل من خلاله على أمواج الأثير وتحمل لنا أوضاع الكون وأخباره وكل مستجد علينا منعنا من سماعه واشتقنا لمواكبته وما يحمل لنا من معانٍ وأخبار واشتريته دون خيار لي في نوعه أو قيمته لأنه لا يصل إلينا إلى من خلال سماسرة يتعاملون مع أفراد الشرطة العسكرية في السجن كنت مسروراً وأنا أستمع إلى أخبار «لندن» وأخبار «مونتى كارلو» وأخبار المحطات العربية التي يصل إلينا بثها، وكان لنا أن طلبنامن إدارة السجن بإحضار تليفزيون لنا لنطلع من خلاله على حياتنا الجديدة والتي عادت لنا بعد يأس.

كانت هناك معارضة من قبل البعض إذ لا يريدون وجود تليفزيون لأنه قد يفسد الأخلاق وينشر الفسوق والعصيان!! جاء التليفزيون حتى أن أحداً لم يرفض مشاهدته من أصحاب المغالات ا الفكرية كان التليفزيون يوضع في الغرفة رقم (١١) في كل مهجع لأن كل مهجع كان يضم عشرة غرف كل غرفه حوالي ٧ م × ٥ م ولم نشعر بضيق بعد هذا الفرج الرباني.

يوضع التليفزيون في الغرفة رقم(١١) من العاشرة صباحا ويحضر إليها من يرغب في مشاهده التلفزيون ويحضر معه كرسيا أو بساطاً ليجلس عليه ويبقى التلفزيون حتى قبل السادسة مساء موعد إغلاق الغرف ويوضع في الغرف ليلاً حسب الدور بين الغرف وقد اعتاد الناس أن يدعوا من يريدون إلى الغرفةالتي يوجد فيها التليفزيون ليلاً وغالباً ما يتناولون العشاء جماعيًّا أو في مجموعات حسب الألفة في الغرفة. لا بل وقد تقدم أطباق الحلوى والمصنوعة على أيدي أفراد المهجع والتي قد تكون كنافة نابلسية أو هريسة ويتقنون في صنعها إذ يتم شراء مكوناتها من أماكن بيع بعض الحاجيات ضمن بعض الغرف ومن السجناء أنفسهم وقد يكون في أماكن البيع هذه ما يحتاجه السجناء ويكثر الطلب عليه من معلبات سكر وشاي.. الخ وفى الصباح ينقل التلفزيون إلى غرفة (١١) في تمام الساعة العاشرة صباحا. هذا الرخاء قد يكون وبالا على من لا يملك

النقود. وكان بعض الميسورين لا ينسونهم ممن يشترونه ويبقى بالرغم من ذلك حسرةً على من ضاقت يداه بسبب العسر. ولكن الأكثر حرجاً أن هناك نفقات جماعية يشترك فيها كل من هو في الغرفة الواحدة من لمبات وأدوات تنظيف ومكانس... الخ.

وأحياناً قد يكون أفراد الغرفة من المعسرين ولا يستطيع الفرد أن يدفع إلا ما يخصه من الدفع وأحيانا يوجد الشُّح حيث يرفض البعض أن يدفع إلاّ عن نفسه هذا عذاب نفسي وتحدٍ قاسٍ هو من صنع ما تتلقاه الإدارة من أوامر من الجهات الأمنية والتي لا تنظر إلى هذه الأمور حتى في أوقات المعاملة الهادئة والتي يتطلب فيها الأمر ذلك الهدوء وفقا لمصلحة السلطة وليست وفقاً لحاجات السجناء إلى هذا الهدوء.

ومن الأمور الميسرة في سجن صيدنايا العسكري السماح في الاشتراك ببعض الصحف لمن في مقدوره الاشتراك. كنا قد ورد لمسامعنا ونحن في طريقنا إلى تدمر أن الزيارات ستكون مفتوحة للجميع وأن من لا يسمح له بالزيارة من قبل أهله قد يسمح له بإيصال ما يحتاجه عن طريق أناس زياراتهم مفتوحة إلا أن ذلك لم يكن حقيقة وبقِيَت الزيارات على حالها، لذا عمدت ألا أُفرغ جَيبي من كل ما بحوزتي من نقود حتى لا أقع في إشكالية النفقات المشتركة والتي ينبغي على كل فرد في الغرفة أن يدفع نصيبه منها. طال انتظار زيارتي وحل شهر رمضان المبارك وأمضيت ذلك الشهر على طعام السجن إذ لم يكن في مقدوري ومقدور البعض الآخر من شراء فاتورة خارجية وبعد أشهر تقريبا تأتيني زيارة من قبل أخي وأخواتي الإناث ولم يكن في معلومهم ظروف الزيارة في سجن صيدنايا العسكري هي غير ظروف الزيارة في سجن تدمر. إذ في سجن صيدنايا مسموح للسجين أن يأخذ مبلغاً نقديًّا أضعاف ما هو مسوح به في تدمر حيث لا يزيد عن ثلاثة آلاف ليرة سورية في تدمر العسكري كما أن في صيدنايا مسموح بإحضار مختلف أنواع الأكل والمأكولات في حين أن ذلك لم يكن مسموحا به في تدمر.

لقد أحضروا لي ملابس وحليباً كما هو العادة في تدمر ولم يكن في حوزتهم المبلغ النقدي الكافي لحاجتي إلاّ أنه كان أحسن مما هو مسوح به في تدمر. فرجت أموري المادية ولو إلى حين ولكن لم يطل انتظاري للزيارة الثانية حتى حضروا لطرفي ثانية وكنت في حينها لا

أزال في مهاجع الإخوان وكانوا قد أحضروا لي راديو وعسلاً وزيتاً وزيتوناً إلا أن كل هذه قد تم سرقتها واختلاسها من قبل المساعد الموجود آنذاك ويدعى «على». في حين أن ذلك وحسب الأوامر غير مسموح به أن يحصل وإن حصل فذلك تجاوز وأن كل ما يحضره الأهل في الزيارة يسجل في قائمة حتى يكون السجين على بينة مما أحضره أهله إليه. كنت مستاء من ذلك المساعد وأصررت أن تعاد إليَّ حاجياتي المسروقة والمنهوبة وإن كان البعض قد يحصلون على حاجياتهم المسروقة مقابل فدية من المال يتم الاتفاق عليها وتدفع لذلك المساعد. أعلمت مساعداً آخرا وأبلغته عن حاجياتي المسروقة وأنني أُصر على عودتها دون أن ادفع أي مبلغ من المال وبالفعل فإن مساعي ذلك المساعد كانت ناجحة بعودة الراديو بعد أن رجاني بطريقة مهذبة أي سنعيد لك العسل عندما نضع يدنا على عسل في الزيارة أي بهذا المعنى وعندها قلت له اعتبروا ذلك كأن لم يكن ولك الشكر العسل والزيت نهبت وذهبت إلى منزل ذلك اللص الخبيث.المدعو المساعد علي

لم يكن قصدي هو العسل ولا الزيت ولا الراديو ولكن كان قصدي أن نعلمهم أننا لا نقبل لأنفسنا أن نكون صيداً مباحاً لأحد عندما نملك الوسائل التي نحمى بها أنفسنا وكما أننا لا نقبل الدنية أن تحل بنا ونحن أهل لدفعها ونبذها مهما بلغ الثمن واشتد الوطيس. أمضيت فترة في مهاجع الإخوان بعد أن تركها الآخرون ممَّن ليسوا من الإخوان، أردت أن أنتقل إلى مهجع آخر بقصد تغيير الجو وإن كان لي ارتباط في المعشر والود مع بعض الأصدقاء في سجن الإخوان ومن مختلف القضايا ولا يفوتني أن أذكر أن مساعد الانضباط المجرم محمد حسون وهو لص كبير قد أحدث فتنة بين جماعات من الإخوان وأخذ يؤججها بعد أن رفض البعض منهم أساليب الرقة والنهب التي يتبعها في شراء الفواتير وأخذ يسمح لبعض المساجين لزيارة مهاجع أخرى من الإخوان بقصد التحريض على من رفض مهادنته وفى هذه الأحوال قد عمد للاتصال بى وعن طريق رقيب مُوالٍ له يدعى تيسير حيث عرضوا على أن أكون رئيسا للمهجع والذي هو من الإخوان. أجبت الرقيب أنا لا أقبل لنفسي أن أكون ممسحة يستخدمني محمد حسون ضد الآخرين لتحقيق غاياته ونزعاته، وعلى أثر ذلك غادرت مهجع الإخوان وذهبت إلى مهجع آخر حتى أغير أجوائي وأتعرف على أناس جدد.



المحطة مهجع قضايا مختلفة في سجن صيدنايا العسكري:

وكالعادة ينطلق قطار السجن وليس كقطار تدمر سيء الذكر. انطلقت بأمن وسلام وحاجياتي يحملها أناس من السجناء العسكريين ويدعون سخرة ويحطون بها في مهجع قريب وننطلق من خلال بهو كبير يقع بين المهاجع ومكانها على جوانب البهو الأربعة وكل جانب يوجد فيه مهجعان كل واحد منهما ظهيراً للآخر. أضع حاجاتي في غرفة فيها فراغ لسكنى يوجد فيها أشخاص لا أعرفهم ولكن وجدت شابًّا طياراً وهو ابن عم «أبو سليم دعبول» رئيس مكتب حافظ الأسد ويوجد له زملاء آخرون في نفس الجناح وفي أماكن أخرى وبعد فترة انتقلت إلى مهجع آخر وأخيرا انتقلت إلى مهجع فيه أحد أبناء قبيلتي وشخص آخر من قبيلة الموالى عشت معهم في دعة وأمان وكان ابن قبيلتي ويدعى «محمود قهيدوا» كان شابا مهذباً وغيوراً، كان يلازمني دوماً ونحضر طعامنا سويًّا وكذلك كان ضمن مهجعنا المدعو خالد سليمان ومن قبيلة الموالى وقد أمضى قرابة سبعة وعشرين عاما وبهذه المناسبة أود أن أذكر عنه ما يلي : وبعد خروجي من السجن بشهر تم استدعائي من قبل فرع آخر للمخابرات العسكرية في مدينه سعسع بريف دمشق وكنت بصحبة ابن عم لي إذ يعرفهم لأنهم في نفس المنطقة وهو رجل معروف وعندما دخلت في مكتبه فاجأني قائلا «يخرب بيتك شو مسوي واحد وعشرين سنة» وهو عميد ويدعى «عدنان عاصي» قلت له سيادة العميد اختلاف الأحكام باختلاف الأزمان بالأمس من حضر إلى سجن صيدنايا أشخاص كانوا يقيمون في العراق ولهم جرائم بعرفكم ومعرفتكم فمنهم من كان يحظى بحماية بعث العراق ذو احترام ومقام هناك ومنهم من هو متهم بإرسال سيارات مفخخة إلى سوريا وعندما تم احتلال العراق من قبل القوات الأمريكية رفض أولئك البقاء في العراق والتعامل مع الأمريكان على حد زعمهم ونزحوا إلى منطقة محايدة بين الحدود العراقية والسورية، ومن هناك أبلغوا السلطات السورية بوضعهم ويريدون السماح لهم بالعودة إلى سوريا بدلاً من التعامل مع أمريكا أيضا على حد زعمهم والدخول إلى سورية على ظهور الدبابات الأمريكية

كما فعل بعض رجال المعارضة العراقية على حد زعمهم،بينما يوجد رجل بدوى وغير متعلم قد ذهب إلى العراق وتم سجنه لمدة سبعة وعشرين عاماً فسألني أسألك بالله أليس هو من محافظة إدلب أجبته نعم من إدلب. سألني أليس هو من قبيلة الموالى قلت له نعم هومن قبيلة الموالى. سألني بالله عليك أليس هو من قرية «الخيارة» قلت له نعم هو من قرية «الخيارة» سألني أليس اسمه خالد سليمان؟ قلت له نعم اسمه كذلك. أذكر هذه القصة كيف أن ذلك الرجل الأمني قد تذكر خالد سليمان بعد سبعة وعشرين عاما ومن خلال آلاف الأشخاص الذين قد اعتقلوا من محافظة إدلب ولذا أترك للقارئ الكريم إن يتبين ما يشاء من هذه المتابعة اللصيقة والدقيقة من قبل الأجهزة الأسدية لأفراد الشعب السوري علماً أن خالد سليمان لم يكن يمثل خطراً حاسماً ضد الكيان الأسدى وسلطته الباغية. ولقد اعتقل بعد زواجه بشهر أو أقل أو أكثر قليلا وعمد أهله أن أقاموا بيتا للعزاء له بعد ان تعذر عليهم معرفة حياته لا بل أيقنوا أنه قد مات وتشاء الأقدار أن تاتيه زيارة ومن ضمن الزائرين ابن له في سن العشرين اليست هذه مصيبة ليس لها مثيل في قاموس الحاضرفي عرف الإنسانيةوالدول التى تعترف بحقوق الآخرين من الآباء والأمهات والزوجات إذ لا تزر وازرة وزر أخرى ولكن لا عيب على من لا يعرف العيب اذ لم يتعلمه عند أهله أو يتمثله في اماكن صيغ الرجال

تمضى بنا الأيام في سجن صيدنايا وننهض في الصباح استعداداً للتنفس في الباحة الشاسعة دون أية مضايقة ويتحرك الكل كل حسب راحته وطريقته ومن الناس من يمارس لعبة كرة القدم ومنهم من يركض حول الباحة ومنهم من يمشون جماعا ت أو فرادى، وبعد انتهاء فترة التنفس نعود إلى المهجع ونحضر لأنفسنا وجبة الإفطار إذ يوجد لدينا كل ما نشتهيه ونبتغيه بعد حصولنا على مبالغ مالية من أهلنا في الزيارة، كنا نحصل على فاتورة خضار وفاتورة ندوة وفاتورة الخضار هي من مصادر الاحتيال والسلب إذ يتم إدخال ربع الكمية المطلوبة إلى كل مهجع ويأخذ الشبيح مساعد الانضباط محمد حسون ثمن الكمية المسجلة وبالأسعار التي يفرضها. ومن الملفت كيف نحفظ الخضار

من التلف إذ عمد السجناء على ابتكار براد يحفظ الخضار والأطعمة ودون الحاجة إلى كهرباء إذ يتم صنعه من الصناديق البلاستيكية والتي تأتى وبداخلها الخضار المطلوبة إذ توضع الصناديق فوق بعضها البعض وبالحجم المطلوب ومن ثم تربط من كل أطرافها ويتم تثبيت الصناديق فوق بعضها البعض ومن ثم يتم تركيب صندوق من الفيبر أي صندوق غير ذي مسافات من الفيبر الأ بيض وبعد ذلك يتم تغطية الصناديق البلاستكية جميعها بطبقة من الخيش ويتم خياطته ليكون غلافاً للصناديق ثم يتم تصنيع باب أيضاً من الخيش يتم خياطته مع الخيش الذي يكسو الصناديق وأمّا الطرف الآخر من الباب فيثبت به عروة من المطاط ويتم وصلها مع زر يثبت في الجانب الآخر من باب الصندوق وبذلك يغلق البراد.. يعلق البراد في الجدار أو في أطراف النوافذ ويوضع أسفله وعاء بلاستيكي كبير - يتم سكب الماء على الخيش فيتشرب الخيش الماء والفائض ينزل على الوعاء الكبير الموجود أسفل البراد، وكما يوضع في أعلى البراد إبريق أو وعاء بلاستيكي يملأ بالماء ويوصل به أنبوب بلاستيكي يؤخذ من السيرون وهذا يضمن تدفق الماء بانتظام في أعلى البراد ومن ثم ينتشر في الخيش وأن الماء لا ينزل على البراد لوجود الغطاء الذي هو عبارة عن صندوق فيبر سديم أي لا ينفذ من خلاله الماء يبقى البراد في درجة حرارة مناسبة لحفظ الخضار والفواكه والأطعمة لفترة أسابيع دون أن تتلف هذا ابتكار فرضته الحاجة إذ بموجبه لا تنقطع عنا الخضار والفواكه و الزبدة والبيض وبقايا الأكل.

أما الحلاقة فهي تختلف كليًّا عن تدمر إذ يحلق كل منا لحيته بواسطة ماكينة حلاقة تشك ويتم توفيرها ومتطلبات الحلاقة عن طريق مشتريات الندوة، أما في تدمر فإنه يفرض علينا حلاقة الرأس كل أسبوع وأما الوجه كل ثلاثة أيام وبواسطة ماكينات حلاقة الرأس وهى قديمة وغير صالحة للحلاقة إلا عن طريق النتف والعذاب وبعد تحضيرها ومحاولة صيانتها من قبل المساجين أنفسهم وأن يوم الحلاقة في تدمر يوم عسير ويوم هو نكد ولا يسمح لنا بشراء ماكينات جديدة وأن الماكينات المتوفرة للحلاقة قد تكون باستلام رئيس المهجع خشية استخدامها ضد الشرطة.

وذات يوم جاءني من يخبرني أن أبناء عم لي قد تعرف عليهم في فرع مخابرات فلسطين وقد علم أنهم سيحضرون إلى تدمر وأن أحدهم قد سأله عنى وبعد فترة أعلمني ذلك الشاب أنهم قد حضروا الآن وأنا لا أعرف أيا منهم لكونهم صغار السن وهؤلاء لا جرم لهم يستدعى زجهم في السجون العسكرية. هؤلاء شباب في ريعان العمر وقريتهم محاذية تماماً للحد الإسرائيلي في أرض البلدة المحتل من قبل إسرائيل في الجولان، تحركهم العواطف والحماس عندما يبصرون الدوريات الإسرائيلية تمرّ أمامهم وبجوار السياج العازل بين المنطقة المحتلة وبلدتهم، يتفا كرون بينهم ويتداولون الأمر كيف يمكن استهداف تلك الدوريات، يتطور الأمر عندهم ليجلبوا عددا آخر يشاركهم في عمليتهم في استهداف الدورية الإسرائيلية، يتسرب الخبر إلى المخابرات السورية ويتم إلقاء القبض عليهم وتوجه لهم تهمة تفجر الجبهة عن غير قصد ولو كتب عن قصد للبثوا في السجن مدة خمسة عشر عاماً ولكن تم سجنهم قرابة خمس سنوات مع عدم السماح لهم بمغادرة البلاد وكذلك منعهم من التوظيف لماذا حصل ذلك؟ حصل ذلك لحماية حدود إسرائيل والتي هي تحتل أرضهم وبلدهم ولا يسمح لأحد أن يعبر الحدود ليقاوم إسرائيل والتي هي تنهب خيرات الجولان منذ عام ١٩٦٧ م هذا الكيان الأسدى والذي يسوق نفسه من خلال الإعلام الكاذب أنه نظام ممانعة ونظام ثوري ونظام تقدمي!! حتى يحيط نفسه بسياج لا أحد يقترب منه وإلا من السهل اتهامه بمعاداته الثورة والنظام واتصاله بالأنظمة الإمبريالية والرجعية وغيرها من التهم والتي قد تمس كل طائفة حتى وإن كان الشخص المعارض هو من أبناء الطائفة النصيرية إن حدث ذلك.

وفى اليوم التالي صباحا تدبرت الأمر وكان لي أن أقابلهم في فترة التنفس في الصباح الباكر إذ كانوا في مهجع مغلق لا يسمح لهم أن يقابلوا أحداً وكان يتلبسهم الذعر والرهبة لما تعرضوا له من عذاب في أقبية فرع فلسطين للمخابرات الأسدية، أقبلوا عليَّ حال فتح الباب عليهم وهم لا يعرفوني من قَبل كما أن أحداً لم يخبرهم بسبب استدعائهم وكان الأمر مفاجئاً لهم ومخيفاً استطعت أن أحضر لهم بعض الحاجيات البسيطة والضرورية

لهم وعندما استأذنت من المسئول لمقابلتهم وذلك حال حضورهم وأعلمته أنهم أبناء عمى. أخذه العجب وقال لي يخرب بيتك شو كل العيلة ضد الحكومة؟ قلت له والله هؤلاء فتية صغار ولا يوجد أحد ضد الحكومة غيري أنا. كان لطيفا في معاملته مع كل السجناء إلا في حالة الخطأ، إنه كان شديداً نوعاً ما لأنه لا يستطيع أن يتحمل أي مسئولية إذ أن كل من يعمل في السجن هو مُخبر على غيره من العاملين هذا شأن القائمين في إدارة السجن فكيف الحال إذا بالنسبة لأفراد المجتمع أو السجناء، كل فرد في سوريا هو متهم حتى تثبت براءته. على غير القاعدة والتي تقضى أن كل فرد بريء حتى تثبت إدانته.

وعلمت أخيراً قد تم فرزهم إلى مهجع مفتوح في الطابق العلوي وكانوا مسجونين مع جماعة حزب التحرير الإسلامي وكذلك تدبرت الأمر وسمح لي بزيارتهم إلى ساعات وقد تناولت الغداء معهم ومع أصدقائهم في المهجع، لقد سررت كثيرا لمقابلتهم وكما هو أيضا فرحوا لملاقاتي لأنهم لا يعرفونني غير أنهم يسمعون أنني في السجن حاولت أن أنقل لهم الطمأنينة وأسهل عليهم الأمر وأن الفرج لا بد أن يأتي.

أتحسب أن الدهر يجرى وتيرة وأن ضياء الفجـر ليس مواتيَا

كنت أتواصل معهم بطرق مختلفة بالرسائل ومن خلال طرق يعرفها من هم حولي من أصحاب الخبرة والجرأة وذات يوم علمت بمرض أحدهم وإصابته بالسل وهو ابن عم لي وقد أحببته لصغر سنه وجرأته ولكنني لم أجد دواء أقدمه له أو اشتريه. هذه مأساة أي إنسان قد يتعرض للموت وتنعدم الوسيلة لإسعافه ومداواته.

ومن نكد الدنيا الذي كان يلازمنا حتى في المكان الذي يفترض أن نجد فيه الأمان بعد عقدين من الزمن كانت أيام شرور مستطيرة ولياليها كوابيس يضيق منها الصدر وتكاد تئن من ثقلها الجبال وتشيب الأطفال كانت إحدى ليالي الشتاء القارس وفى رأس قمة في منطقة صيدنايا من جبال القلمون شديد البرودة كنا وقد تدثر كل منا بغطائه من البطانيات ونقرأ أو يتسمع البعض للمذياع من خلال سماعة توضع في الأذن حتى لا

يتسبب في إ زعاج من حوله. كانت الكهرباء كثيرا ما تنقطع لأن الشرطة يستخدمون الكهرباء في التدفئة وذلك يسبب جهداً إضافيًّا على محولات الكهرباء الموجودة إذ يمنعون عنا الإنارة الكافية إذ نعمد ويحاول من يستطيع منا أن يجعل لنفسه إضاءة خاصة به وفوق رأسه. جاءنا فجأة المساعد والذي يدعى علي وهو من سرق بعض حاجيات زيارتي وأصررت على استعادتها ولم أحصل إلاّ على المذياع والذي قدمته لأحد زملائي بدلاً أن يأخذه ذلك الشبيح. صاح بنا بكلمات نابية وشتم بكلمات عاهرة تناول بها أعراضنا وأمهاتنا وفتح علينا الباب ووقف الجميع حال دخوله واستعرض في المهجع ومن ثم وجه لي سؤالاً ألا تعلم يا سيد طحان أن ذلك ممنوع؟ لم أتقبل أن يخصني بأي حديث بعد أن تعرض لأعراض أمهاتنا وكأني أنا المقصود بالشتيمة قلت له أنا ما أنا سيد أنا أكنى في هذا المكان السجين حسن الطحان ومن وصفك في صفة ليست فيك فقد ذمك.

وأنت تعلم لماذا شتمتنا وتعرضت لأعراضنا ليس بسبب لمبة نستخدمها من أجل أن نبصر ونتدبر حاجتنا ألا يكفينا ظلم وظلام، أنت تعرف السبب الحقيقي، خاف أن أفضحه بين الناس أنه سارق ولص. ذهب مسرعاً ومن معه. في الصباح لم أستطع أن أسكت لا بل كتبت طلباً إلى مدير السجن وأرسلته مع رقيب قد جاءنا وكتبت فيه «أناشدك بشرفك الشخصي والعسكري أن تخرج أمهاتنا من أماكن الرذيلة التي أرادها المساعد على لأمهاتنا.... الخ» كنت قد استعجلت في إرسال الطلب إذ لم أعد احتمل أية إهانة دون أن أرد عليها حتى ولو كان الثمن هو الموت كرهنا الحياة في ظل الذل والاستكانة والابتذال. كانت الرسالة قد وصلته قبل أن يقدمها إلى مدير السجن إذ أعلمنا أن أحدا لا يستطيع أن يتعدى علينا في هذا المكان، طلبني المساعد الشبيح علي ووضعني في زنزانة في قبو أسفل البناء. دخلت الزنزانة إذ كانت وكأنها قطعة من المحيط المتجمد الشمالي وبعد إغلاق الزنزانة لم أعد أبصر شيئاً وان البطانيات كانت وكأنها مغسولة للتو بالماء وضعت نفسي أسفل البطانيات وأسندت ظهري إلى جدار الزنزانة

لعدم وجود ما أضعه تحت رأسي إذا ما أردت أن أنام. كنت أتلمس جوانب الزنزانة كلما أردت الذهاب إلى الحمام إذ لا أبصر شيئاً أبداً.

كان البرد يأتيني من كل مكان ومن كل صوب واتجاه حتى أنني كنت لا أشعر بحذائي عندما يخرج من قدمي لأنني لم استطع أن أتخلى عنه حتى في أثناء النوم لشدة البرد. كنت لا أستطيع أن أعرف أوقات النهار إلا من خلال أوقات إحضار الطعام لم أستطع الأكل أبداً بل كنت قد استخدمت أكياس النايلون والتي أحضروا بها أوقات الخبز وشيئاً من البطاطا (البطاطس) المسلوقة استخدمها في حماية أقدامى من البرد إذ وضعت كل قدم في أحد الأكياس عسى أن يقيني شيئا من البرد. كنت لا أستطيع النوم إلا من خلال ما يسرقني النوم ولبرهة من الزمن خلسة من البرد.

أمضيت يومين وبعثوا لي من يخرجني وقابلت مساعداً آخر لا أنسى أبدا رقته وحسن معاملته للسجناء بقدر ما تسمح له الظروف المحيطة بى. حاول أن يبسط لي الأمر وأن أتناسى الأمر وكأنه يقول لي ليس عليك إلا بالصبر وإلاّ ستواجه متاعب بأشكال مختلفة وجهات مختلفة أي أننا كنا في يد عصابة مارقة. استهوت إذلالنا واستعبادنا والنيل من كرامتنا دون أن نجد ملاذاً يحمينا أو قانوناً نحتكم إليه من أناس استباحوا الإنسان والأوطان. عدت إلى مهجعى وكأنما عدت إلى منزلي وأهلي بعد أن أصابني من البرد ما جعلني أكره تناول الماء البارد أو ملامسته. حتى في هذه الأيام.

محطة صبيحة ألم - سجن صيدنايا العسكري - ريف دمشق:

ظننا أننا قد دفنا الآلام والأحزان في رمال صحراء تدمر. وخرجنا إلى فضاء الأمن والأمان بعد عقود من الزمن سود وعجاف عشناها في تدمر قهرا وإذلالا. يرد إلى مسامعنا أصوات وعويل يخيم علينا حزن شديد لُمر مذاق هذه الأجواء التي شربنا كأسها من الحنظل وخبرناها آلاماً وأحزانا، نعلم أن هؤلاء سجناء من الجزيرة وقد أبصرهم البعض وهم يحطون أرض سجن صيدنايا. علمنا أنهم من أكراد الجزيرة تم اعتقالهم على إثر أحداث مفتعلة يؤجج صراعاتها أدوات السلطات الأسدية المجرمة التي تعمل بشكل دءوب على أحداث الفتن بين أبناء الشعب الواحد من خلال إثارة نعرات طائفية ونزاعات عرقية وذلك ليتسنى لها إحكام قبضتهم البوليسية على رقاب الشعب السوري لضمان استمراريتها في السلطة واستحواذها على مقدرات الشعب والبلاد.

هذه أمور ظاهرة للعيان وقد أحدثوا ذلك وعلى سبيل المثال بين القبائل في جبل العرب وبين مجموعات من الطائفة الدرزية في جبل العرب أيضا إذ هم جميعا يعيشون في بوتقة واحدة منذ أزمان طويلة دون أن يحدث مثل هذا الصراع الجماعي. وإن كان الأمر لا يخلو من أعمال شغب ونزاعات متفردة ومتفلته سرعان ما يعمد عقلاء القوم من أبناء المنطقة على احتوائها و إزالة مسبباتها. وقد حدثت مثل تلك الأحداث المفتعلة في محافظات مختلفة في سوريا إذ حدث ذلك في حلب وفى حمص وفى أماكن كثيرة لست في صدور الولوج في أحداثها والأمور المقصودة منها. نعم إن الجزيرة في محافظة الحسكة تدعى البقرة الحلوب إذ أن البترول قد تفجرت آباره في أراضيها. و أن أرضها الممول الأساسي في سوريا لمحصول القمح والقطن ولو أن السلطة الأسدية والتي تسللت لواذا لاستعباد الشعب السوري ومنذ أكثر من أربعين عاماً، عمدت لإقامة منشآت صناعية ومشاريع استثمارية لتشجيع الناس للهجرة إليها وتحولت تلك البلاد الشاسعة إلى مدن عامرة وزاخرة بالحركة والنشاط ولذاب أفراد المجتمع الأصليون في خضم أعداد السكان والذين حطوا البلاد سعياً وراء العمل والاستثمار من مختلف محافظات سوريا

وقد يكونون من خارج سوريا إذا لذهبت أسباب التعصب تحت مسبباتها المختلفة وانتماءاتها العدوانية. ولكن السلطة الأسدية كانت تحابى فئة دون فئة أخرى مما جعل الكل يسعى للتقرب منها على حساب الطرف الآخر. يستمر الضرب والجلد والإذلال في الطوابق العلوية من مكاننا وأن ذلك ما كان ليحدث لو أن هناك سلطة رشيدة لعمدت إلى إصلاح الناس ولاسيما من الشبان وتعليمهم وإرشادهم إلى ما هو نافع ومفيد في حياتهم دون اللجوء إلى الضرب والإهانه لأن الضرب في أي مجال هو ظاهرة للتعبير عن الفشل إذ أن العقل البشرى قادر على أن يستوعب كل الأمور والمشاكل وقادر على أن يتمثلها ويجد الحلول المناسبة لها دون اللجوء إلى الضرب ولكن عندما يتعطل العقل تتحرك الجوارح نحو السوء والأذى.

هذه أمثلة عانَى منها الشعب السوري خلال كيان الأسد المصطنع وسلطته الغاشمة وما يحدث في سوريا الآن ليس صراعاً مذهبيًّا كما يزعم البعض أو نتيجة هلوسة عقائدية أو مذهبية أو عرقية بل أن ما يحدث في سوريا اليوم هو نتيجة ظلم واستبداد وقهر وإذلال كان بركانا ثائراً وموج محيط في العواصف يزيد متحديا وقاهرادولة الظلم والظالمين وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون فبعذاب الشعب يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح الظالمين.

محطة وافدين - سجن صيدنايا العسكري - ريف دمشق:

وحيث أن قطارنا يمضى في ساحات العذاب والشقاء فيمر بمحطات لا بد من الوقوف عندها وذكر ما وقع عليه البصر. فذات يوم يستقبل مهجعنا وافدين سوريين أمضوا جُل شبابهم ورجولتهم في دولة العراق ومنهم من وُلِد في العراق وتعلم في العراق وجاء إلى سوريا لتستقبله السجون.

هؤلاء منهم من غادر إلى العراق وانضم إلى المعارضة السورية في العراق من جناح بعث العراق وشارك في أعمال عسكرية أو أعمال سياسية مناوئة لنظام البعث السوري. كان هؤلاء يتقاضون رواتب من حكومة العراق وحصلوا على بيوت ملكاً لهم أيضا من حكومة العراق وكان ينظر إليهم العراقيون أنهم من أتباع صدام حسين وخاصة هم المعارضة العراقية لنظام صدام يعتبرون السوريين البعثيين الموجودين في العراق هم من زبانية صدام حسين فعندما تم الغزو الأمريكي إلى العراق وسقطت مقاومة النظام العراقي في وجه ذلك الغزو الأمريكي إلى العراق فر. هؤلاء السوريون إلى المنطقة العازلة بين الحدود العراقية والحدود السورية خشية أن يقتلهم العراقيون والذين هجموا على منازلهم فاحتلوها ونهبوا محتوياتها من أثاث وأمتعة وذلك حسب ما رواه لنا السوريون المقيمون في العراق. ولقد ذكروا لنا أن الحرس الجمهوري لصدام حسين قد فروا وتركوا أسلحتهم في الشوارع وذلك أيضا حسب قولهم وزعمهم. وأثناء وجودهم في المنطقة المحايدة لحق بهم وفد أمريكي وطلب منهم أن يبقوا في العراق ويؤمنوا لهم الحماية على أن يتعاملوا مع الأمريكان ضد سوريا أيضا حسب زعمهم فما كان جوابهم وحسب أقوالهم أيضا أنهم يرفضون أن يدخلوا سوريا على ظهر الدبابات الأمريكية كما فعل العراقيون المعارضون لصدام حسين عندما دخلوا إلى العراق على ظهور الدبابات الأمريكية أيضا على حسب زعمهم. كان في استقبالهم الأستاذ «كمال الشعيبي أبو مهند» معارض سوري كان في العراق واعتقل في سوريا وكان ذا منصب في حزب البعث أثناء وجوده في العراق. لقد دعاني إلى وجبه الإفطار أقامها لبعض منهم إذ أن عددهم كان

في حدود أربعين أو خمسين شخصاً وقبل دخولهم إلى سوريا أبرقوا للسلطات السورية الأمنية وقالوا لهم أنهم يرفضون التعامل مع الأمريكان ويطلبون العفو عنهم والسماح لهم بالعودة إلى بلدهم سوريا. وفعلاً سمحت لهم السلطات السورية بالدخول وأبقوهم عندنا حتى تمّ تسوية أوضاعهم بعد التحقيق معهم في فروع المخابرات الأسدية ومن ثم تم إطلاق سراحهم وما كان ذلك ليحصل لولا التغييرات السياسية الدولية والإقليمية لتصب جميعها في خدمة كيان الأسد المصطنع وسلطته الغاشمة.

إذ أن مثل تلك الأمور والحرب العراقية الإيرانية وأحداث العراق والكويت كلها كانت في خدمة طاغية سوريا وأسرته البغيضة لتمد في عمر سلطته وتشد من عضده.. حتى أصبح كيانه وسلطته أداة قهر وهدم وحصار وتجويع وترويع ضد شعب لا جرم له سوى أنه ملّ حياه الخنوع والركوع وبادر ليطالب بحريته المشروعة وحقوقه المنهوبة فكان عقابه أن يرمى ويقتل بالسلاح الذي دفع ثمنه من لقمة عيشه ليكون أداة لتحصين الوطن وحماية حقوق الوطن لا ليذبح ويحرق ويدمر بهذا السلاح على مسمع ومرأى العالم وحقوق الإنسان و أدعياء التقوى و الإيمان في ديار الملالى والآيات إذ يحلو له قتل الشعب السوري بأكمله ثمنا لبقاء بشار وزبانيته في سدة السلطة القهرية الاستبدادية، هل إيمانهم يأمرهم بهذا بل هم قوم ماكرون. وما جزاء من يفعل ذلك منهم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يفعلون.

المحطة - الذهاب إلى البعيد -
في سجن صيدنايا العسكري - ريف دمشق:

وفى ليلٍ دامس حالك السواد وقد اغتيلت نجومه في بحر من الظلام أذكر البدر وقد غاب ولم يعد له حضور في ذلك الزمان والمكان. وأذكر الرمح الذي كنت أتوكأ عليه وأتلمس به طريقي نحو النجاة والانتصار ذهب واضمحل إلا من ذاكرتي ولم يعد له حضور شخصي وأ نافي أشد الحاجة إليه في محنة هي الضنك والبلاء.

غاب عنى وكان ملء العين والبصر والأمل دون أن تكتحل عيناي برؤيته. غاب عنى والدي والذي هو لي كل تلك المثل من عز وافتخار كان هو والدي وأخي وصديقي وكل شيء لي في هذه الدنيا. ذهب عنى ولم تكتحل عيناه برؤيتي قبل ذلك السفر البعيد. وكذلك لم تكتحل عيناي برؤيته ولأهمس في أذنه:

نم قرير العين فأنا معك والله على الوعد والعهد على نهج الشيم والمبادئ والقيم مهما غَلى الثمن واشتد الوطيس، وذهب في ذلك الطريق وذلك النهج أخي وأهلي أحبائي كما هو الحال بالنسبة لأمثالي ممن شاءت الأقدار أن يكونوا ضحية وجبروت كيان الطاغية حافظ الأسد ووريثه وزبانيتهم من المجرمين والطاغين والفجار.

وتذهب الزوجات بعد صبر وانتظار لتجد واقعاً لم يكن في الخيال والحسبان وتتزوج من أخ لزوجها بعد أن لم يعد هناك أثر لوجوده طيلة سنوات من الانتظار وهى في ريعان العمر و زهوة الشباب ولم تجد بُدًّا لسترها ورعاية ابنها وبنتها إلا من حتمية ذلك الاختيار في عالم كوابيسه قبور بشرية حية أرادها حافظ الأسد وبشار لشعب ضاقت به المحن وأعوزته حيلة المقاومة والانتصار. وتخلّى عنه المقربون من الأهل والخلة والجيران.

ولم يكن ذلك هو آخر المطاف من أساليب القهر والامتهان. لا بل الأمر أكثر وقعا وحيرة في نفس كل حر عندما يصل الأمر أن الأب لم يعد يعرف ابنه، لا بل يتنكر له في حضور زبانية الأسد في السجن ويصرخ بهم هذا ليس ابني أين ابني؟!! أنتم تخدعونني

إن ابني قد مات أو قتل. أمر يذهل السجان فيعود بالسجين إلى خارج المكتب والمكان ليعود فيسأله ما اسمك وما اسم أبيك؟. يتأكد السجان أن هذا السجين هو ابن ذلك الشيخ الذي لم يعد يعرف ابنه لطول زمن سجنه ومرارة حيرة الانتظار.

يعود به السجان ليقنع أباه أنه هو ابنه وأن فلاناً ابنه الحقيقي وكذلك يتكرر المشهد عندما يحضر السجين لمقابله أهله وحال دخوله عليهم يندفع بشوق ولهفة ليقبل يد والدته. فتصرخ حزينة لتقول له يا أخي أنا أختك أما أمك فقد توفيت، هذه جرائم ليس لها مثيل إذ يفر الأمر من أمه وأبيه في هذه الحياة الدنيا بعد أن فقد المرء ذاكرته وعاطفته وحسه إلا نحو أشباح عاشت في مخيلته ولم يعد يتذكر حقيقة معالم أهله الفعلية بعد أن حل بها من عاديات الزمن وتغير الأشكال والألوان. فكيف لا يكون الإنسان غريباً عن أهله ودياره بعد أن تجمد فكره وعقله وانقطع عن الأهل والديار في سنوات عانى منها ما يضيق به الصدر وتكاد تئن منه ثقل وطأته الراسيات الباسقات من الجبال.

أنا لا أكتب ذلك من وحى الخيال ولا أكتب ذلك استجداء لعواطف الآخرين لا بل هي حقائق يعرفها جُل من مر بسجون لا بل بمقابر الأسرة الأسدية في جميع السجون التي ذكرتها و أخص منها سجن تدمر العسكري و ابتعد عن ذكر الأسماء خشية أن أنال من مشاعر أهلها أو أحدث بهم أموراً تخدش حياءهم وسترهم إذ لم يعد بودهم ذكرها أو الخوض بها لأنها قد أصبحت في زوايا الذاكرة المبيتة أكتب ذلك عسى أن تلامس مسامع أولئك الذين يآزرون الطاغية بشاراً في قتل شعب أعزل ناله من بشار ووالد بشار من الجرائم والذل والامتهان ما يندى له جبين البشرية والإنسانية والتي تغط في نوم عميق عند البعض لا بل أغلبية الكون والمعمورة وأدعياء التقوى والإيمان ممن يقاتلون إلى جانب أهل تلك الطغمة الأسدية وزبانيته من الخونة والعملاء. ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز.

محطة الجميل والعرفان:

الشكر يزجَى دوماً لأصحاب الفضل ولأصحاب الأيادي الخيرة والمواقف النبيلة والنفوس الطيبة والطاهرة هم كثيرون لا أقدر على حصرهم وذكرهم ولكن ذلك دون أن أغفل و أثمن غاليا وعاليا طيب مواقفهم ونبل مشاعرهم وطيب مساعيهم الظاهرة منها والخفية، هم الأهل والأصدقاء والقربى والأخوة وكل ذي حس إنساني لمواقفهم جميعاً التي هي دين في عتقي ما دام لي قلب ينبض وحضور في هذه الحياة الدنيا سائلاً الله عز وجل مخلصاً أن يجعلها في ميزان حسناتهم وحسن الثواب لهم في الحياة الدنيا والآخرة.

شكري الخاص لجلالة الملك الحسين بن طلال طيب الله ثراه وأسكنه فسيح جناته وتغمده بوافر رحمته. لقد حمل جلالته في جوانب مساعيه الطيبة لإخلاء سبيلي وتحريري من ربقة الأسر الأسدى صادق المساعي والإخلاص طالبا تحقيق ذلك من حافظ الأسد شخصيًّا والذي وعد جلالته بإخلاء سبيلي كما وعد جلالته أن أصل إلى عمان قبل وصول جلالته إليها. إلاّ أن حافظ الأسد لم يوفِ بوعده كما وأن جلالته طيب الله ثراه كلف رئيس ديوانه الملكي الهاشمي دولة الرئيس عوني الخصاونه المحترم يخاطب الخارجية الأردنية ممثلة بمعالي الوزير أن يسعى جادًّا لإخلاء سبيلي فلا عجب أن يحصل ذلك من جلالته إذ أن جلالته سليل المكارم ووارث مجد آبائِه وأجداده الصيد الغر الميامين. كما لا أغفل طيب مساعي جلاله الملك عبد الله بن عبد العزيز خادم الحرمين الشريفين حفظه الله وأبقاه ومن خلال قنواته الخاصة وقد علمت بتلك المساعى الحميدة والمشكورة والمقدرة ألا إن جميع تلك المساعي لم تحظَ بالنجاح المطلوب . صادق شكري وتقديري لكلا جلالتهما لمساعيهما الطيبة والتي هي موضع حفاوة وتقدير من قبلي وأهلي آل الطحان و أبناء عمومتي أبناء قبيلة النعيم أينما وجدوا أو حيثما حلوا.

ومن الأشخاص الذين أجد لهم ديناً في عنقي وأن أخصهم بالذكر هم أخي وابن عمى الشيخ صالح بن جاسم الطحان رحمه الله وتغمده بوافر رحمة ورضوانه. لم يكن

صالح هو إنسان أو أخ عابر في حياتي لا بل أزعم صادقاً أنه كان بمثابة روح لي ثانية تتواجد في جسد آخر لم يفارقني ولم أفارقه طيلة أحد عشر عاما تقريبا لأكثر من ليلة واحدة عندما نتواجد كلانا على أرض سوريا.

كان رحمه الله خير خلف في المال والأهل والولد كان عظيما في كل شيء كما عهدته من قبل صادق الوعد والعهد طاهر الفرج واليد مخلصاً لدينه متواضعا في معشره رافداً للخير إلى كل من يندبه أو يقصده عالي الهمة فارس في كيل ميدان ماسكا بناصية العلم والمعرفة، فُرقاه هي غصة في صدري تحضرني العبرة كلما مر طيفه بخاطري كيف أنساه وهو مني في كل شيء في نفسي ودمي وروحي. تغمده الله بوافر رحمته وأسكنه فسيح جناته.

شكري وتقديري لأخي الشيخ حمود بن حمد الطحان وأخواتي الإناث حيث كنت موضع اهتمامهم وحزنهم وسعيهم الدءوب لرؤيتي وإخلاء سبيلي. كانوا يتعنون مشقة الدرب وعنائه عندما يحضرون إلى تدمر لزيارتي كانوا يعملون بجد واجتهاد لتزويدي بحاجياتي وكل ما يلزمني عندما يجدون للوصول إلىّ سبيلاً.

وبعد استقراري في صيدنايا ومعرفتهم بنظام السجن. قد أحضروا إلىّ وليمة كانت مصدر فخري واعتزازي إذ أحضروا لي ما يزيد عن خمسة عشر «منسفا» من أفخر المأكولات وتعددها حتى في الوعاء الواحد كانت عوناً لي لأقدم لزملائي في المهجع وللبعض منهم خارج المهجع مما اعتبره عربوناً للتقدير والاحترام والمواساة لهم جميعا، كما أحضروا لي من الأطعمة المنزلية والصالحة للاستعمال لأشهر الكميات الكافية لي ولكل زملائي في مجموعة الأكل وكان كل ذلك عناء لهم حتى حين إدخاله لداخل السجن. إذ كان عليهم أن يحملوه مسافة طويلة هي شاقة وعسيرة عليهم تحملوا كل ذلك من أجلي ألا يحق لهم أن اقدم لهم فائق التقدير والاحترام وأن اعترف لهم بذلك الجميل والعرفان.

كما لم يبخلوا على أبدا في إيصال مبالغ مالية لى على الدوام حتى أتمكن من تأدية الواجب لكل من له حق علىّ وكان هذا بلسماً لمداواة بعض جراحي في ذلك المكان المهين.

محطة قبل مغادره سجن صيدنايا :

في هذا المكان كان لي أن أتعرف على كل من العميد الركن تيسير لطفي والعميد الركن صلاح حلاوة وهذان الشخصان قد رأيتهما في زيارة من قبلهما إلى المهجع الذي كنت فيه من مهاجع الإخوان المسلمين. كان العميد تيسير لطفي وهو من مدينة حماة وهو من مرتبة العمليات الحربية وأما العميد صلاح حلاوة فكان مرتبة اللواء الأربعين في مدينة الكسوة. لقد نسب إلى كليهما قيادة الحركة الانقلابية ضد كيان حافظ الأسد وسلطته الغاشمة وذلك في عام ١٩٨٢م والتي تم فضح أمرها من قبل العميد المدعو أحمد عبد الغني بعد مفاتحته بالانضمام إلى حركتهما وموافقته على ذلك ألاّ أنه وشى بذلك إلى اللواء شفيق فياض والذي هو من الطائفة النصيرية فما كان من الأخير إلاّ أن أبلغ حافظ الأسد بذلك. ولقد كوفئ الشبيح أحمد عبد الغني والذي هو من منطقة القصير حمص وعلى المقربة من الحدود اللبنانية. وأصبح مديراً للكلية الحربية وبعدها عين قائداً لأحدى فرق الجيش وعلى ما أعتقد الفرقة التاسعة وإن من الضباط الذين كانوا في هذه الحركة العميد على عنتر قائد أطقم الحوامات المتواجدة في الغوطة الشرقية.

وكان معنا في تدمر عدد من الطيارين الشباب برتبة مقدم وكان منهم المقدم محمود أحمد كيكى من دمشق وبعض زملائه. لقد كانوا مثالاً للتضحية والبسالة حتى في السجن إذ كانوا لا يتوانون عن خدمة المهجع في إدخال الطعام إذ كانوا لا يتكبرون عمن حولهم ولو كانت معرفتي معهم إلا قليلة وكان يوجد في مهجعنا العميد الركن «محمد نذير السقا» وهو عميد ملاحة ومعنا أيضا العميد الركن عبد السلام آله ولكن لم يكن من أبناء دعوتهم بل أسندت له تهمة كيدية وبعد تقاعده وهو كبير مهندسي سلاح الجو السوري.

اذكر ذلك لأبين أن الشعب السوري لم ينم طويلا على نهج حافظ الأسد الاستبدادي وممارساته الديكتاتورية ضد كافة طوائف الشعب السوري ولكن كل تلك الحركات قد قوبلت بالبطش والقتل والتعذيب وان ذلك كان يتم من خلال تعاون استخباري

خارجي عمدَ لكشف هذه الحركة ليطيل من عمر كيان الأسد المشبوه وليحقق أغراضا خارجية لا تخدم الأمة العربية وقضاياها وكما لا تخدم الشعب السوري الذي ذاق مر العذاب والهوان من قبل ذلك الكيان الإجرامي والمستبد.

وما كان أحمد عبد الغني إلا السبب المباشر في كشف هذه الحركة وإن من الوجوه السياسية المدنية والتي كانت تضمها الحركة هو المهندس خالد الشامي وا لذى لم أعش معه إلا لساعات قليلة ولكن قد سمعت عن سعة أفقه ودماثة خلقه وطيب معاملته للآخرين حتى من الذين لم يكونوا من الإخوان المسلمين أقدم هذه الشهادة وأنا لا أعرفه جيداً ولكن أقول ذلك لإقرار الحق وإنصافه وقد أفرج عنه قبل أن نخرج نحن من صيدنايا بتاريخ ١٨-٧-٢٠٠٤ م.

وإنّ من الأشخاص الذين كانوا ضمن هذه الحركة و أسند لهم تهمة الانضمام إليها العميد الركن رياض محاسن من دمشق والمقدم الركن حسين النواف من قبيلة النعيم وقد أمضى كلا من المذكورين مدة عشر سنوات زورا وبهتانا.

المحطة سجن أمن الدولة في كفر سوسة دمشق .في طريق العودة إلى الحرية:

ذات ليلة كنت مدعوا من قبل أصدقاء لي من محافظة الحسكة وهم من الإخوة الكرد لأمضى عندهم تلك الليلة في غرفتهم من ذات المهجع الذي أنا فيه إذ أن النظام في سجن صيدنايا يسمح بذلك. تناولت وإياهم العشاء سويًّا وكان ذلك مدعاة لسرورهم أن أمضى معهم تلك الليلة وكان يقيم في تلك الغرفة المدعو «محمود الخطيب» من منطقة القلمون في ريف دمشق وأن المذكور هو المتهم بإطلاق النار على عبد الحليم خدام في منطقة دمرُ بالقرب من معمل الأسمنت على طريق دمشق بيروت القديم، وقد سلم نفسه للسلطات السورية إبان الغزو الأمريكي للعراق بعد أن عمد جميع السوريين المقيمين في العراق من جناح البعث العراقي تسليم أنفسهم وكما أشرت سابقاً.

لقد أخلى سبيل جميع من سلموا أنفسهم إلا هو وأخوه لإجراءات أمنية معينة.كما يزعم النظام الأسدي

كنا نتسامر ونتحدث فيما بيننا وفى ساعة متأخرة وفي سكون الليل وهجعته يولد فجر جديد في حياتي وآخرون إذ يرد إلى مسامعنا ومن خلال فتحة صوت يحمل في طياته نبأ إخلاء سبيلي من ضمن أسماء أخذت تتوارد إلى مهاجع السجن. كانت تلك البشائر هي فجر الأمل وقد ولد من رحم ليل دامس طال بزوغ فجره أمل الحياة في بعث جديد بعد عناء وضنك في قبور كيان الأسد المصطنع وسلطته الغاشمة. بعث نوره وضياؤه مشاعل تبدد ظلاماً قد ران واستقر على قلب كيان شعب مضطهد وقد أسر في ربقة ودهاليز طاغية كذاب أَشر. طيور البشائر تطوى المسافات ليعم البلاد أنباء فرح مستقر كغيث خير منهمر يعم البلاد بعد قحط أزرى بالعباد وبؤساً مكفهر.

النوم قد فارق العيون وحبانا الله بهجة فرح مزدهر. نتلمس الطريق كيف يكون

اللقاء بعد ذلك الأمر. أيطيب للعين النوم بعد ذلك الخبر لا وربى إنها نعمة تحيي البشر، طال العناء وما أبهى الغيث سحاباً منهمر. الأرض عطشى بعد قحط مكفهر.

وبعد بزوغ الفجر تحيى النفوس ربيع عمر مستمر. يناديني الصحب أين أنت من ذلك الزهر انهض شوقا وامض صوب قبو منطمر. مَلَّني البؤس من النوم فوق ذلك الحجر.

وفى الصباح تفتح الأبواب وأمضى نحو مهجعى لملاقاة صحبة لي في ذلك الأسر. نلتقي فرحا بعد ذلك الصبر. نرجو العفو عن إخوانٍ لنا في ذلك القدر. لا يطول بى الفرح بعد حزن مصطبر إخوة لن نتركهم ونودعهم بالبكاء والحزن نحنوا عليهم ويخالطهم حزن وقتر. يخرج بنا السجان إلى باحة ذلك القبر ونصطف جميعا في انتظار ما يصدر إلينا من أمر، أترك هناك صديقي محمود قهيدو وأصدقاء لنا يأسرهم الحزن ويحضرهم البكاء والضجر. أدرك جيداأحزانهم وقد فارقهم الأمل في أن يصطحبونا في ذلك المسير ونحن لا نملك من أمر مواساتهم إلا البؤس والصبر.

يجتمع بنا مدير السجن ولا أخفى انه كان فرحا لخروجنا من ذلك الواقع المزري ولا يليق بأحد من أبناء البشر في مقبرة ضاع فيها الحق واندثر. ننتظر طويلا حتى سمعنا بخبر قدوم السيارات المعدة لنقلنا ومغادرة السجن. يتم مناداتنا بالاسم ويخرج من كان قد سمع اسمه ليصعد إلى تلك العربة التي ستقله إلى شعاع النور والبصر. وأخيراً يرد لمسمعي اسمي واسم زملائي ونصعد في سيارة صالون أحراراً بدون قيد أو أسر. أركب بجوار السائق وبجانبي السجان الموكل إليه أمرنا. وتنطلق بنا القافلة ونمضى في سهل الزبدانى ونمر على أماكن الاصطياف ونسمع أصوات تنطلق منها من كازينوهات معدة في ذلك المكان لروادها ومحبيها ونمر في أحياء عامرة تنبض بالحياة والسعادة. تلك المشاهد التي لم نعهدها أو نتصور أن نسمع بها بعد أن أنسانا السجن بهجة الحياة وضحكتها وأورثنا عنها الشقاء والبكاء والحزن.

يمضى بنا المسير نحو سجن أمن الدولة في كفر سوسة أي منطقه كفر سوسة حيث

يوجد السجن ويحط بنا قطار المسير إلى مدخل السجن وبعد إتمام الإجراءات اللازمة ندخل باحة السجن ويتم تفقدنا والتأكد من أسمائنا ندخل في مكان معد لنا في القسم الجنوبي من ذلك السجن حيث يتم إيداعنا في غرفتين لا تزيد مساحة الواحدة منها عشرين متر تقريباً ونحن يبلغ عددنا حوالي خمسة وسبعين شخصا.

المكان يضيق بنا وهو أيضا تحت الترميم ولكن كان يخفف من عنائنا وشدة الحر. هو وجود مياه الفيجة العذبة والباردة حتى في عز الحر. نغسل منها وجوهنا وأيدينا فنشعر بعدها بالانتعاش ويحل علينا الليل وننتظر العشاء فإذا به شيء من البرغل واللبن، خاطبت مساعد الانضباط والذي تركناه منذ عشرين عاما فإذا به لا يزال في ذلك المكان وقد مضى عليه في الخدمة خمسة وخمسون عاما قلت له «يا سيادة المساعد لقد ملت قلوبنا البرغل واللبن ونحن اليوم عندك ضيوف هل من اللائق أن نتعامل هكذا ونحن سنرحل عنكم قريبا»؟. قال لي اليوم عطلة أي كان يوم الخميس مساءً ولا يوجد عندنا شيء غير هذا العشاء، قلت له نحن نملك نقوداً ونريد أن تسمح لنا بفاتورة خارجية للأكل والشرب، وافق على ذلك الطلب وأحضرنا دجاجاً مشويًّا وفواكه وعشاء لائقاً بعد جوع لازمنا عقدين من الزمن و نيف إلا خلال فترات متقطعة أمضيناها في صيدنايا.

يحل الظلام ويحل بنا التعب والسهر وننام وكأننا أكوام بشرية ولكن قد سمح لبعضنا بعد أن نمنا أن يخرجوا إلى باحة قريبة ويمضوا تلك الليلة في ساحة الباحة بجوار زنازين مليئة بالسجناء وقد لاحظتهم وهم يخرجون إلى الحمامات كانت ملامحهم أنهم خليجيون كما بدا لي ذلك وهم شباب في مقتبل الأعمار وفى اليوم التالي كان يوم الجمعة إذ لا ينتظر أن نخرج أي يخلى سبيلنا ولكن قد أخذوا أسماءنا ويوم السبت أخذوا معلومات عنا هي ذاتية تشمل أسماءنا ثلاثية وأسماء أمهاتنا وإخواننا وأخواتنا و أزواج أخواتنا... الخ وزعموا أن تلك المعلومات سيتم توزيعها على كافة الأجهزة الأمنية ومنافذ الحدود.

وفعلا صبيحة يوم الأحد أخرجونا إلى قاعة وحضر بالحال رجل بملابس مدنية

علمنا أنه عميد وقد خاطبنا وزعم أن الرئيس يحبنا وأن كلًّا منا سيعود لعمله أو لجامعته. وتم فرزنا حسب مناطق سكننا كلٌّ باسم محافظته.

وتم تدوين أسمائنا ليتم نقلنا إلى حيث سفريات كل محافظة وليتم تبليغ السائق حول اسم من لا يملك إثبات شخصيته ليعلم أية نقطة تفتيش بذلك وليتم تزويده بها من مكان إقامته. لقد اخترنا نحن المتواجدين في دمشق أن يطلق سراحنا من باب السجن الخارجي ومن ثم يتوجه كل منا إلى الطريق العام ليأخذ تاكسي يوصله إلى منزله. وحال خروجنا سألني رجل مخابرات – هل أنت مريض – أجبته تعم. أوقف سيارة تاكسي ثم ركبت بها فسألني السائق هل كنت مسجوناً أجبته نعم كم أمضيت في السجن أجبته واحداً وعشرين عاما. أصابه الذهول لا بل الخوف وكأنه يتساءل ونفسه ما هذا المجرم؟ ماذا هو فاعل. مضى في صوب الفيلات الغربية في دمشق الجديدة وسرنا في طريق معبد وتحيط به الأشجار الخضراء وكأني شعرت بطول المسافة قبل أن أصل «أوتوستراد المزة»، سألته أين الاتوستراد. فأشار لي نحوه اتجهت نحو منزلي ودخلت من خلال بداية الشارع وعندها أختلط على الأمر وكأنني أدخل ذلك الشارع لأول مره في حياتي. إذ تغيرت معالم البنيان حيث لم يعد هناك أرض شمسية دون أن تعمر كما لم يعد يوجد بناء دون كسوته و تشطيبه إذ لاحظت أن الشارع قد اكتمل البنيان وهو على غير حالته الأولى عندما تركته... لم أهتد إلى منزلي وكما لاحظت أن أرقام البنايات قد تم تغييرها وهذا أيضا تصرف متعمد حتى لا يستطيع أيٌّ منا أن ينقل عنوان مسكنه لأي شخص كائن من كان إذ تمكن أحدنا من وجود ذلك الشخص.

عندها وقفت بجوار شخص يستعمل موبايل حتى إن الموبايل لم أعرف عنه شيئاً وكان أمراً غريبا عليَّ، سألته عن رقم منزلي وأجابني لا أعرف.

وخلال ذلك تذكرت بعض المعالم والتي جاءت لذاكرتي استوقفت السائق ونزلت عند منزلي وكان يراودني شك حول وجودهم أي وجود أهلي وربما قد حدا بهم أمر ما فغادروا البلاد أو المكان، قد يكون من الممكن أنهم قد باعوا المنزل أو هم في سفر.

طلبت منه الانتظار وصعدت عدداً بسيطاً من الدرجات وقرعت جرس الباب خرج على شاب في مقتبل العمر وكان عاري الصدر نظر إلى دون أن يعرفني، سألته هل أنت حمد لم يجاوبني إذ استغرب ذلك السؤال منى وكأنه يقول من أنت الذي تسألني عن حمد.

أدركت أنه لم يعرفني، أعلمته أنني أنا والده صرخ بشدة وأشرت له إلى سائق التاكسي حيث ذهب وأحضر شنطة لي صغيرة بداخلها ملابس لي أحضرتها خشية أن لا يسمح لي بإخلاء سبيلي ومن ثم لا يعيدونني إلى مكاني الأول وعندها أجد نفسي وكأنني سجنت من جديد إذ لا بد لي من أن أمتلك شيئا من الملابس إذا ما حصل ذلك، ذهب حمد إلى السائق وأكرمه وعاد إلى ودخل المنزل قبلي فسألته والدته وإخوته من هذا أجابهم والدي. لم يصدقوه ظنا منهم أنه يمزح معهم فكنت أنا قد دخلت على أثرها وعندما تأكدوا من دخولي علت الصيحات في جوانب المنزل واندفع الجميع نحوى دون أن أعرف أيًّا من بناتي سوى زوجتي، هنا بدأت المكالمات الداخلية والخارجية تنهمر نحونا وأن أقاربنا وقد توافدوا إلينا شيبا وشبانا رجالاً ونساءً لأننا جميعنا من رجل وامرأة وكلهم أهلي وإخواني وأخواتي. كاد المنزل يغص بالناس وأنا أستقبل وأرد على الهاتف في آن واحد وأذكر أن ذلك كان يوم الأحد الموافق ١٨-٧-٢٠٠٤م وفى اليوم التالي بنو لنا منزلنا لاستقبال الأهل والأقارب في بلدتنا في الجولان حيث انتقل إلى هناك وكلما مررنا بأحد الحواجز العسكرية كان هناك استنفار كامل لعلمهم بوجود الجموع الغفيرة التي هبت لملاقاتي من أهلي وأبناء عمومتي الطحان والأبونمى.

وفى ذلك اليوم عملنا غداء لأقاربي وأهلي آل الطحان والأبونمى، ويوم الجمعة عملنا وليمة لأبناء عمومتي وأبناء قبيلتي النعيم لمن حضروا لزيارتي ولمن كان يريد مشاهدتي.



الخاتمة

مسيرتنا هي آلام وجراح وأحزان وقد تحولت إلى كوابيس تلازمني أينما ذهبت وحيث حللت ولا أستطيع أن أجسدها من خلال كلمات أو أسطر ومجلدات وكما إن الذاكرة لا يمكن أن تحيط بكل أهوالها وجراحها. إن مضيَّ عقدين من العمر ونيف في عالم الآخرين لا يمكن أن يقترب أو يتشابه مع هذه الحياة الدنيوية في شيء لا بل هي حياة تفوق الخيال إذ أنها بركان داخلي يفجر الذات الإنسانية وأحمال وأثقال تقبض الأنفاس وتدمر الصدور وتسلب اللب وتثير الأعصاب وتدمرها، هي ألغام تفترش الأرض والوسادة والدنيا في كوكب منسي مخسوف في قاع الأرض لا تصله عين رقيب أو شاهد حق، يرتجع عنه البصر وتسكت أمامه الكلمات عالم لا تستطيع كاميرا فيديو أن تراقبه وتسجل أحداثه الملتهبة والملتوية والمتلونة بأشكال العذاب والحرمان والنسيان عالم تبقى منه في الذاكرة المسكينة صور حزينة وجراح عميقة تبقى دوما دون ذلك الحس الحقيقي ونبض القلب الفعلي من هول أحداث تنزل كالصواعق وتمحو الذاكرة وتسلب اللب. وأن ما أتذكر منه في بعض من جوانبه لا يمكن أن تصدقه العقول لأنه أقرب إلى السراب والخيال من حياة البشر، ترفضه مسامع الناس لأنه يكاد يكون ضربا من أشكال الكذب والهذيان والجنون. تعود بى الذاكرة إلى حالات ووقائع في ظرف أو زمن محدود ومكان محدود وأسباب باقية في الذاكرة والحس ولكن الأهوال والذهول والهوان والهلع والفزع وضيق النفس والصدر والوحشة والحاجة والفاقة أمور ذهبت ولم يبق منها إلا الإحساس من هولها وذكرها كوابيس تحط على الصدر كصخر حطه السيل من عَلٍ.

ومن هذه الأمور عندما نفقد الأمل في أفراد سربنا الذين كانوا معنا في الهدف والغاية في مسيرتنا الطويلة هل يتصورون هول مصائبنا ومعاناتنا للحظه واحدة بكل أبعادها وآفاقها حتى نتعلق بأهداب الوفاء والتضحية أم ماذا يعنى الوفاء والتضحية عندما تتحول تلك القيم إلى سراب يحسبه الظمآن ماء أو وقد تحولت إلى ظلمات بعضها فوق بعض، ألغت كل نواميس الكون من حدقات العيون وسويداء القلب، ترتجف الفرائص

وتبكى العيون دما وحزنا لا بل وإن العيون وقد جفت ماؤها وما أصعب الضياع تحت يافطة فقدان الأمل وتخلى الأصدقاء وشماتة الأعداء.

لقد تحولت الدموع إلى حسرات وأثقال تتربع على حنايا الصدور والضلوع بعد أن جف فيض دمعها تحملني الذاكرة إلى عهد شباب قد تقاسمنا وإياهم كل تلك المآسي والمحن بالرغم من اختلافنا الفكري والمشارب وحتى في الغايات والأهداف والنظرات للأمور والأحداث لاختلاف الثقافات والمنشأ والتربية الاجتماعية... الخ ولكن كان يجمعنا مشهد من تلك المشاهد وقد تحولنا إلى قوالب متراصة ومتربصة في لحود ولا يتجاوز عرض أيٍّ منها عشرين سم ترقد فيه تلك الأجساد الخاوية تفترش الأرض وتلتحف السماء إلا من أدثار بالية لا تقي البرد ولا تصد الحر، تداهمنا قوى الشر بهيجان من الغضب فيلوذ بعضنا ببعض اتقاء من عذاب جارف و أهوال تمحق آدمية الإنسان وتشل العقل عن الفكر والتفكر وتبقى غريزة البقاء في ساحة الصراع من أجل البقاء في منحه الأمل الضيق.

أبصرنا قوافل الشباب وقد ذهبوا فرحاً وحزناً لملاقاة ومعانقة أعواد المشانق خلاصا من عذاب البشر إلى رحمة رب البشر . ذهبوا عنا وقد أضحوا أثرا بعد عين خطفتهم أيادي الشردون ذنب أو جرم وكان منهم من له علينا أيادٍ بيضاء في المواساة والرحمة والعون والخدمة وصدق المشاعر والحرقة واللوعة ومقاسمة المصائب.

إن ذهابهم هو أكبر من الكوابيس هي سيول من الدماء الزكية روت صدور قوم استمروا بتلك الدماء بعد أن تسيّدوا وخَلِي لهم الجو واستبدَّ بهم البغي وغابت الفرسان عن ساحات الوغى.

أريج تلك الأرواح هي قوارير عطر ليس لها مسمًّى لأنها أكبر من كل المسميات والأنواع وماركات العطور التي سرعان ما تذهب مع الريح أو يزيلها الماء إنها عطر أنفاس زكية اغتيلت غدرا وجبنا.

هي هبات نسيم عليل وقطرات طل تداعب براعم الأشجار والأزهار وتلامس

بطهرٍ ثغر الورود ورطب الأغصان لا بل هي أكبر من ذلك كله حتى لا أجسدها في صور تبقى دون سمو تلك الأرواح، ذهاب تلك الأرواح تبقى كوابيس تؤرقنا في لذة النوم وعشق النعاس. إنها تمثل جحافل لقيم من النواميس والمبادئ والرموز اختطفتها أيادي الشر وطردتها ولكنها ستبقى رموزاً شامخة تخيف الخائفين وتحديا ومثالا لمن أقسموا أن تبقى هاماتهم عصية على الذل ونفوسهم حافظة للمبادئ والقيم. ها هي تلك الأرواح وقد أضحت منارات لكل حر أبى تهز وتطيح بصروح كيان حافظ الأسد ووريثه بشار الأسد وزبانيتهم من المنبوذين والمجرمين.

إن تلك المآسي التي قد كوينا بميسمها وتمرغنا في ذلها تشير إلى سخرية الحياة أحيانا التي لم تعد مكانا صالحاً في سوريا قلب العروبة النابض ودمشق ظئر الإسلام ومرضعة الأبوة لا تُعَقُّ.

لم تعد مكانا صالحا لكل أبى يرعى الشيم ويعشق المكارم وينهل من نمير الرفعة والعزة ويأبى سباق الثعلب حتى ولو غير جلده ولباسه، وكذلك مبارزة الجبان ومصادفة خائن خوار ارتضى لنفسه الغدر واستمرأ مذاق الهوان.

أختتم كتابي بهذا المقال رابطاً الماضي بالحاضر بالمستقبل. إذ الماضي يبين حاجات الحاضر ومتطلبات المستقبل، إن تلك الصور البائسة الحزينة التي مرت بسوريا بكل ما تحمله من معاني الظلم والاستبداد وسياسات الترقيع وإخفاء الحقائق وكسب الوقت للحصول على أمن لا يؤمن بقاؤه ولا يرجى استمراره دون أن تتوفر أسباب الحياة يعيش فيها الجميع وفق قواعد تحوز رضا الأغلبية أو الجميع وحياه كريمة يتبوأ فيها كل فرد مكانه المناسب كخلية سليمة في جسد سليم تعمل بانتظام وانسياب إلى آفاق بعيدة تجلب معها السعادة والرفاهة لكل أبناء المجتمع في ظل شفافية ونزاهة سداها العدل ولحمتها سيادة القانون وثمارها الإبداع والتطور والراحة في بوتقة المحبة ونبذ الكراهية والاستبداد وتكريم قيم الحق والعدل والمساواة من خلال نسق معرفي تربوي متكامل يرتكز وينهل من مبادئ حقوق الإنسان دون إغفال سيادة القانون العادل على دراية

وسداد. إذ أن الإحسان بالإحسان والإساءة بالعدل. والعمل الدءوب وتوفير الظروف الملائمة لتفجير طاقات الإبداع والاختراع ورعايتها ليأخذ المجتمع مكانته اللائقة بين الأمم.

ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخـر في جوها واندثـر

وتكريم الإبداع والمبدعين في مضامير الحياة شتّى والأخذ بأيديهم والاستماع لأقوالهم وإغلاق الأبواب في وجه العابثين والمستهزئين الغارقين في أحلام التائهين والمفسدين، وكما قيل أن الكلمات لا تلغى النواميس وكما وأن الكلمات لا تضع النواميس إن لم تكن مقرونة بالعمل الجاد الهادف المحقق لتطلعات المجتمع وعزته وسؤدده قائماً على نهج الحق والعدل.

أختم كتابي بهذه الأفكار المتواضعة والتي قد وُلدت من رحم المعاناة وسياق الظلم والاستبداد، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ......



الفهرس